PETER SWANSON

بيتر سوانسون

A TALENT FOR MURDER

موهبة القتل

إلى أي مدى تعرفين زوجك حقاً؟

ترجمة: نورهان كمال

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

موهبة القتل

كانت مارثا راتليف قد استسلمت منذ زمن لفكرة العزوبية الدائمة. لم يزعجها الأمر، بل كانت تجد سعادتها في عالمها المنفرد، يحفزها عملها كونها إخصائيةَ أرشيف، محاطة دائمًا بالأفكار التي تشحذ فكرها، والكتب التي تعشقها. لكنها التقتْ آلان، مطلَّقًا، ساحرًا ولطيفًا، الذي كان عمله يقتضي السفر لنصف العام. وعندما طلب يدها للزواج، وافقت، رغم شعورها بأنه ما زال غريبًا عنها بعض الشيء.

يستمر الزواج على ما يرام طيلة عام، لولا بقعة الدماء الغريبة تلك على ظهر أحد القمصان التي ارتداها في مؤتمر في دنفر. وتتحول شكوك مارثا من فضول إلى يقين، فتبدأ في التحري عن المدن التي زارها آلان خلال العام الماضي، لتكتشف نمطًا مروعًا: خمس قضايا لم تُحل لنساء قتلن في ظروف غامضة.

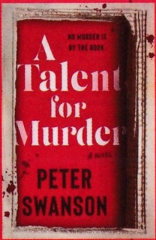

هل تزوجت من قاتل متسلسل؟ أم أنها مجرد مصادفة؟ في حيرة من أمرها، تتصل مارثا بصديقة قديمة منذ الدراسة طلبًا للنصيحة. لقد مدَّت ليلي كينتنر ذات يوم، يد العون لمارثا لتخلصها من براثن حبيب مؤذٍ، وربما تتمكن من إلقاء الضوء على الأمر. وبدافع الفضول، تعرض ليلي مقابلة آلان لتكتشف أي نوع من الرجال هو... لكن ما كشفته ليلي كان أكثر تعقيدًا وشرًّا مما كانتا تتوقعان على الإطلاق.

غلاف: محمود هشام

9 789779 924274

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

PETER SWANSON

بيتر سوانسون

A TALENT FOR MURDER

موهبة القتل

مكتبة ياسمين

إلى أي مدى تعرفين زوجك حقًّا؟

ترجمة: نورهان كمال

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

مكتبة ياسمين

telegram @yasmeenbook

- العنوان الأصلي:
A TALENT FOR MURDER
- العنوان العربي: موهبة القتل

- حقوق النشر:
Copyright © 2024 by Peter Swanson

- الطبعة الأولى: يناير/2025م

- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- تأليف: بيتر سوانسون
- ترجمة: نورهان كمال
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: آلاء الشربيني
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 25084/2024م
- الترقيم الدولي: 4-427-992-977-978

مات أحدهم.
حتى الأشجار تعرف ذلك.

- آن سيكستون، «مَرثيَّة».

جوزي

مكتبة ياسمين

على الرغم من أن جوزي نيكسون تخرجتْ من الكلية وتزوجت وعرفت كيف تُعلق الستائر وفتحت حسابًا للتقاعُد، إلَّا أن الذهاب إلى هذا المؤتمر ما يزال يبدو وكأنه الشيء الأكثر نُضجًا الذي قامت به على الإطلاق. ثمة شيء حيال إرسالك إلى مكانٍ ما من أجل عملك، أو تلقِّي أجر مقابل السفر، أو حضور حدث مِهَنيٍّ يحمل اسمه واحدةً من تلك الاختصارات، قد بدا غايةً في النضج اللعين فحسب.

بعد أن سجلتْ الدخول عند المِنضدة الطويلة الكائنة في مبنى اتحاد الطلاب بجامعة شيبوج، ووقفت عن غير قصدٍ في طابور أ- م بدلا من ن- ي، مُنحت جوزي حقيبة يدٍ رائعة تحمل شعار AEC. كانت من الخَيش الأبيض، ومصممة لتبدو كما لو أنها ملطخةٌ بالطلاء. أخذتْ الحقيبة معها إلى إحدى الأرائك المصنوعة من الفينيل والمُمتدة بمحاذاة الجدار الجانبيِّ وجلستْ. داخل الحقيبة شارةُ تعريفٍ باسمها، بالإضافة إلى شريطة لتعليقها بها، وبرنامج الحدَث الذي يستمر ثلاثة أيام. كانت هناك أيضًا زجاجة مياه، وكيسٌ من رقائق البطاطس محليَّة الصُّنع، ولوح شوكولاتة، من شركةٍ محلية أيضًا. لقد أحبَّت الأشياء المجانية، وقد جعلتْها جميع غنائِمها سعيدة على نحوٍ لا يمكن تفسيره. بعد أن التقطت صورةً على هاتفها للمعلمين الآخرين وهم يسجلون وصولَهم، أرسلتْ رسالة نصيَّة إلى ترافيس، على الرغم من أنه قد أخبرها مسبقًا

بأنه لا يحتاج إلى تقريرٍ مُفصَّل عن عطلتها الأسبوعية. لقد أرادها أن تشعر بالاستقلالية، وأن تفعلَ ما يحلو لها، لكنها أرادت أن يعرِف أنها وصلتْ بأمان. كانت ستشعر على هذا النحو لو أنَّ الأدوار معكوسة. أرسل إليها رسالة نصيَّة على الفور، قلبًا أحمرَ وآخر أسود.

تفحَّصت البرنامج على الرغم من أنها قد قرأته بالفِعل عبر الإنترنت، واختارت مسبقًا ورش العمل والحلقات النِّقاشية التي كانت تأمل في حضورها. الأمر الرائع بخصوص مؤتمر مُعلمي الفنون هو أنه على الرغم من كونه ذا نزعةٍ تربوية، إلَّا أن العديد من ورش العمل كانت ببساطة عن تعليم الفنون. كانت أكثر تحمسًا لفن الكولاج، وورشة صُنع الدمى. اقترب معلمان بتروٍّ وسألا عمَّا إذا كان بإمكانهما مشاركة الأريكة. تزحزحت جانبًا، فجلسا بجانبها بثقل، كانا رجل وامرأة. وقد ربط الرجل شعره على شكل ذيل حصان رمادي، أما المرأة فكانت طويلة القامة وفاتنةً إلى حدٍّ ما. وراحا يطالعان البرنامج معًا. بدا من الواضح أنهما زميلان، وقد سبق أن حضرا هذا المؤتمر من قبل، وأخذا يُطلقان الكثير من النكات حول المحتوى. عندما قرأ الرجل اسم ورشة الدمى بصوتٍ عالٍ، قالت المرأة: «أرفضُ بشدة».

حين أخبرها مُشرِفها براين، أنَّها حازت على الموافقة لحضور هذا المؤتمر، أخبرته أنَّها ستكون أول رحلة عملٍ لها. قال: «كوني مستعدة، فالمعلمون هم الأسوأ في المؤتمرات، مثل الأطفال الذين يسيئُون التصرُّف. إنهم يفعلون أشياء لم يكونوا ليسمحوا لطلابهم بفِعلها مطلقًا».

فجأة شعرت جوزي بالحرج، فنهضتْ وتجوَّلت في اتحاد الطلاب. لقد بدا أن الغالبيَّة العُظمى من الحاضرين جاءُوا في أزواجٍ أو مجموعات صغيرة. وكانوا يرتدون ملابسَ على نحوٍ أكثر تحفظًا ممَّا اعتقدتْ أنهم

سيكونون عليه بالنسبة لمعلمي الفنون. حيث ارتدى العديد من الرجال القمصان المدسُوسة داخل السراويل بينما ارتدت النساء تنانير الجينز. أما هي فقد كانت ترتدي أقدم سُترة جينز لها فوق فستانٍ كستنائي ذي أربطة. وكانت تضع طلاء شفاهٍ أحمرَ قانٍ وعقدها ذا القلادة السوداء، وفجأة شعرتْ بأنها لا تنتمي تمامًا إلى هذا المكان، مثل الطفلة الجديدة في المدرسة التي ارتدتْ أسوأ زيٍّ ممكن في اليوم الأول. وبينما تحاول إقناع نفسها بأن الأمر لا يهم، شقَّت طريقها عبر الحرم الجامعي، الذي اصفرَّت مروجُه بِفعل جفاف الصيف، باتجاه المَهجع حيث سيقيم جميع الحاضرين. كان عبارة عن مبنى خرسانيٍّ قبيح بدا أشبه بسلسلة فنادق بجوار أحد مطاعم آوت باك (Outback) أكثر من كونه مهجعًا في كلية نيو إنجلاند. وفي بهو الطابق السفلي كان هناك مكتبُ استقبالٍ آخر. أعطتهم اسمها وسلموها قصاصةَ ورق مُقيد بها رقم غرفتها والرقم الذي سيفتح الباب. كانت غرفتها في الطابق السادس. استقلَّت المِصعد، وقد حشرتْها فيه مجموعةٌ أخرى من المعلمين، الذين أخذوا يتحدثون عن مطعم في البلدة من المفترض به أن يكون رائعًا، ثم وجدتْ غرفتَها. كانت تقريبًا كما توقعتها: سريرٌ فردي، وجدران خرسانيَّة مطلية باللون الأبيض، ومرحاض في نهاية الردهة. ما لم تكن تتوقعه هو الأبواب الزجاجية المنزلقة التي تؤدي إلى شرفةٍ ضَحلة. كانت تكره المرتفعات، فمجرد وجود شرفةٍ مفتوحة جعل رأسها يدور وقلبها يخفق. على الأقل، بدا أن الغرفة بها تكييفُ هواء، بفتحةِ تهوية صاخبة تدفع هواءً باردًا آسنًا. أخبرتْ نفسها أنها ستحظى بعطلة نهاية أسبوع رائعة، حتى لو لم تُكوِّن صداقات، ثم أفرغتْ حقيبتها ذات العجلات الدوارة، وأخذتْ تُنسق ثيابًا مُحتملة للأيام الثلاثة القادمة.

وفي اليوم التالي، ذكَّرت نفسها بأن الأمور ما تزال رائعة، على الرغم من أنها استمرَّت في الشعور بالغُربة عن زملائها المعلمين. ولا عجب أن ورشة الدمى كانت مذهلةً تمامًا. فقد صنعتْ دمية ذات مظهرٍ ساحر في غضون خمس عشرة دقيقة، باستخدام عيناتٍ من نسيج الصوف والخيوط، وكانت تتوقُ لتجربتِها مع طلابها في المرحلة المتوسطة خلال العام المقبل. لم تكن من أشدِّ المعجبين بلجنة أساليب التدريس ولكنها أحبت صفَّ الطباعة باستخدام الأشياء التي يُعثر عليها، حيث اصْطُحِبوا جميعًا إلى الخارج للبحث عن أشياء يمكن صُنع مطبوعات بواسطتها. وقد عثرتْ على شوكةٍ بلاستيكيَّة قديمة، بالإضافة إلى بعض أوراق الجَنكة، وصنعتْ طبعةً أصبحت الآن مُثبتة على جدار غرفتها في المَهجع.

في ليلة السبت من المؤتمر، احتست جوزي الكثير من النبيذ في ساعة الكوكتيل ووجدتْ نفسها تشرح تعدُّد العلاقات العاطفية لمجموعةٍ من معلمي الفنون من سودبيري في ماساتشوستس.

سألت إحدى المعلمات جوزي، وهي امرأة شابة ترتدي بنطال جينز بنقشة طلاءٍ مُتناثر وقميص أكسفورد: «إذن، هل هناك قواعد، أم أنه لا توجد قواعد ببساطة على الإطلاق؟».

- قد يكون هناك قواعد لمن لديهم علاقات متعددة حقيقيَّة، مثل هؤلاء الذين يلتقون في اجتماعات مُتعددِي العلاقات وما إلى ذلك. بالنسبة لي ولترافيس، الأمر أشبه بأننا نعلم أننا نحب بعضنا بعضًا وأننا سنكون معًا إلى الأبد، إذن فلماذا لا نخوض علاقاتٍ عابرة في بعض الأحيان؟ لماذا نفقد هذا الجزء المثير من الحياة، كما تعلمين؟

- وهل يخبر أحدكما الآخر؟

قالت جوزي: «أجل. في الواقع تلك هي القاعدة. لا علاقات عابرة خفية. يجب أن يكون كلُّ شيءٍ في العلن».

- وماذا سيحدث إذا وقع أحدكما في حُب شخصٍ آخر؟

كان هذا رجلًا أكبر سنًّا ذا لحيةٍ بيضاء صغيرة اعتاد أن ينحني على نحوٍ قريب جدًّا حين يتحدث إلى أحدهم.

- ولكن ألا يُعد الوقوع في حُب شخصٍ آخر مخاطرة بالنسبة لكل شخصٍ متزوج؟

- بالتأكيد. لكن يمكنني أن أجزم بأنَّكِ تزيدين من حجم المخاطرة حين تنزعين ملابسكِ مع أشخاص آخرين.

أخذت جوزي رشفةً من نبيذها، ساكبة بعضًا منه على صدرها إذ أن كأسها كانت ممتلئة أكثر ممَّا تتذكر. هل ابتاع لها أحدهم للتو مشروبًا جديدًا؟

- بالتأكيد، قطعًا. إنها مخاطرة، لكن من وجهة نظري أحب زوجي كثيرًا لدرجة أنني فقط لستُ قلقة حيال ذلك. وإذا حدث وأصبحتْ مشكلة، أعتقد أننا سنتعامل معها. معًا.

قالت المرأة ذات القميص، والتي أصبحت الآن تميل إلى الأمام أيضًا: «كم مرةً يا رفاق تحظيان بعلاقاتٍ عابرة؟».

- تلك هي المعضلة. الأمر برُمته محض نظريةٍ في الوقت الحالي أكثر من كونه حقيقة. نحن نعيش في شمال ولاية نيويورك، وليس بالضبط في المدينة المركزية حيث تبادُل الشركاء.

- اعتقدت أنكما تعيشان في وودستوك.

- نحن كذلك. الأمر أشبه بالعيش ضمن مجموعةٍ من أشخاص ما زالوا يرتدون نعال بيركينستوك ويستخدمون مزيل العرق كريستال. أكثر من كونهم شبابًا ذوي علاقاتٍ مُتعددة.

- إذن فأنتِ مهتمةٌ فقط بالشباب الآخرين، ممَّا يعني أنني خارج السباق.

قال الرجل الأكبر سنًّا، ثم ضحك كما لو كان قد ألقى دعابةً بذيئة.

- لا أعرف من قد أكون مهتمةً به. أعتقد أنني سأعرف ذلك عندما أقابله.

- إذن، هل هذه الرحلة...؟

- لقد منحني ترافيس الضوء الأخضر، وسأكون مستعدةً لذلك، ولكن كما قلت، الأمر لا يقتصر على أيِّ شخص فحسب. أعني أنني أريد أن أكون متحمسةً له.

***

فيما بعد، عندما أصبحت جوزي بمفردها مجددًا، تجلس على أريكةٍ صلبة أخرى من الفينيل، وتطالع البرنامج للمرة المئة، استعادت المُحادثة التي أجرتها مع معلمي ماساتشوستس الثلاثة وانتابها شعور غريبٌ بالخِزي. كان الأمر على ما يرام في ذلك الوقت، لكنها الآن شعرت بالقذارة، وهي تتذكر الطريقة التي نظروا بها إليها، وتتخيل أنهم سيتشدَّقون بالمحادثة على أنها قصة مضحكة من المؤتمر. تلك الفتاة الغريبة المظهر التي كانت تحاول مُضاجعة شخص ما. حدقتْ إلى البرنامج دون أن ترى الكلمات وقالتْ لنفسها إن الأمر لا يهم. لقد كانت هذه هي حقيقتُها ويمكنهم أن يسخروا منها إذا شاءُوا. وكانت تقضي وقتًا ممتعًا في هذا المؤتمر، بالرغم من كونه واضحًا أنها لن تجد شخصًا لتلهو معه بالطريقة التي تأملُها. والآن كان الوقت مبكرًا في المساء ولم تكن تفكر سوى في الطبعة التي صنعتْها في ذلك اليوم

وكم كانت متحمسةً للعودة إلى غرفتها في المَهجع والنظر إليها مجددًا. لم تشعر بهذه الطريقة تجاه قطعةٍ من أعمالها الفنية منذ فترة طويلة.

سألها رجل أكبر سنًّا، نحيفٌ وطويل القامة، ويحمل زجاجةَ جعة: «هل تمانعين إذا جلستُ بجانبكِ؟».

قالت جوزي: «أوه بالطبع. تفضل بالجلوس».

تنهَّد وهو يجلس، كما لو أن جسده يؤلمه. أو ربما كان سعيدًا فقط بالابتعاد عن الحشود، كما كانت جوزي. لوهلةٍ لم تعتقد أنه سيتحدث معها، لكنه التفتَ وقال: «آسف إذا كان هذا يبدو مخيفًا، لكنني كنت سعيدًا برؤيتكِ تجلسين بمفردك. لقد رأيتكِ بالأمس وتمنيت أن نلتقي».

قالت جوزي: «إنه مخيفٌ بعض الشيء». لكنها ابتسمت بعد ذلك لتعلمه أنها تمزح فقط.

لاحقًا، عندما أصبحا عاريَين في غرفتها بالمَهجع، متشابكَين بشكلٍ غريب في الفراش الفردي، شهدت ما يشبه تجربة الخُروج من الجسد، حيث أخذت الغرفة تتلألأ بالطاقةِ المظلمة، وروحِها، أو شيءٍ يشبه روحها، تطفو. قليلًا فوق جسدها. كانت ما تزال تطفو فوق نفسها قليلًا، عندما تخيَّلت محادثتها مع ترافيس، وهي تخبره بكل شيءٍ عن العلاقة، وكيف استمتعت، ولكن ربما ليس بقدر استمتاعها باستخدام صانع الوافل في بوفيه الإفطار.

سألها في ذهنها: «أيهما أفضل؟».

- صانع الوافل.

ضحكت في أفكارها، ولا بدَّ أنها ضحكت بصوتٍ عالٍ أيضًا، لأن الرجل قال: «ما المضحك؟»، وبعدها عادت داخل جسدها.

قالت: «لا شيء».

- آسف لو كنت...

- لا، كان الأمر رائعًا.

وبعد ذلك أخذا يتحدثان، وكان هذا الجزء مثيرًا للاهتمام بالفعل. أخبرتْه أنها تعتقد أنه يخاف من النساء المتحررات جنسيًّا، فضحك وقال إنه ربما كان كذلك. ثم سألها عما تخافه، فأخبرته عن مدى خوفها من المرتفعات.

- هذه الغرف بها شُرفات، كما تعلمين.

- كما لو لم يكن هذا أول شيءٍ لعينٍ لاحظتُه بالفعل عندما دخلت هنا.

كانت ما تزال ثملة، بالإضافة إلى أنها تناولت طعامًا قبل ساعة، وبطريقةٍ ما أقنعها بالخروج إلى الشرفة من أجل مواجهة مخاوفها. وقفا هناك، كلاهما عاريَين، حيث السماءُ مرصعة بالنجوم، وجسدَيهما يجفان في هواء الليل البارد. لقد كان الأمر جيدًا بالفعل، -مثيرًا، حقًّا- ربما فقط لأن السماء كانت مظلمة ولم تتمكن في الواقع من رؤية مدى ارتفاعهما، أو ربما كان ذلك لأنها أصبحت تتمتع الآن بذلك النوع من التجارب التي اعتقدتْ أنها قد تحظى بها في هذه الرحلة. شيءٌ جديد، وخطير بعض الشيء. شعرتْ بأنها على قيد الحياة، بل وشعرت أيضًا بالإثارة لأنها ستعود إلى المنزل في اليوم التالي. لقد حان الوقت. والآن لديها أفكار جديدة لفصلها الدراسي، بالإضافة إلى أنها تتحرق شوقًا لرؤية ترافيس، وإخباره بكلِّ شيءٍ عن عطلة نهاية الأسبوع. لم يكونا قد تحدثا في ذلك اليوم على الإطلاق. وفجأةً أدركت كم افتقدتْه.

كان ذلك عندما أُلقِيت من الشُّرفة.

***

الجزء الأول

بين شتاءٍ وربيع

الفصل الأول

كانا قد التقيا بالطريقة التي يلتقي بها الأزواج في الوقت الحاضر، عبر الإنترنت، واجتمعا ببعضهما بفضل إطلاق كليهما على نفسه مهووسٌ بالكتب، إذ كان كلٌّ منهما يبحث عن علاقةٍ واحدة مستقرة دون أطفال. لقد سبق له الزواج من قبل، بعد الجامعة مباشرةً، ولمدة ثلاثة أعوام. وقد كان الطلاق وديًّا (وفقًا لآلان) ولم يكن هناك أيُّ أطفال. وقال إنه ليست لديه حتى أدنى فكرة عمَّا تفعله زوجته السابقة بحياتها الآن، فقد فقدا الاتصال تمامًا.

التقى آلان ومارثا، بعد تبادُلِهما بِضع رسائل تعريفية، لتناوُل العشاء، وكان آلان يقود سيارته إلى بورتسموث من منزله خارج سكاربورو في ولاية مين. كان أفضل ما في العشاء تلك الليلة -إلى جانب البطاطس المقلية بالكمأة- هو أنه لم يكن هناك صمت مُحرِج. لقد كان آلان ثرثارًا ومضحكًا وواثقًا من نفسه. لم تتأجَّج مشاعر مارثا بالضبط، لكنها استمتعت بوقتها. وفي وقتٍ لاحق من تلك الليلة حدَّثت نفسها بأن قضاء وقتٍ ممتع في أثناء تناول الطعام في مطعمٍ مع رجلٍ غريب ليس بالأمر الهيِّن. فهي لم تواعد أيَّ شخص منذ أكثر من عشرة أعوام. ولم تحظَ بعلاقةٍ عاطفية منذ خمسة أعوام، ليس منذ العلاقة القصيرة والمُحرجة التي حظيت بها في حفل لمِّ الشمل الجامعي بعد مرور خمسة عشر عامًا. لذا حدَّثت نفسها بأن تقول «نعم» لآلان بيرالتا، نعم لمزيدٍ من

المواعدات لتناوُل العشاء، نعم لإقامة علاقةٍ عاطفيَّة إذا كان هذا شيئًا يثير اهتمامه، نعم لكونها في علاقةٍ معه.

وهذا ما فعلته. لقد استمرَّت في قولِ نعم. لم يكن من الصعب القيام بذلك. إذ كان آلان لطيفًا للغاية، وسهلَ المعشر. أجل، لقد كان يُلقي الكثير من الدعابات الغبية لكنه يعلم أنها غبية. وعندما وصلا في نهاية المطاف إلى إقامة علاقة، كان ذلك الجزء لطيفًا، أيضًا. لم تكن منجذبة تمامًا إلى آلان، الذي كان خشن المظهر وهزيلًا وذا عينين غائرتين، لكنه تمتَّع بالكياسة، وعلى الأقل لم يكن يريد أن يفعل أيَّ شيءٍ غريب في الفراش، باستثناء بعض الأحاديث البذيئة التي يهمسُ بها من حينٍ لآخر في أُذنها.

كانت مارثا لتصبح سعيدة بمجرد بقائِها في علاقةٍ جادة، لكن والدة آلان كانت كاثوليكيَّة متشددة، والشخص الأكثر أهمية في حياة آلان، لذلك خلال عطلة نهاية أسبوع في كينويك على الشاطئ الجنوبي لولاية مين، جثا آلان على رُكبته. بينما كانا في نُزهة على جُرف، وطلب من مارثا الزواج منه. لقد كانت تلك لحظة اعتقدت مارثا منذ فترة طويلة أنها لن تحدث لها أبدًا، أيُّ نوعٍ من عروض الزواج، ناهيك بِمثل هذا العرض قديم الطراز، وغمرتها موجةٌ من الامتنان والحب التي دفعتها إلى أن تقول له نعم على الفور. ومع ذلك، في نهاية الرحلة، قال آلان إنه لاحظ أنها أصبحت أكثر هدوءًا منذ عرض الزواج، وكان عليها أن تعترف بأنه مُحق.

- ربما يبدو الأمر مفاجئًا جدًّا. امنحني أسبوعًا واحدًا.

وتصادف أن آلان كان مسافرًا للأسبوع التالي، بحيث أمضت مارثا ذلك الوقت في التفكير في قرارها. لقد اعتقدت أنها تحبه بالفعل، رغم أنها تساءَلت إن كانت فعلًا مغرمةً به. فهو لم يُثر عواطفها الدفينة قط.

ولم تكن تشتاق إليه مطلقًا حين يكون بعيدًا. لكنها أدركت أن هذين الأمرين السلبيين، حتى صياغتهما، ما هي إلا أمورٌ مبتذلة عن الحب الرومانسي، ولا تستند بالضرورة إلى الواقع. لقد أحبَّت رفقته. كان بإمكانهما التحدُّث مع بعضهما بعضًا. كانت رائحته لطيفة. والشيء الوحيد الذي استمرَّ يعاودها هو اللحظة التي أخذا يتواعدان فيها بشكلٍ غير رسمي لأول مرة، في إحدى الأمسيات في بورتسموث، عندما كانا يتنزَّهان بعد تناول العشاء بالخارج. كانا يسيران جنبًا إلى جنب على طول رصيفٍ مظلم. لم تكن السماء تمطر، لكنها كانت قد أمطرت طوال اليوم، بحيث ما تزال هناك بِرَكٌ في الشوارع، وأخذت قطرات المياه تتساقط من المزاريب والأشجار بين الفينة والأخرى. وفي مرحلةٍ ما في أثناء سيرهما، اقتربا من جزءٍ من الرصيف حيث المياه ما تزال تتساقط في تدفُّق مستمر من مظلة فندقٍ كبيرة. ودون أن يتمهَّل، مرَّر آلان يده حول خصر مارثا ووجهها بسلاسةٍ بعيدًا عن الماء المتساقط. بكياسة، ولكن برشاقة حركةٍ راقصة، وما زالت مارثا تتذكر تلك الرعشة الصغيرة التي سرت في جسدها عندما لمسها.

وربما كان ذلك أكثر أهمية من الشوق، مجرد وجود شخص لديك يهتمُّ بك من خلال لمساتٍ بسيطة. فالشوق لا يدوم على أي حال. ما تدوم هي الرحمة.

قالت مارثا نعم لآلان عندما عاد من رحلته. حدَّثت نفسها بأنها لن تتخلى تمامًا عن حياتها المُستقلة. إذ يسافر آلان كثيرًا للعمل بحيث سيكون لديها متسعٌ من الوقت بمفردها.

قضيا شهر العسل في لندن، وأعدَّ آلان قائمة بالحانات التي أراد زيارتها (كان لديه شغفٌ بالجعة)، وكانت مارثا سعيدة بمرافقته. قُرب نهاية تلك الرحلة، زارا حانةً فيكتوريَّة أنيقة خلال فترة ما بعد الظهيرة

الممطرة، وكانت مارثا تدرس دليل فودور للسفر الخاص بها بينما يتكئ آلان على البار الفاخر ويتحدث مع النادل. راقبته وهو يتحدث بصوته الأمريكي الصاخب الذي يتناقضُ مع هدوء الرجل خلف البار، ولاحظت الطريقة التي استمال بها آلان البريطاني المُتردد، الذي يبتسم الآن ويدع آلان يتذوق أنواع الجعة المختلفة الموجودة بالبراميل. في هذه اللحظة خطرت لمارثا فكرتان متنافستان. الأولى، أنها تزوَّجت من رجل لطيف. والثانية، أنه كان غريبًا تمامًا عنها. لقد أدركت أنها لا تعرفه الآن حقًّا بشكلٍ أفضل ممَّا فعلت بعد ذلك الموعد الأول، حين عادت إلى منزلها المُكوَّن من غرفتي نوم في بورتسموث وقررت أنه إذا أراد آلان رؤيتها مرةً أخرى، فسوف توافق.

وبعد مرور عام، كانت هناك أيامٌ لم تفكر فيها مارثا بزوجها قط. وبعض الأيام كان هو كل ما يشغل تفكيرها.

كان ذلك أمرًا طبيعيًّا، كما افترضتْ. وعلى الرغم من كونها في التاسعة والثلاثين من عمرها، فإنها كانت ما تزال عروسًا جديدة، ولم يمُر على زواجها سوى أقل من عام. لقد كرِهتْ في الواقع كلمة «عروس جديدة»، أو كرهت الأشخاص الآخرين الذين يقولونها، مثل دونا من المكتبة، التي وصفتها بـ «العروس الجديدة» بنوعٍ من الغمز لمدة ستة أشهر تقريبًا بعد زواجها من آلان. لقد فضَّلت مارثا عبارة «متزوجة حديثًا»، ولكن أيًّا كانت طريقة قولك لها، فقد كانت هذه هي حالها، امرأةٌ متزوجة حديثًا، بكل ما ينطوي عليه ذلك.

في الأيام التي لم تكن تفكر فيه كثيرًا، كان ذلك يرجع إلى مدى السلاسة التي تسلَّل بها إلى حياتها. لقد كان آلان رجلًا حذرًا متوقعًا، وكانت مارثا تعيش حياةً حذرة ومتوقعة. وفي الأيام التي كانت تفكر فيه، كان ذلك بسبب وجود شيءٍ غير قابل للتفسير بشأن وجوده، شيء

يزعجها. حين كانت في المدرسة الثانوية وطوال أيام الجامعة، احتفظت مارثا بمُفَكِّرة مُكونة بالكامل من مقاطعَ من كتبٍ تحبها، وقصائدَ كانت تنسخها بخط يدها المُحكم. كانت تقضي ساعاتٍ وهي تنسخ الكلمات في مفكرتها، ومن حينٍ لآخر تصادفها كلمة، كلمة تعرفها جيدًا، والتي تبدو فجأةً غير منطقية. وتصبح على قناعة بأن الكلمة مكتوبة بشكلٍ خاطئ، أو بأن الشاعر أو المؤلف قد اختلقها بالكامل. لم يحدث هذا أبدًا مع كلمة مثل «غَسَقِي»، ولكن دائمًا مع كلمةٍ بسيطة مثل «مِئزَر». فجأة تحدق إليها، ولا تبدو الكلمة منطقية على الإطلاق. كان هذا هو حال آلان، رجلٌ عادي معتدل المزاج والذي في بعض الأحيان لا يبدو منطقيًّا.

لقد كان بعيدًا الآن، في رحلة عمل إلى دينفر. وقد اعتبرتها رحلات عمل، ولكن ذلك ينطوي ضِمنًا على اجتماعات الإفطار واتخاذ القرارات ورجال ونساء يرتدون بزّاتٍ رسمية. كان آلان في الواقع بائعًا متجولًا، وربما آخر بائع متجول في العالم الحديث، كما اعتقدت مارثا أحيانًا. لقد اعتاد أن يرتدي بزّاتٍ رسمية بالفعل حين يذهب إلى المؤتمرات، ولكن ذلك حتى يتمكّن من ارتداء إحدى ربطات عُنقه المعروضة للبيع. لقد كان يبيع ملبوساتٍ طريفة ومبتكرة في مؤتمرات المعلمين. ولا يقتصر الأمر على مجرد ربطات العنق، بل أيضًا الأزرار والأوشحة الحريريَّة للمُعلمات. كان يبيع أيضًا القمصان، والسترات. ومعظم ما يبيعه كان متعلقًا بالرياضيات والعلوم. حيث ربطات العنق المُزيَّنة بالجدول الدوري، وأزرار تحتفل بيوم باي[1]. وعلى الرغم من أنه لم يجلب بضائِعَه إلى المنزل قط -كان يمتلك وحدة تخزينٍ في نيوينجتون-

(1) يحتفل الأكاديميُّون من جميع أنحاء العالم في 14 مارس (14/3)، شخصيًّا وعبر الإنترنت بيوم باي. وهو رقم غالبًا ما يمثله الحرف اليوناني (π)، والذي يساوي ناتج قسمة محيط أي دائرة على قطرها: 3.14. والذي أسسه العالم الفيزيائي لاري شو، واحتفل به لأول مرة عام 1988م.

فإنها قد رأت مجموعة منها قبل شهرٍ واحد فقط عندما ذهبت لزيارته في مؤتمرٍ محلِّي لمعلمي الرياضيات في إحدى المدارس الثانوية. كان يرتدي زيَّه الرسمي -البنطال الداكن، والقميص الأبيض- لكنه كان يرتدي أيضًا حمَّالات مملوءة بأزرار مضحكة، وربطة عنق حمراء عليها جدول الضرب. وقبل أن يذهبا إلى تناول الغداء، شاهدتْهُ يبيع لمعلمةٍ شابة قميصًا كُتِب عليه (معلمو الرياضيات ليسوا بالمتوسط. هم فوق المتوسط).

ربما كانت تفكر به أكثر عندما يكون بعيدًا. كلَّا، هي بالتأكيد تفعل. راحت جين، إحدى زبائن المكتبة الدائمين، تتحدث معها عن مسلسل «داونتون آبي» (Downton Abbey)، وفجأة أدركت مارثا، التي كانت تفكر في الآن، أنها طرحت عليها سؤالًا ولم تستطع تذكُّر ما هو.

- آسفة جين، ماذا؟

كانت مارثا خلف المكتب، تشقُّ طريقها ببطء عبر كومةٍ من الكتب المرتجعة، بينما يتمايل رأس جين على الجانب الآخر من الحاسوب المكتبي.

- هل تعتقدين أن أحدهم سيكتب روايةً عن داونتون آبي؟

طرحت جين هذا السؤال على مارثا من قبل.

- إذا كان ذلك سيدرُّ المال، فأظن إذن أن شخصًا ما سيفعلها.

- يجدر بكِ أن تقومي بذلك يا مارثا.

كان من الواضح أن جين لديها انطباعٌ بأنه نظرًا إلى أن مارثا تقرأ كثيرًا، فستكون قادرة كذلك على تأليف كتاب قابلٍ للنشر.

- يجدر بي، أليس كذلك؟ سأجني ثروةً، وأترك هذه المكتبة إلى الأبد.

ابتسمت جين: «أوه، مارثا».

لم تكن تضع أيَّ مكياج باستثناء أحمر شفاه وقد لطَّخ بعضٌ منه نابَها الأيمن. لكن مارثا قررت ألَّا تخبرها.

كان آلان عائدًا إلى منزله من دنفر في تلك الليلة، على متن رحلةٍ جوية ستصل منتصف الليل تقريبًا. ربما لهذا السبب أخذت تفكر فيه كثيرًا اليوم. حين يكون في الجوار، فهو ببساطةٍ هناك، منسجمًا مع الأثاث البالي لمنزلهم المريح. لكن في أثناء رحلاته بعيدًا، وفور عودته، كان يشغل حيزًا كبيرًا في ذهنها.

تساءلتْ عن سبب ذلك، وظنَّت أن له علاقة بما حدث -قبل بضع رحلات- عندما عاد من ولاية كونيتيكت. لقد كانت تقف عند نافذة غرفة النوم بعد أن سمعت صوت سيارته تدخل إلى ممرهما المرصوف بالحصى. كان ذلك قبل الغسق بقليل، حيث الضوء مع ذلك التوهُّج السحري الذي يُبلوِر كلَّ شيء يلمسه، واستطاعتْ أن ترى وجه آلان عندما خرج من جانب باب السائق وذهب إلى مؤخرة سيارته الهيونداي لاسترداد أمتعته. كان طويلَ القامة منحوتَ القسمات، لكنه يتحرك برشاقة متهادية، وكان ذلك أكثر ما جذب مارثا إليه في البداية. كانت فيه ثمة رقة لا تتناسب مع وجهه الذي يميل إلى الجدية، والنحيل تقريبًا، ذي العينين الكبيرتين. لكن في تلك الليلة، عندما شاهدَته من نافذتها، بدا الأمر كما لو أنها لم يسبق لها أن رأته من قبل. فقد اعتلتْ وجهَه نظرةٌ باردةٌ وقاسية تقريبًا. أخبرت نفسها أنها رأته من مسافةٍ بعيدة، وأنه كان متعبًا، ولكن مع ذلك، أثار قلقها أن ترى تعبيرًا على وجهه شعرتْ بأنها لم تره من قبل. وبعد أن جمع أمتعته وأغلق سيارته، وقف للحظة ينظر نحو غروب الشمس، بفكٍّ مرتخٍ، وعينين فارغتين وغير مُكترثتين. ثم شاهدَته وهو يأخذ نفسًا عميقًا، انتفخ معه صدره. هزَّ رأسه وتغير

تعبير وجهه، عائدًا إلى العذوبة الجوفاء لآلان الذي تعرفه. حتى إنه ابتسم، كما لو أنه يُحوِّل نفسه عمدًا. ثم توجَّه إلى الداخل.

هبطت الدَّرج لمقابلته، وحياها كما يفعل دائمًا. بابتسامةٍ كبيرة، ودعابة مبتذلة نوعًا ما مثل: «عزيزتي، لقد عُدت إلى المنزل» أو «هل كان هذا صديقكِ الذي رأيتُه يخرج من الخلف؟»، ثم تعانقا. في بعض الأحيان، عند عودته، كان يستخدم عبارة «مرحبًا، عائلتي». ممَّا بدا لها أمرًا عاطفيًّا بشكلٍ مفرط، على الرغم من أن جزءًا منها تأثر بهذه العاطفة.

لكن تلك اللحظة من الصيف، تلك النظرة إلى ذاته العارية خارج منزلِهما، ظلَّت حاضرة في ذهنها. كانت تنساها حين يكون في الجوار، لكنها غالبًا ما تفكر بها عندما يكون في رحلة، وكانت دائمًا ما تفكر بها تقريبًا في الأيام التي يعود فيها.

مرَّت الساعة الأخيرة في المكتبة سريعًا. كان أحد زبائنها المفضلين، وهو السيد ماكنيس، الذي يأتي مرتَين على الأقل في الأسبوع، قد طلب منها ترشيحاتٍ لكاتباتٍ لم يقرأ لهن بعد. ذكرت له بعضًا من كاتباتها المُفضلات -إديث وارتون، وجورج إليوت، وجوان ديديون- لكنه أخبرها أنه يريد كاتباتٍ شابَّات ومعاصرات. كان السيد ماكنيس -تعتقد مارثا أن اسمه الأول قد يكون أليك، لكنها لم تكن متأكدة- يبلغ من العمر ثمانين عامًا على الأقل، إن لم يكن أكبر. تصفحا الأكوام معًا وانتهى به الأمر بالمغادرة مع كتابَي زادي سميث (Zadie Smith) «عن الجمال» (On Beauty)، و«المحطة الحادية عشر» (Station Eleven) بقلم إِميلي سانت جون ماندل (Emily St. John Mandel). عرفتْ مارثا أنه سيعود في أقل من أسبوع بعد قراءة كِلَا الكتابَين.

غادرتْ المكتبة في كيتري تقريبًا في الخامسة والربع وعادت إلى منزلها في بورتسموث بعد عشر دقائق. وعلى الرغم من أنها تعمل في مين وتعيش في نيو هامبشاير، فإنها في أكثر من مناسبة كانت تذهب سيرًا على الأقدام إلى المكتبة، التي تقع على بُعد ميلين فقط، فوق نهر بيسكاتاكوا.

كان المنزل الذي تُشارِكه مع آلان على غرار كوخٍ مُكونًا من غُرفتَي نوم، وقد أضاف إليه المُلاَّك السابقون الطابق العلوي مؤخرًا. وكان الجزء الأمامي من المنزل يتكون من منطقة معيشةٍ كبيرة تؤدي إلى غرفة طعام صغيرة ومطبخ أصغر. أما الطابق العلوي فعبارة عن غُرفتَي نوم، ومرحاض كبير بشكلٍ غريب يُهيمن عليه حوض استحمام ساخن من البلاط الأسود. لقد سمح لها آلان بتزيين المنزل، وقد ملأته برفُوف الكتب والأثاث المُتخم. قبل أن تخلع معطفها، أطعمت مارثا جلبرت طعامه الجاف. أخذ يمُوء حولها، كعادته في الشكوى، ثم وافق على تجربته. بعد ذلك أعدَّت لنفسها عشاءَها. قَلَّما كانت تطهو، حين يكون آلان بعيدًا. وبدلًا من ذلك، أخذت تضع الجُبن واللحوم الباردة والبسكويت المالح وبعض الفاكهة وأحيانًا بعض الجزر على لوح التقطيع وتحضرها معها إلى غرفةِ المعيشة. وشغَّلت أحد برامج تجديد المنزل التي تروق لها ولم تكن تروق لآلان، وراحت تلتقط ببُطءٍ الطعام الموجود على اللوح. لم تكن مهتمة بشكلٍ خاص بالزوجين اللذين كانا سيُعيدان تجديد منزلِهما ذي اللون البيج إلى منزلٍ آخر باللون البيج، ووجدت نفسها تفكر في آلان مرةً أخرى. وبعد أن عاد من تلك الرحلة إلى جامعة شيبوج في كونيتيكت، وبعد أن شاهدَتْه من نافذة غرفة النوم، قررت أن تبحث عن المؤتمر الذي حضره للتو. لقد كانت نزوةً غريبة. حسنًا، ربما ليست

غريبة. فلطالما أخبرها آلان بالمكان الذي يتجه إليه، وكثيرًا ما كانت تقوم بإلقاء نظرةٍ على مواقع المؤتمرات. كان ذلك من باب الفضول.

حين كتبت الكلمتَين «شيبوج» و«مؤتمر المعلمين»، كان أول ما ظهر هو قصةٌ إخبارية. حيث انتحرت إحدى المُشارِكات، وهي معلمة فنون في مدرسةٍ إعدادية من وودستوك، نيويورك، تُدعى جوزي نيكسون، خلال عطلة نهاية الأسبوع. لقد كان مقالًا إخباريًّا قصيرًا من صحيفة محليَّة. وعلى ما يبدو أنها قفزتْ من شُرفة الطابق السادس في المَهجع الذي أقامت فيه. كانت هناك إشارة إلى أن الشرطة خلُصت إلى عدم وجود أي جريمة، ثم كانت هناك فقرتان إزاء كيف أعادت هذه الوفاة الأخيرة إشعالَ الجدل حول مبنى المَهجع في حدِّ ذاته. فعلى ما يبدو، منذ أن تم بناؤه، لقيت هناك أكثر من حالة حتفها بعد أن قفزَت من الشُّرفات المفتوحة.

في اليوم التالي لعودة آلان من تلك الرحلة، سألته عن جوزي نيكسون، فحدَّجها بنظرةٍ فارغة قبل أن يقول: «أوه، لقد سمعتُ عن ذلك. أمرٌ فظيع».

- هل كنتَ تعرفها؟

- لا أفهم السؤال؟

لقد كانت تلك إحدى عاداته المُزعجة الصغيرة، إذ إنه بدلًا من أن يسأل مارثا ببساطة عمَّا تقصده، كان دائمًا يقول إنه لا يفهم سؤالها.

- أعني هل كان لديكَ أيُّ اتصال معها خلال المؤتمر؟ هل ابتاعت منك أيَّ شيء؟

- أعتقد أنها ربما تكون قد فعلت، لكن إذا كانت، فأنا لا أتذكَّر. الحقيقة أن زبائني بمنزلة كتلةٍ ضبابية كبيرة بالنسبة لي.

اعتقدتْ مارثا أن هذه هي نهاية المحادثة، ولكن بعد خمس دقائق تقريبًا، وبعد أن غيرا دفَّة الحديث نحو شيءٍ آخر، قال آلان: «لقد ألقى ذلك بظلاله على المؤتمر حين ذاع الخبر».

- ماذا تعني؟

- الشابة التي قتلتْ نفسها. بعد أن ذاع الخبر، تحوَّل المؤتمر إلى نوعٍ من الكآبة. ولم يسهل الطقس الأمر أيضًا.

وكانت تلك نهاية محادثتهما بخصوص حادثة الانتحار. لكنها فكَّرت في الأمر -هيئتُه عندما عاد، وتلك الكلمات القليلة- مرارًا وتكرارًا. لقد قرأتْ ذات مرة في مكانٍ ما أن ذكرياتنا لا يمكن الاعتماد عليها أبدًا، وأن ما نتذكره بالفعل ليس الحدث نفسه، بل إعادة لآخر مرةٍ تذكرنا فيها الحدث. كما لو كانت عقولنا تُشغِّل أشرطة فيديو، وبمرور الوقت تتحلل تلك الأشرطة. تساءلت مارثا عن ذلك الآن وهي تتخيل آلان في الممر، والشمسُ الغاربة تُصقله، وقد تجرَّد وجهه من أيِّ نوعٍ من الإنسانية. وبعدها تخيَّلتْهُ يُلملم شتات نفسه، ويأخذ نفسًا، ويبتسم. في البداية فسرت هذا التصرُّف بأنه يحاول تغيير مزاجه، وينفُض عنه عناء الطريق، ويستعد للانخراط مجددًا في حياته الحقيقيَّة. لكنها الآن ترى الأمر على نحوٍ مختلف. لم تكن الابتسامة له. لقد كانت ابتسامةً من شأنها أن تكون لأجلها. لقد كان يتدرَّب، بالطريقة التي قد يُغيِّر بها الممثل وجهَه أو وضعيَّتَه بينما هو ينتظر دورهُ في الكواليس. لقد كان يتدرَّب على ابتسامته.

***

الفصل الثاني

كان النُّعاس قد غلبها عندما عاد أخيرًا. اجتاحت خطوط ضوءٍ متحركة من مصابيحه الأمامية ورقَ حائط غرفة نومِهما بينما كان يوقف سيارَته في الممر. وبعد ذلك سمعتْ صوت حقيبة السيارة الخافت وهو يُفتح ويُغلق، يتبعه صوتٌ أقل خفوتًا صادرًا عن دخوله عبر الباب الأمامي. كان بوسعها أن تتبيَّن أنه هادئ، يحاول ألا يُوقظها. قفز جلبرت بشدَّة من الفراش ليذهب ويتحقَّق، لكن مارثا قررت أن تمكُث في مكانها. سيصعد إلى الطابق العلوي قريبًا، وعلى الأرجح سيستحم، ويرتدي منامةً نظيفة، ثم يتسلل تحت الأغطية ويقترب من جسدها. التفَّت حول جانبها الأيسر وانتظرت، لكنها كانت نائمة عندما وصل إلى الفراش.

في الصباح، كان الآن مستيقظًا قبلها.

قالت مارثا من بين تشابُك الأغطية: «أوه لا، لقد استيقظت بالفعل».

- صه. ابقَي في الفراش. لديَّ اجتماع الإفطار ذاك مع سول، أتذكرين؟

قالت كاذبةً وهي تسحبُ وسادةً ثانية تحت كتفَيها: «أوه، أجل. أتذكر. كيف كانت دنفر؟».

- هل كنتُ في دنفر؟ متى كان ذلك؟

أخذ يقهقه على دُعابتِه الخاصة وقال: «في الواقع كانت جيدة. لقد حققتُ مبيعاتٍ مرضية».

- أوه، أنا سعيدةٌ من أجلك.

قبل مغادرته، أفرغ آلان حقيبته المحمولة في غرفة النوم بينما استفاضَا بالحديث عن المؤتمر الذي حضره خلال الأيام الثلاثة الماضية. ثم أخبرتْه أنها اضطُرَّت إلى طرد إحدى المُتطوعات في المكتبة لأنها كانت تتحدث كثيرًا مع الزبائن.

- هل يمكنكِ طردُ المُتطوعين؟

- يمكنك إخبارهم أنه لم تعد هناك حاجةٌ إلى خدماتهم. كانت جيل ستفعل ذلك، لكنها أُصيبت بالذعر في اللحظة الأخيرة وطلبت مني التحدث معها. لقد كان ذلك فظيعًا.

- أنا واثقٌ من أنكِ كنتِ لطيفة قدر الإمكان.

- سألتْنِي إذا كان هذا بسبب شيءٍ قد فعلَتْه، فكذبتُ وقلتُ إن مجلس الإدارة يريد تقليل عدد المتطوعين. لا أعتقد أنها صدَّقَتنِي.

عندما هبط آلان إلى الطابق السُفلي، نهضت مارثا، وفرَّشت أسنانها، ومشَّطت شعرها، لكنها ظلَّت مرتديةً ثوب النوم القُطني الذي كانت تنام فيه، وارتدت سترةً صوفية فوقَه لأنها شعرت بالبَرْد. نزلت الى الأسفل بمجرد أن أصبح آلان عند الباب الأمامي، مرتديًا معطفه الصُوفي الشتوي. كان ذلك في مطلع شهر إبريل، ولكن كما كانت تعتقد في كثيرٍ من الأحيان، وتقول في بعض المرات، في نيو هامبشاير، إبريل ما هو في الحقيقةِ إلَّا الجزء الثاني من شهر مارس.

قالت وهي تنزلِق بين ذِراعَيه: «دعني على الأقل أعانقُكَ قبل أن تذهب».

كانت لآلان يدان كبيرتان وقويتان، فمرَّرهما على طول قفصِها الصدري، محتكًّا بثديها الأيسر.

قال: «ربما يمكننا أن نأخذ قيلولةً صغيرة بعد ظهر هذا اليوم. سأعود إلى المنزل في الساعة الثالثة تقريبًا».

- أودُّ ذلك.

- ما هي خططكِ اليوم؟

- لا شيء.

كان اليوم هو الإثنين، ولكن منذ أن بدأت العمل من الثلاثاء إلى السبت، أصبحتْ أيام الإثنين هي أيام الأحد بالنسبة لها.

- أستطيع أن أغسل ملابسكَ من رحلةِ هذا الصباح. كنت أنوي غسل الملابس على أي حال.

- ستكون تلك مساعدةٌ كبرى.

وبعد رحيلِه، أخذتْ حمامًا طويلًا، ثم أعدَّت لنفسها الشاي والخبزَ المحمص. منذ أن أجرت تلك المحادثة الصغيرة مع نفسها الليلة الماضية، انتابها على نحوٍ مفاجِئ شعورٌ بالغباء حيال شكوكها. ماذا كانت شكوكها حتى على وجه التحديد؟ أن آلان كان مُتَجَهِّما عندما عاد من العمل؟ أن آلان كانت له علاقةٌ بانتحار معلمةٍ شابَّة؟

أخذت الأمطار تهطلُ في الخارج، أمطارٌ ربيعية باردة، وكانت في الواقع سعيدة بذلك. لطالما ذكَّرتها والدتُها بأنها حين كانت في السابعة من عمرها، صرَّحت بأن المطر هو أفضلُ طقس لأنه طقس القراءة. ولم تتخلَّ حقًّا عن هذا الرأي. بعد أن شرعت في غسل الملابس كانت تتطلَّع إلى العودة إلى روايتها «أقل من الملائكة» (Less Than Angels) لكاتبتِها باربرا بيم (Barbara Pym). لم تكن قد سمعتْ عن بيم من

قبل حتى نشر أحد أصدقائِها على الفيسبوك شيئًا عنها، وهي الآن تشقُّ طريقها بثباتٍ عبر جميع كُتبِها.

كانت ملابس آلان من رحلته في سلَّة الغسيل وحقيبته مُخبأة في خزانته. بالنظر إلى كثرة أسفاره، لم تكن لتلومه إن لم يُفرغ أمتعته مطلقًا. لكنه كان نَيِّقًا بشأن ترتيب أغراضه. كان يحب أن يقول: «عندما أعود إلى المنزل. فأنا حقًّا في المنزل».

صنعتْ كومتَين من الملابس على الفراش، واحدةً مُلونة والأخرى بيضاء، ثم ألقتْ نظرةً فاحصة على قميصَي آلان الأبيضَين، وتأكَّدت من أنهما في حالةٍ جيدة، ولا وجود لبقع تحت الإبط أو ياقاتٍ مُهترئة. بدا كلاهما على ما يرام، ولكن عند قلبها لإحدى القمصان البيضاء، لاحظت بقعةً بنية محمرَّة على جانب اليد اليُسرى السُفلي من الجهة الخلفية للقميص. لمسَتها بطرف إصبعها، وبدت كبقعةٍ خلفها إصبع. إصبعٌ مغموسٌ في شيءٍ ما، ربما كانت شوكولاتة؟ نظرتْ عن كثب، حتى إنها شمَّتها، وكانت هناك رائحة ضعيفة لعنصر أساسي، عنصر ترابي. هل من الممكن أن يكون دمًا؟ فكَّرت، محاوِلةً تخيُّل آلان يجرح إصبعه بورقةٍ أو شيءٍ من هذا القبيل، ثم يمسحُ في ظهره. قامتْ بالحركة بنفسِها، ولوَت ذراعَها لتتأكد إن كان ذلك منطقيًّا بأيِّ شكل من الأشكال. لم يكن منطقيًّا حقًّا.

تحرك شيءٌ بداخلها، وتقلصت أحشاؤُها. هل كانت هناك دماء حقًّا على قميص زوجها؟

يجدر بها أن تسأله عن ذلك فحسب: «أوه، عزيزي. هل جرحتَ نفسك في رحلتك؟ أعتقد أنني وجدتُ بعض الدماء على أحد قمصانك».

هذا ما كانت لتفعله زوجةٌ غير مرتابة، أليس كذلك؟ وكان ليخبرها عن وخْز إصبعه بأحد الدبابيس التي باعها ثم ينتهي الأمر. ولكنها

وجدتْ نفسها بدلًا من ذلك تجلس أمام حاسوبها على وشك أن ترى ما إذا كان قد حدث أيُّ شيءٍ غريب في أثناء رحلةِ آلان الأخيرة. كلُّ ما تعرفه عن المؤتمر الذي عاد منه للتو هو أنه عقدٌ في دنفر، كولورادو، وأنه كان مؤتمرًا لمعلمي اللغة الإنجليزية في المدارس الثانوية.

قالت له قبل أن يغادر: «اعتقدتُ أن تلك بضائع راكدة بالنسبة لك».

- كانت كذلك في السابق. فمعلمو اللغة الإنجليزية القدامى بالتأكيد لم يكونوا يُفضِّلوا الأكواب المُبتَكرة، لكنني أعتقد أن الأمور تتغيَّر. إنني أبيع الكثير من القمصان ذات المطبوعات النحويَّة.

- أيُّ قمصان ذات مطبوعاتٍ نحوية؟

- أوه، كما تعرفين، شيئًا مثل: (دعونا نأكل أطفال). ثم، (دعونا نأكُل (فاصلة) يا أطفال) -مرَّر إصبعه على صدره للتوضيح- ثم شيئًا مثل: (علامات الترقيم تنقذ الأرواح).

- أوه، مُضحِك.

لقد اعتقدت مارثا حقًّا أن معظم قمصان آلان الهزلية كانت في الواقع حاذقة للغاية.

- حسنًا، إنها استراحةٌ من معلمي الرياضيات، ولذلك سأكون ممتنًّا.

كتبت مارثا «معلم اللغة الإنجليزية» و«مؤتمر» و»دنفر» واهتدت إلى ما يسمى ندوة معلمي اللغة الإنجليزية في جنوب غرب البلاد أو «سويتس» SWETS، والتي عُقِدت في عطلة نهاية هذا الأسبوع. قرأتْ القليل عنها، لقد عُقدت في أحد فنادق وسط المدينة، وكان المتحدث الرئيسي روائيًّا سمعت عنه مارثا ولكن لم تقرأ له، حيث ألقى محاضرةً عن التنوع في اختيار المناهج الدراسية. وجدت مارثا مقالة صغيرة عن المؤتمر في صحيفة محلية في دنفر، أو بالأحرى مُجرد إشارة للمؤتمر،

جاء فيها أن مدينة دنفر سيغمُرها معلمو اللغة الإنجليزية خلال عطلة نهاية الأسبوع، لذا احرص على «الانتباه لقواعد لُغتِك» حتى تتجنَّب التوبيخ. بدا الأمر وكأنه شيءٌ ربما قد كُتب قبل خمسين عامًا، لكن مارثا كانت أمينة مكتبة وكانت معتادة على القوالب النمطيَّة.

أجرت بحثًا جديدًا بكلمتَي: «دنفر» و«جريمة». وتفحَّصت قائمة النتائج الأكثر إقبالًا لكن لم يلفت انتباهَها أيُّ شيء. غيَّرت البحث ببساطة إلى: «اعتداء دنفر». لماذا اعتداء؟ فكَّرت وهي تنقرُ زرَّ العودة. ثم غيَّرت النتائج لتُصبِح مُقتصرة على القصص الإخبارية، وكان أحدثها بعنوان: «إدارةُ الشرطة تُحقق في الاعتداء على امرأةٍ عُثِر عليها في إحدى ساحات انتظار السيارات». كانت المقالة مُؤرَّخة بالأمس، حيث وقع الحادث قريبًا إلى حدٍّ ما من المكان الذي أقام فيه آلان. نقرتْ عليها.

تُحقِّق الشرطة في حادثة اعتداءٍ مزعومة وقعت في حيٍّ فايف بوينتس ليلة الجمعة. حيث عُثِر على الضحية فاقدةً الوعي في ساحةِ انتظار السيارات بشارع 25 بعد تمام الثانية صباحًا.

تعرَّضت المرأة البالغة من العمر 21 عامًا لإصابة في الرأس وهي حاليًا في حالةٍ مستقرة. وصرَّح مُتحدث باسم قسم شرطة دنفر إنهم يبحثون عن أيِّ شخصٍ ربما يكون قد شهد الهجوم ليتقدم ويُدلي بإفادته.

بعد أن قرأت المقالة المُوجزة مرَّتَين، نهضت مارثا وخرجت من المطبخ عائدةً إلى غرفة النوم. وبمجرد وصولها، انتابتها الحيرة للحظة،

ولم تستطع حتى أن تتذكر صعود الدَّرج، أو سبب مجيئِها إلى غرفة نومها. ولكن بعد ذلك نبهَتها سلسلةٌ مألوفة من الصفير إلى أنَّ الغسالة قد أكملت دورةً للتو. ألقت نظرةً على الفراش حيث كان جلبرت الآن ينام بسعادةٍ على كومةٍ من الغسيل المُلون، وتذكرت أنها ألقت بالملابس البيضاء في الغسالة. لقد كانت ذكرى مُشوشة مع ذلك، رغم أنها حدثت قبل أقل من ساعة. لقد أصبح قميص آلان الأبيض الملطخ ببقعة الدماء الآن مجرد قميصٍ مغسول حديثًا. ربما فعلت ذلك عمدًا، أو ربما كان الأمر برُمته سخيفًا، فكرة أن زوجها، البائع المتجول، كان قاتلًا مهووسًا من نوع ما. كان الأمر ليصبح أكثر غرابة بشكلٍ ملحوظ لو لم تكن هناك جرائمُ قد ارتُكِبت في دنفر خلال عطلة نهاية الأسبوع.

ذهبتْ إلى الغسالة ونقلت الملابس البيضاء إلى المُجفف، ثم ذهبت لإحضار الكومة المُتبقية، لكن جلبرت هاجمها بمخلبه عندما حاولت جمعها. قررت أنها لم تكن في عجلةٍ من أمرها وتركت جلبرت على كومة ملابس آلان.

سألتْ قطها: «ماذا تشتمُّ هناك؟ ما الذي كان يفعله آلان؟».

حدَّق إليها بدوره كما لو كان يعرفُ ولكنه لن يخبرها مطلقًا.

***

في تلك الليلة، على العشاء، سألتْ مارثا آلان عن القميص. بدا مرتبكًا في البداية، وادَّعى في النهاية أنه ليست لديه أي فكرة عن كيفيَّة وصول البُقعة إلى هناك.

قال وهو يرفع حاجبًا واحدًا: «هل تظنين أنني قاتلٌ متسلسل من نوعٍ ما، يا مارثا؟».

لقد كانت مزحةً واضحة، لكن شيئًا ما في لهجته جعل جسد مارثا يقشعرُّ قليلًا: «لمَ قد تقول ذلك؟».

- لا أعلم. لأنه كانت هناك دماءٌ على قميصي؟

- أعني، أليس من الممكن أن أفكر في أنكَ قد جرحت نفسك؟ لماذا قفزتَ مباشرةً إلى استنتاج القاتل المتسلسل؟

- كنت أُلقي مزحة فحسب. ورفع يديه في لفتة استسلام.

في تلك الليلة شاهدا حلقتَين من الموسم الحالي من مسلسل «دخيلة» (Outlander). غلب النعاس آلان في منتصف الحلقة الثانية، مثلما كان يغلبه دائما، إذ يغمض عينيه ببساطة بينما يظل في وضع جلوسِه الطبيعي. خفضت مارثا مستوى الصوت وقلبت محطات التلفاز مُستقرة على محطة تلفاز منزلٍ وحديقة (Home and Garden TV)، ليس لأنها شعرت برغبةٍ في مشاهدتها، بل لأنها أرادت تشغيل شيء لا معنى له في أثناء تفكِيرها. قررت أن تقيِّم وضعها بهدوء لأنها ظلَّت تسترجع تلك المناقشة الغريبة مع زوجها على العشاء. قالت لنفسها إنها لو كانت قد تزوجت رجلًا سيئًا، رجلًا (ربما) يعتدي على الناس، لكان لديه بعض الأعذار الجاهزة للدليل الموجود على قميصه. على النقيض من ذلك، لقد بدا في حيرةٍ تامة من أمره. أم هل كان يتظاهر بذلك؟ لم تستطع معرفةَ الحقيقة، وفكَّرت مرة أخرى أنها لا تعرفه حقًّا إلى ذلك الحد، على الرغم من أنهما متزوجان. كانت تعرف كل شيءٍ ظاهري عنه -الطريقة التي يتحرك بها ويتحدَّث ويمارس الحب ويأكل طعامه- لكن عالمه الداخلي كان لغزًا كاملًا. عندما كان مستلقيًا في الفراش ليلًا لم تكن لديها أدنى فكرة عمَّا يفكِّر به، ولم تكن تعرف إن كان ذلك غير عادي أم لا. ربما كان الجميع مثلها، يعيشون حياتهم محاطين بأشخاص لا يزيدون عن كونهم غرباء؟

ومع ذلك، فقد شعرتْ بالانزعاج. هذا النوع من الأشياء -عدم المعرفة- لطالما أزعجها. ربما لهذا السبب أصبحتْ أمينة مكتبة. حين كانت في الثانية عشر من عمرها، قدمت عرضًا في الصفِّ عن روايتها المفضلة، «لعبة ويستنج» (The Westing Game)، للكاتبة إلين راسكين (Ellen Raskin). بعد ذلك، طرحت المعلمة، الآنسة ميرفول، بعض الأسئلة. كان أحدها، وتتذكر مارثا هذا الأمر وكأنه بالأمس، هو ما إذا كانت مارثا قد بحثت عن كتب أخرى لإلين راسكين؟ لم تكن قد فعلت ذلك حقًّا. في الواقع، بالكاد فكرت في ذلك على الإطلاق. كان ذلك الكتاب الذي أحبَّته، وليس بالضرورة مُؤلِّفته، ولكن تلك الليلة كانت مستلقية في الفراش وتُفكر في ذلك السؤال. وفجأةً، لم تعد ترغب في معرفة كل ما كتبته المؤلفة فحسب، بل أصبحت الآن مصممة على قراءتِه كله. وكان اليوم التالي هو يوم سبت، وقد أقنعت والدتها أن تُقلَّها إلى المكتبة.

قالت والدتها في أكثر من مناسبة: «كان هذا هو اليوم الذي أصبحتِ فيه مهووسةً بالمكتبات».

والشيء الآخر الذي كانت تحبُّ أن تقوله، أو اعتادت أن تحبَّ قوله، هو كيف كانت مارثا تضع أنفها دائمًا في الكتاب. كان ما قالته والدتها صحيحًا في الغالب، لكن مارثا لم تكن مهووسةً بالكتب فحسب. لقد كانت مهووسةً بالحصول على القصة بأكملها. وكم عدد الكتب التي كتبها هذا الكاتب؟ كيف كانت حياته؟ وهل كان لديه اسمٌ مستعار سرِّي؟

وبعد أسبوع ذهب آلان إلى مؤتمرٍ آخر، الذي عُقد لمُعلمي الكليات الأهلية في تشابل هيل بولاية نورث كارولينا. كان الطقس قد أصبح لطيفًا أخيرًا، وفي اليوم الأول لآلان بعيدًا، قصدت مارثا وسط مدينة بورتسموث للتسوُّق وتناوُل الغداء في مطعم مكسيكي تحبه. وبينما

هي هناك، أرسل إليها آلان صورةً لنفسه، وخلفه حوض سباحة الفندق يتلألأ تحت أشعة الشمس. كان يرتدي قميصًا مُشجرًا ونظارةً شمسية ذات إطار سلكي. وكتب: «المياهُ جميلة».

شيءٌ بخصوصِ تلك الصورة –منذ متى يرسل آلان صورًا ذاتية؟– جعل مارثا تشعر وكأن عنكبوتًا يزحف عبر مؤخرةِ عنقها. هل قرَّر فجأة أن يرسل إليها مُستجدات رحلته، وهو ما لم يفعله من قبل؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟ في تلك الليلة، بعد أن تناولت الجبن والبسكويت المُملح على العشاء، ذهبتْ إلى حاسوبها وقررت أن تفعل الشيء الذي كانت تؤجله منذ أن عثرتْ على القميص ذي البقعة. أولًا وقبل كلِّ شيء، بحثت في كل بريدٍ إلكتروني تلقَّته من آلان منذ أن أصبحا في علاقةٍ جدية. لقد اعتاد أن يرسل إليها دائمًا خط سير رحلته عندما يذهب بعيدًا في رحلة. كان البريد دائمًا رسميًّا للغاية، بحيث يكتب في خانة الموضوع «رحلة ويتشيتا» أو «مؤتمر تشاتانوجا» ثم يقدم التفاصيل: مواعيد السفر؛ رحلات طيرانه كاملة مع الروابط، والفندق الذي يُقيم فيه. لقد كان في الواقع شيئًا مفيدًا جدًّا من قِبله، نظرًا إلى أن مارثا غالبًا ما كانت تجد نفسها تتساءل عن مكان وجوده في البلاد في أي لحظة. عثرتْ على دفتر ملاحظات بسلكٍ حلزوني في أحد أدراج مكتبها وفتحَته على صفحةٍ فارغة، كتبت فيها تاريخًا زمنيًّا لرحلات زوجها. منذ وقتٍ قصير قبل زواجهما، منذ أن بدأ يرسل إليها مسارات رحلاته، كان قد قام بثلاثٍ وعشرين رحلة.

وبعد أن أعدَّت قائمتها، فتحت نافذة المُتصفح وبدأتْ في البحث عن القصص الإخبارية. استغرقَ الأمر ثلاث ساعات، ولكن عندما انتهت، كانت قد كتبت خمس حوادِث مُنفصلة.

في الرابع من فبراير عام 2018، قبل نحو شهرَين من زواجها من آلان، عُثر على بائعةِ هوى تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا تُدعى كيلي بالدوين مضروبة بهراوة حتى الموت في أتلانتا، جورجيا. في عطلة نهاية الأسبوع نفسه كان آلان في معرض أتلانتا التجاري المُعد لتجهيزات المناهج الدراسية للمدارس الثانوية.

وبعد ثلاثة أشهر، عُثِر على بيانكا مورانوس، وهي أمٌّ عزباء وموظفة استقبال في منطقة شيكاجو، ميتة في الزقاق خلف فندق للمؤتمرات في وسط المدينة. وقد أُدرِج سبب الوفاة على أنه صدمة قوية في الرأس. حدث ذلك في شهر مايو، في عطلة نهاية الأسبوع ذاتها التي عُقد فيها مؤتمر وطني حول نظام ستيم[1] (STEM) في فندق المؤتمرات ذاتِه بوسط المدينة.

وفي شهر يوليو من ذلك الصيف نفسه، وقعت حادثة جامعة شيبوج والتي كانت على علمٍ بها بالفعل. حادثة انتحار جوزي نيكسون المزعومة.

أما الحادث الرابع فقد وقع في مؤتمر (جعل الرياضيات ممتعة)، وهو حدثٌ سنوي يُعقد في أكتوبر من كل عام في فورت مايرز، فلوريدا. لقد ذكر هذا المؤتمر بالفعل في المقالة التي وجدتها مارثا عن الضحية نورا جونسون. التي عملت نادلةً في الفندق حيث عُقد المؤتمر، وعُثر عليها مخنوقة في سيارتها في ساحة انتظار السيارات بالفندق. وقد أُلقي القبض على أحد العاملين في ساحة انتظار السيارات بالفُندق ثم أطلق سراحه بعد ذلك.

---

(1) نظام STEM عبارة عن برنامج متخصص في دراسة العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات بجميع تخصصاتهم بطريقة أكثر تأثيرًا على العقل البشري تعتمد على التحليل والفهم والتجربة، والتفاعل، والاستنباط، والاستنتاج.

كان الحادث الأخير الذي سجَّلته مارثا، باستثناء الاعتداء الذي وقع مؤخرًا على المرأة التي لم يذكر اسمها في دنفر، يتعلق بشابةٍ أخرى، ميكائيلا ساجر، التي تبيَّن أنها إخصائية تدليك، في سان دييجو في عطلة نهاية الأسبوع الثاني من شهر فبراير. لقد عُثِر على جثتها على شاطئ ميشن، وقد أشارت التقارير الأولية إلى الوفاة على أنَّها حادثة غرق عرَضِي بينما أشارت التقارير اللاحقة إليها على أنها وفاةٌ مشبوهة.

قرأتْ مارثا جميع مُلاحظاتها، وبعد ذلك، مدركة بالكاد أنها تفعل ذلك، أخذتْ تتلو جميع الأسماء بصوتٍ عالٍ. كيلي بالدوين، بيانكا مورانوس، جوزي نيكسون، نورا جونسون، ميكائيلا ساجر. راحت تُردِّد أسماءهن مرةً أخرى، وأضافت: «والمرأة التي لا أعرف اسمها في دنفر».

***

الفصل الثالث

نهضت مارثا وذرعت الطابق السفلي من منزلها جيئةً وذهابًا، وفي لحظةٍ ما التقطت جلبرت وحملته معها. كان يجب أن يُحمل ما دام الشخص الذي يحمله مستمرًّا في الحركة. عندما وجدت مارثا نفسها مرةً أخرى عند مكتبها في غرفة المعيشة، حدَّقت إلى القائمة مجددًا، وانتابتها الرغبة في شطْب حادثة قفز جوزي نيكسون في كونيتيكت منها. لقد كانت حادثةً شاذةً، كون الضحية أحد الحاضرين في المؤتمر، وكون الوفاة قد اعتُبِرت حادثة انتحار. لكنها قررت ألَّا تشطبها في النهاية. كانت تلك هي الرحلة التي عاد منها آلان عندما شاهدَته في الممر، وهو يتدرب على ابتسامته. وأخذ يتردد صدى تلك العبارة في رأسها. يتدرب على ابتسامته. وإلا فلماذا كان يبتسم بهذه الطريقة في ممر منزلِهما؟ فالبشر –البشر الحقيقيُّون– لا يتدرَّبون على عواطفهم. أو ربما يفعلون، كما فكرت، وهي تتذكَّر حين كانت في المدرسة الإعدادية وراحت تتدرَّب على عض شفتِها السفلية في المرآة لأن إحدى صديقاتها أخبرتها بأن تلك هي الطريقة التي تجعلها تبدو مثيرة. أخذ جلبرت يتلوَّى فتركته ينزلِق، وبينما تفعل علِقت إحدى أظفاره بسُترتها. فنتفت بأصابعها خيط الصوف المتدلِّي، منزعجة لأنها سمحت لقطها بإتلاف سترةٍ أخرى من ستراتها، ولكن سرعان ما عاد تفكيرها إلى آلان مرة أخرى. ربما كان يتظاهر معها دائمًا. ربما كان كل فعلٍ وكل

كلمةٍ مجرد وسيلة لإخفاء الوحشية التي كان عليها حقًّا. اشتعلت المدفأة فجأة مصدرةً طقطقة جعلتها تثُب. أخبرت نفسها بأن تهدأ، ثم عادت إلى حاسوبها.

كان هناك سببٌ آخر جعل مارثا تقرر أن تُبقي على جوزي نيكسون في قائمة جرائم زوجها المحتملة، وهو حقيقة أن وفاة جوزي قد حدثت في جامعة شيبوج. جعلت شيبوج مارثا تفكر في ليلي كينتنر. كانت ليلي صديقةً لها من كلية الدراسات العليا، وإذا كانت مارثا تتذكر بشكلٍ صحيح، فقد نشأت في شيبوج.

وضعتْ اسم ليلي كينتنر في متصفحها. لم يكن هناك الكثير، ولكن كانت هناك قصةٌ غريبة إلى حدٍّ ما. كانت ليلي متورطة في نزاع مع أحد محققي قسم شرطة بوسطن الذي كان على ما يبدو يطاردها. وقد أفضى ذلك إلى حادثة طعنت فيها ضابط الشرطة دفاعًا عن النفس. لم يلقَ حتفه، ولكنهم أقالوه من قوات الشرطة، في حين أن ليلي أسقطتْ كلَّ التهم.

لم يفاجئ مارثا أيٌّ من هذا، فقد كانت تعلم أن ليلي ليست مثل الآخرين حقًّا. فكَّرت في أنها ربما يجدر بها أن تعثر عليها. وبمجرد أن خطرت هذه الفكرة في ذهنها، انتاب مارثا إحساسٌ جسديٌّ تقريبًا بالارتياح، وارتخى ظهرها، وأخذت رئتاها تعمل بشكلٍ أفضل. لأنها، بعد قراءة المقالات الإخبارية التي وجدتها في ذلك الصباح، أدركت أن عليها أن تفعل شيئًا ما. كان عليها إمَّا مواجهة آلان، أو تقديم الأدلة إلى الشرطة، وكان من المستحيل حتى استيعاب هذين الاحتمالَين. فإذا كانت مُخطئة في شكوكها، وهي على الأغلب كذلك، عندئذ سيكون زواجها قد انتهى. ما تحتاج إليه حقًّا هو صديق، شخص تتحدث معه بخصوص ما وجدته، شخص ينظر إلى الأدلة نظرةً موضوعية. لكن لم يكن لديها أصدقاء،

ليس حقًا. لا، لم يكن هذا صحيحًا. كان لديها أصدقاء، لكن ليسوا ممن يمكنها أن تتحدث معهم عن زوجها. ليس حاليًا، على أي حال.

لكن ليلي قد تكون الشخص المثالي تمامًا. فعندما كانتا في كلية الدراسات العليا معًا، ساعدت ليلي مارثا في الخروج من علاقة مخيفة. وغالبًا ما تساءلت مارثا عمَّا كان من الممكن أن يحدث لها لو لم تتدخل ليلي وتُوجهها خلال هذا الانفصال بالتحديد. وما تذكرته من تلك الفترة أن ليلي كانت عملية تمامًا. تكاد تكون قاسية القلب. فيما يخص الأمر برُمته. لم تكن عاطفية ولم تُصدِر الأحكام. وهذا بالضبط ما كانت مارثا تبحث عنه الآن. لم تكن ترغب في إخبار دونا من المكتبة، والتي على الأرجح كانت ستستمر في الصياح متعجبة: «يا إلهي!»، مرارًا وتكرارًا قبل أن تخبرها أنها بحاجة إلى الفرار من البلاد. كان بإمكانها أن تتصل بشقيقتها، التي تعيش حاليًا في ألاسكا، لكنها كانت تعرف كيف ستسير تلك المحادثة. سوف تتهمها شقيقتها بقراءة الكثير من الكتب ومشاهدة الكثير من الأفلام وبأن الفكرة برُمتها سخيفة. لكن ليلي... كانت ليلي لتُصغِي فعليًا.

وبينما أخذت تتساءل عن كيفية العثور عليها، إذ بمارثا تتذكر والد ليلي المشهور نوعًا ما، ديفيد كينتنر، المؤلف الإنجليزي الذي يقطن في مكانٍ ما في نيو إنجلاند. في السابق عندما كانت مارثا في الكلية، قرأت بعضًا من كتبه، ليس لغرضٍ سوى أنها أصبحت صديقة جيدة لابنته. وتذكَّرت، على وجه الخصوص، كتابًا بعنوان «أدنى حماقة» (Slightest Folly)، وهو عبارة عن كوميديا سوداء للغاية تدور حول مدرسة داخلية خيالية في إنجلترا تدعى «سكولدينجهام». لقد كان كتابًا على غرار «النخبة والعامة» (Upstairs Downstairs)، مُسلِّطًا الضوء على كلٍّ من التلاميذ وأعضاء هيئة التدريس. لقد أحبته مارثا، وتفاجأت عندما اكتشفت أن ليلي لم تقرأه قط.

سألتها مارثا: «ألا ينتابكِ الفضول؟».

- لقد قرأتُ بعضًا من أعماله، لكنني سأحتفظ بهذا لحين وفاته.

قالت ذلك بوجهٍ جاد، وكأنها لم تقل شيئًا كئيبًا على الإطلاق. لكن تلك الصراحة هي ما أعجبت مارثا بشأن ليلي.

تساءلت عمَّا إذا كان ديفيد كينتنر ما يزال على قيد الحياة، ووضعت مارثا اسمه في علامة تبويب جديدة في متصفحها، لتكتشف أنه كذلك، على الرغم من عدم وجود أيِّ مؤشر على أنه ما يزال يعيش في كونيتيكت. كانت آخر قصة إخبارية كبيرة عنه تتضمن حادثة سيارة تعرَّض لها مع زوجته الثانية، جيما دانيلز. لقد تمكَّن من البقاء على قيد الحياة بينما لم تتمكَّن هي من النجاة، واستنادًا إلى عدد المقالات المكتوبة حول هذا الأمر، فقد كانت قصة كبيرة في بريطانيا، حيث حدثَت.

وقد عثرت على ملف تعريفٍ قديم لديفيد كينتنر، أُعِدَّ قبل فترةٍ طويلة من وقوع حادثة السيارة، حيث كانت هناك صورة له ولزوجته آنذاك شارون هندرسون، وهي فنانةٌ محلية، يقفان أمام بيتٍ ريفي مُتهدم. أشار التعليق إلى المكان باسم منزل مونك، وهو الاسم الذي أطلقه ديفيد على المزرعة. وكانت البلدة هي شيبوج. خطر لها فجأة أن تبحث عن اسم «شارون هندرسون» و«شيبوج»، ومن بين العديد من النتائج كانت هناك قائمة على موقع وايت بيدجز (White Pages) تتضمن رقم هاتف. دوَّنت الرقم في مفكرتها. فلم تكن مستعدةً لإجراء مكالمة بعد.

قبل أن تذهب إلى الفراش في تلك الليلة، أحضرت مارثا إلى الفراش معها كلًّا من كتابها لباربرا بيم وألبوم زفافها. أخذت تتصفح الألبوم، وكانت الصور مألوفة لها. لقد كان حفلًا صغيرًا، حضره خمسة وثلاثون ضيفًا فحسب، معظمهم من عائلة آلان. لم تدعُ مارثا سوى والدتها وشقيقتها وزوج شقيقتها الثاني وأبنائه الثلاثة وخالتين غير

متزوجتَين وصديقة واحدة، هي بيتاني هارت، التي كانت مارثا تعرفها منذ المدرسة الابتدائية. كانت شقيقتها لوسي وصيفة الشرف، وقد ألقت خطابًا لطيفًا حقًّا ما لبث أن تحول إلى خطاب ديني للغاية في خاتمته، وهو ما جعل مارثا تشعر بالانقباض في ذلك الوقت. في الواقع، كان هناك شيءٌ ما بخصوص حفل الزفاف بأكمله، وبخصوص النظر إلى الصور الآن، يجعلها تشعر بالانقباض في داخلها. لماذا يرغب البشر في الاحتفال بعلاقاتهم؟ كان ثمة شيء يكاد لا يُطاق بشأن ذلك.

كانت هناك صورة واحدة نظرت إليها مارثا أكثر من غيرها. لقطة عفوية خلال حفل الكوكتيل، حيث تجمعت المجموعة الصغيرة تحت خيمةٍ في حقل العنب الذي تزوجا فيه، وبدا حقل العنب في الخلفية. كانت مارثا في فستان زفافها وآلان في حُلَّته يتحدثان مع مجموعة من أصدقاء آلان من الكلية. كان الجميع يضحكون، لكن عيني آلان كانتا تتجهان جانبًا قليلًا، تطالعان مجموعة صغيرة أخرى من المتحدثين، والتي تضمنت ابنة زوج شقيقتها، وهي فتاة مراهقة جميلة بشكلٍ لافت للنظر كانت ترتدي فستانًا صغيرًا جدًّا في ذلك اليوم، وقد أشارت إليه والدة آلان على أنه «أربعة مناديل وقطعة من الخيط». هل كان آلان يطالعها، محدقًا إليها بشهوةٍ في يوم زفافه؟ هل كان هذا هو الرجل الذي تزوجَتْه؟

***

في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، بعد ليلة تخلَّلتها فترات قصيرة متقطعة من النوم وأحلام منسية، استيقظت مارثا قبل موعد ذهابها إلى المكتبة ببضع ساعات. اغتسلت وارتدت ملابسها وأعدت الإفطار لنفسها. ثم جلست إلى مكتبها، وكان رقم هاتف والدة ليلي أمامها، واستعدت لإجراء المكالمة. كانت تفكر فيما قد تقوله عندما اهتزَّ الهاتف الخلوي في يدها بمكالمةٍ واردة. لقد كان آلان.

قالت: «صباحُ الخير».

رد قائلًا بصوتٍ مرح: «صباحُ الخير، يا عزيزتي».

- كل شيءٍ على ما يرام؟

- أجل، لماذا؟ لأنني أتصل؟ كنت سأرسل إليكِ رسالة، ثم قررت أنني أفضِّل بالأحرى سماع صوتكِ بدلًا من ذلك. كنت أعلم أنكِ ستكونين مستيقظة.

- كيف حال تشابل هيل؟

- أشعر وكأنَّ الصيف قد بدأ بالفعل. في الواقع يقع جناحِي بالخارج في الساحة الرئيسية تحت خيمةٍ ما وقد تعرقت جميع قمصاني.

تحدثا لبعض الوقت عن الطقس ثم قال آلان: «لقد كنت أفكر. يجدر بنا أنا وأنتِ القيام برحلة».

- أوه حقًّا؟ إلى أين؟

- لقد كنت أفكر في ذلك أيضًا. تعرفين كيف يكره كلانا الحرارة في أغسطس. ربما يمكننا الذهاب إلى شمال إنجلترا لمدة أسبوع. ألم ترغبي دائمًا في زيارة هاوورث؟

استغرقت مارثا لحظة لتُدرِك أنه كان يتحدث عن برونتي كونتري، ولكن بمجرد أن أدركت ذلك، أصبح الأمر منطقيًّا تمامًا. في أول موعدٍ غراميٍّ لهما، دارت بينهما محادثة طويلة حول كتابها المفضل «مرتفعات ويذرينج» (Wuthering Heights).

قالت مارثا: «أودُّ ذلك».

- حقًّا؟

بدا سعيدًا حقًّا، كما لو كان قد طلب منها الزواج مجددًا وقالت نعم.

- بالطبع.

- عظيم. يجب أن أذهب وأفتح جناحِي، لكن عندما أعود، دعينا نختار أسبوعًا ونبدأ بالتخطيط.

قالت مارثا، وهي تعني ذلك: «حسنًا».

- شيءٌ أخير قبل أن أدعكِ تذهبين. كنت أفكر في تغيير طريقة مشيَتِي.

- تغيير ماذا؟

- مشيَتِي. كنت أفكر في ذلك، كيف أن قدميَّ تشيران إلى الداخل وأميل إلى الأمام قليلًا، وأعتقد أنني يجب أن أحظى بمشيةٍ أروع. هذا كل شيء.

- ما الذي يجول بخاطركَ؟

- لا أعلم، شيءٌ سَلِس ومميز. ربما مشية شون كونري، تلك التي كانت لديه في فيلم «جولد فينجر» (Goldfinger).

- حسنًا، يجب أن تعمل على ذلك يا عزيزي.

ضحك وقال: «سأفعل».

بعد المكالمة، جلست مارثا دون حراك لمدة خمس دقائق تقريبًا، مدركةً وجود ابتسامة باهتة تعلو وجهها. كان لدى آلان حسَّان كوميديَّان: الدعابات المُبتذلة، ثم نوعٌ من الفُكاهة العبثية الجافة مثل ذلك الجزء المتعلق بمشيته. لقد أحبَّت روح الدعابة الجافة لديه وكان آلان يعرف ذلك. كان الأمر كما لو أنه يحاول استعادتها، من خلال كونه مضحكًا، والعطلة الموعودة. شعر جزء منها -الجزء الذي يؤمن بلعنات الحب والقدر ووجود الأشباح- كما لو أن آلان استشعر بأنها على وشك إجراء مكالمةٍ هاتفية من شأنها أن تغير حياتهما إلى الأبد وأنه اتصل ليتدخَّل. لا يعني ذلك أنه كان يعرف ما يحدث، بل أنه شعر به فحسب. ثم راحت تفكر في كلماته -عرضُ إجازة في مكانٍ أرادت زيارته، وإلقاء دعابة

من النوع الذي تحبه- وتساءلت عمَّا إذا كان قد تدرَّب على مكالمته قبل القيام بها. مثل عرض مبيعات. هل ذكَّر نفسه أيضًا بأن يبدو كإنسان عادي؟ أن يبتسم على الهاتف لأنها ستسمع ذلك في صوته؟ وتوهَّجت في ذهنها صورة ابتسامة متجمدة على وجه زوجها. وارتجفت بمجرد أن فرك جلبرت وجهه بكاحلها.

بعد أن أطعمت قطها، فكرت أكثر في مكالمةِ آلان الهاتفية. ربما كان يحاول أن يكون لطيفًا ببساطة عندما اقترح عليها رحلة لرؤية مروج هيثكليف وكاثي. بالطبع، كانت تعلم أنه أخذ يفكر في كل أنواع الجعة الإنجليزية التي سيتمكن من شربها في أثناء وجودهما هناك، لكن هذا لا يعني أن ما فعله لم يكن لفتةً لطيفة. وفكَّرت في نبرة صوته عندما قال: «هل ستفعلين؟» كما لو كان متفاجئًا بسعادةٍ حقيقيَّة لكونها مهتمة بإمكانية القيام بالرحلة. لقد كانت تلك واحدة من أفضل سماته، أنه لم يأخذها كأمرٍ مسلم به، وأنه شعر بالامتنان لحبها. والآن لم تعد تعرف بماذا تفكر. شعرت وكأنها لا تستطيع فهمه على الإطلاق، تمامًا مثل عدم قدرتها على فهم جلبرت، باعتبار أن القطط يستحيل فهمها. ومع ذلك، فقد أحبَّته بشدة.

تقريبًا قبل عشرين دقيقة من موعد مغادرتها إلى عملها في كيتري، انتابتها فكرةٌ مختلفة. تلك الفكرة هي: ماذا لو عرف آلان أنها كانت تلاحقه، ودعاها إلى إنجلترا لقتلها في المروج؟ هل كان سيفعلها هناك لأنه سيكون من الأسهل عليه الإفلات بفعلته، أم أنه أراد لها أن تقضي نحبَها في مكانٍ تحبه؟ جعلتها الفكرة تضحك ملء شدقَيها على مدى السخافة التي أصبحت عليها حياتها. لكنها فكرت بعد ذلك: فقط تحدثِي مع شخصٍ آخر بخصوص هذا. اتصلي بـليلي، أيُّ ضرر قد يسببه ذلك؟

***

الفصل الرابع

كانت السماءُ تمطر برفقٍ عندما غادرتُ المقهى وأنا أحملُ حقيبتي الورقية من الكعكات المُتَبَّلة. كانت مخبوزةً بالبصل الأخضر وجبنة الشيدر، وقد قرر والدِي أنها الرفيق المثالي لبيض فطوره. لقد حاولتُ بالفعل استنتاج طريقة صُنعها مرة واحدة في مطبخنا، لكنني لست ماهرةً في الخبز تحديدًا، وقد خرجت كعكاتي بقوامِ كُتلٍ رمليَّة.

نظرتُ إلى السماء، التي امتزجت فيها سُحب المطر الداكنة بخصلٍ رقيقة، وتوقعتُ أن يكون المطر قصير الأجل. كانت العودة سيرًا على الأقدام إلى منزل مونك تستغرق مسافة ميلين، لكنه كان صباحًا دافئًا نوعًا ما بالنسبة لشهر إبريل. لم أعرف قط سبب نفور البشر من السير خلال العواصف الممطرة. لماذا يُعد التبلل بسبب المشي أقل متعة من التبلل بسبب السباحة؟ أعتقد أن لذلك علاقة بالملابس، بالطبع، لكن حقًّا، الأمر ليس بهذا السوء. هطل المطر عندما استدرتُ نحو ممر المشاة الذي أوصلني عبر مساحاتٍ مهجورة من الأراضي الزراعية. ورصدتُ غُرابَين، يجريان محادثتهما الصباحية، وتساءلتُ عمَّا إذا كانا يتذمران بشأن المطر.

كنتُ مبللة بالمياه عندما وصلت إلى المنزل، وكانت والدتي، التي تسير بحذرٍ منذ سقوطها، قد خرجت إلى المُنحدر الأمامي بينما كنتُ قادمة عبر الممر. كانت ترتدي قميصًا أعرفه باعتباره المفضل لديها من

بين قمصانها المُرقَّطة، وتذكرت أن صديقتها بريندا ستأتي لتناوُل طعام الغداء لاحقًا. قالت بينما كنت أصعد الدَّرج: «ليلي، أنتِ مبتلةٌ تمامًا».

- إنه يومٌ رطِب.

قلتُ ذلك، وبرغم أنني لم أتذكر على الفور من أين أتيتُ بهذا التعبير، إلا أنني تذكرتُ فقط أنه يُزعجُ والدتي.

- هل تقتبسين عن والدك؟

- كلَّا، لم يكن ليقل ذلك. أعتقد أنه تعبيرٌ أيرلندي نوعًا ما.

- اذهبي وانزعي عنكِ تلك الملابس وخذي حمامًا ساخنًا. هل تتذكرين أن لديَّ ضيفًا على الغداء اليوم؟

- أذكر ذلك بالفعل. بريندا فنانة الفسيفساء.

قالت شارون بينما كنتُ في مُنتصف الطريق إلى أعلى الدَّرج: «ولقد تلقيتِ مكالمة هاتفية».

التفت قائلة: «ممن؟».

- دعيني أحضرها. لقد دوَّنتُها.

سارت شارون على نحوٍ غير متوازن عائدةً إلى المطبخ بينما كنت أقطر على الدَّرج. كنت أحاول أن أتذكر آخر مرةٍ تلقيت فيها مكالمةً هاتفية من أيِّ شخص. بالطبع، ساعدني أنني لست مُدرجة على الخط الأرضي الذي يصل إلى المنزل حيث أعيش، وأنه على الرغم من أنني أملك الآن هاتفًا خلويًّا، فإنه ليس هناك من يعرف رقمي. خطرت على بالي بعض الأسماء: إينيز جاريت، مديرتي القديمة في وينسلو، وهنري كيمبل، على الرغم من أنه عادةً ما يظهر فحسب معلنًا قدومه.

قالت شارون: «مارثا راتليف. أخبرتني أنها كانت تأمل أن يكون لديَّ رقم هاتفك، لذا أخبرتها أنكِ تعيشين هنا معنا. هل هناك مشكلة في ذلك؟».

- بالطبع لا.

قلتُ ذلك، وأخذ عقلي يرفق صورة لاسمٍ لم أسمع به منذ أكثر من عقدٍ من الزمان. وجه مارثا الذي يشبه وجه الثعلب إلى حدٍّ ما. بملامحها النحيلة وشعرها داكن بلون صندوق الورق المقوَّى.

- وماذا قالت أيضًا؟

- فقط أن تتصلي بها. لقد دوَّنتُ رقم هاتفها.

قلت: «حسنًا، شكرًا»، وتابعتُ صعود الدَّرج.

كانت مارثا راتليف، حين عرفتها، أقرب صديقة حقيقيَّة يمكنني أن أحظى بها على الإطلاق. لقد التحقنا ببرنامج الدراسات الأرشيفية نفسه في كليَّة بيركبيك بولاية ميريلاند منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. لقد كانت فترةً سعيدة في حياتي. كنتُ أشعر بالارتياح لكوني تركتُ أعوام الجامعة ورائي، جنبًا إلى جنب مع علاقتي المحكوم عليها بالفشل مع إيريك واشبورن، وسررت لكوني حددتُ مهنةً قد أثارت اهتمامي. لطالما أحببت المكتبات ولكني رأيتها أماكن تفضِّل الجديد على القديم. لطالما كان هناك رفٌّ للكتب التي وصلت حديثًا قائمًا في الواجهة والمُنتصف، بينما ينتهي المطاف بالكتب القديمة ذات الكعوب المتشققة والأغلفة الفنية الجميلة مُكدسة في أكوامٍ في تصفيات الكتب بالمكتبة إذ تُباع ثلاثة كتب مقابل خمسة دولارات. لماذا أراد الناس الأدب الجديد؟ لقد فهمتُ لماذا يبتكره الناس، ولكن لماذا يريده الآخرون؟ لماذا يقرأ شخص ما رواية رومانسية جديدة تمامًا إذا لم يكن قد قرأ روايات أوستن بأكملها بعد؟ لذا، عندما اكتشفت أن مجال علم المكتبات يتضمن

الدراسات الأرشيفية، التي تتضمن في أبسط صورها الحفاظ على الوثائق التاريخية، أدركتُ على الفور أنني وجدت مسيرتي المهنية.

كنَّا مجموعة صغيرة في بيركبيك لبرنامج الدراسات العليا لمدة عامين. ست نساء، ورجل واحد. وخلال اليوم التوجيهي، بدت الطالبات الأُخريات متحمسات من فكرة أننا سنقضي الكثير من الوقت معًا. كنَّ جميعًا مولعات بالكتب وغريبات الأطوار بعض الشيء، ذلك النوع من الفتيات اللاتي قيل لهن خلال المدرسة الثانوية أنهن سيزدهرن في الكليَّة، ثم أُخبِرن خلال الكليَّة أنهن سيكنَّ أسعد حالًا في كلية الدراسات العليا. كان الرجل الوحيد في المجموعة -لاري تشايلدز- هو الشخص الغريب الحقيقي. فلم يقتصر الأمر على كونه رجلًا فحسب، بل كان أسوَد، وأكبر عمرًا بقليلٍ من بقيتنا، ربما في أواخر العشرينات. كان، مثلِي، هادئًا خلال التوجيه، ويراقب من خلال العدسات السميكة لنظَّارته. قادتنا رئيسة قسمنا، وهي امرأة تُدعى درردري جونز والتي ذكَّرتني بوالدتي، في العديد من الأنشطة خلال حفلِ العشاء الترحيبي، بما في ذلك نشاط للتقرُّب من بعضنا يُدعى (حقيقتَان وكذبة). أتذكَّر أنني كنت الأخيرة وقد منحني ذلك وقتًا للتفكير فيما أردت قوله. أخذتُ أُلقي دعاباتٍ على نفسي حول ما يمكن أن أُدرِجه كإحدى الحقائق عني: **لقد قتلتُ حبيبي في الكليَّة باستخدام الكاجو**، على سبيل المثال. في النهاية، قلتُ إنني نشأت في مزرعة سُميت تيمنًا بثيلونيوس مونك[1]، وأنني كنت أربي راكونًا باعتباره حيوانًا أليفًا ذات مرة، وأنني كنت

(1) ثيلونيوس مونك (1917–1982 م) هو عازف بيانو وملحن جاز أمريكي بارز، أثَّر بشكلٍ عميق على مشهد الموسيقى من الأربعينيات إلى الستينيات من القرن الماضي. بفضل أساليبه المبتكرة وأدائه الفريد، حاز على لقب «الفيل على لوحة المفاتيح». عُرِف لأسلوبه في ارتداء البذلة والقبعة ونظارة الشمس. لوحظت أيضًا تصرفاته غير الاعتيادية فبينما يعزف الموسيقيُّون الآخرون في فرقته فكان ينهض عن لوحة مفاتيحه ويرقص قليلًا قبلما يرجع إلى البيانو.

صانعة أَلـحِفة متعطشة. كان لاري تشايلدز هو الوحيد الذي خمَّن أنني لستُ صانعة ألحفة. أتمنى لو أنني تذكرت ما قاله خلال ذلك النشاط السخيف، لكني أتذكَّر كذِبتَه. قال إنه سليلٌ مباشر لفريدريك دوجلاس. وقد، صدَّق معظمنا ذلك.

أتذكَّر بالفعل ما قالته مارثا راتليف خلال ذلك اللقاء التوجيهي، فقط لأنه بدا لي أمرًا غريبًا أن تعترف به لأشخاصٍ التقتْهُم للتو. لقد كانت كذبتها سخيفة، شيء من قبيل أنها عبرت ذات مرة فوق شلالات نياجرا في برميل، لكن إحدى حقائقها كانت أنها اعتقدت أن صديقةً لها في المدرسة الثانوية تمارس السحر ألقت عليها لعنةً، وأنها كانت لعنة حب. وعندئذ قالت دردري جونز: «أوه، لا أستطيع الانتظار لسماعِ المزيد عن ذلك»، ثم انتقلت إلى الشخص التالي.

لقد أثار ذلك فضولي تجاه مارثا. كانت من ولاية ميسوري، طويلة القامة بشكلٍ غريب، ذات شعر بُني طويل. ودائمًا ما كانت عيناها ترمشان بسرعة، ويمكنك ملاحظة أنها تُعاني عادةً سيئة تمثلت في مضغِ الجزء الداخلي من خدها. قررتُ بعد انتهاء جلسة التعارُف تلك أنها المرأة الوحيدة في مجموعتنا التي كنت مهتمةً بالتعرُّف عليها، واتَّضح أنني كنت محقةً في ذلك. فبعد أسبوع من بدء فصلنا الدراسي الأول، استضافت سيسيلي ماكونس، أكثر أعضاء صفنا اجتماعية، حفلة عشاء في شقتها الواقعة بالقُرب من حرم جامعة بيركبيك. كنت أقطن على بُعد بضعة أميال، بعد أن عثرتُ على غرفة للإيجار في منزل عمره مئتَي عام على حافة مستنقعٍ ملحي. كانت الغرفة قد أُدرِجت في قسم الإسكان الطلابي، وعندما سألت الطالبةُ العاملةَ هناك عنها، امتعضَ وجهها وقالت إنها صفقة جيدة جدًّا، بَيد أن المرأة التي تؤجر الغرفة كانت غريبة بعض الشيء. ذهبت لألقي نظرة عليها على أي حال. كان

منزلًا خشبيًّا لم يُطْلَ منذ أعوام وقد بهتَ لونُه حتى أصبح في لون صَدفة المحار. وكانت هناك شرفة واسعة مواجهة لثلاثة جوانب من المنزل، وتضمنت غرفتي موقدًا صغيرًا محمولًا ومرحاضها الخاص.

كانت المرأة التي تعيش هناك تدعى إثيل واتكينز. تبلغ من العمر ثمانين عامًا، عصبيةُ المزاج، وُلدت في المنزل ولم تقطن في أيِّ مكانٍ آخر قط. وخلال مقابلتنا سألتْني عمًّا إذا كان لديَّ حبيب وأخبرتُها أنني انتهيت من كل ذلك. وعلى ما يبدو أنها لم تصدقني، لأنها عبست بشدة حتى تجعَّد وجهها. حدقت إليها مرة أخرى، دون أن أقول أيَّ شيء عمدًا، وحركت رأسها إلى الخلف مثل كلبٍ ضربَته قطة في أنفه للتو. أخبرتُها أنني سآخذ الغرفة فوافقتْ على مضضٍ.

في حفل العشاء الذي أُقيم في منزل سيسيلي، أخبرتهم جميعًا عن وضعي المعيشي بينما كنَّا نتناول الإنشيلادا[1] النباتية التي قُدِّمت مع الزبادي العادي بدلًا من القِشدة الحامضة. بعد العشاء، احتسينا النبيذ في غرفة المعيشة ووجدتُ نفسي أتحدث مع مارثا راتليف، التي طرحت عليَّ أسئلةً متعددة بخصوص صاحبة المنزل الجديدة.

قالت مارثا: «تبدو وكأنها ساحرة».

- تبدو كواحدة. على الأقل يبدو شعرها كذلك.

- هل يمكنني زيارتكِ في وقتٍ ما؟ لقد ارتكبت خطأً بالحصول على غُرفةٍ في مَهجع الخرِّيجين وهي أشبه بزنزانة السجن.

---

(1) انشيلادا (Enchiladas): من أشهر المأكولات المكسيكية، وهي عبارة عن خبز التورتيلا المحشو بحشواتٍ مختلفة قد تكون لحومًا، أو خضارًا، أو جبنةً، أو فاصولياء، تُلف وتُغطى بصلصاتٍ تتنوع حسب الرغبة كذلك، قد تكون صلصلة الفُليفلة الحارة، أو صلصة أساسها الجبنة.

- بالطبع، إلَّا إذا كنتِ تخشين الساحرات. لقد سبق وأُلقِيت عليكِ لعنة، أليس كذلك؟

ضحكتْ، وقررتُ حينها أنها تصبح جميلة عندما تظهر أسنانها.

- بلى. لقد ألقت عليَّ عدوتي اللدود في المدرسة الثانوية، إيف ديكستر لعنة الحب. لقد أمسكتُ بها بالفعل وهي تفعل ذلك بي. كانت ليلة الهالوين، لكنها لم تكن ترتدي زيًّا أو أي شيء. كنت في غرفة نومي قرابة منتصف الليل، وقد جعلني شيءٌ ما أنظر من النافذة. كانت تقف على مَرْجة منزلي تحت ضوء القمر محدقةً إلى نافذتي.

- لماذا لعنتكِ؟

- لأنني قبَّلت حبيبها. ليس حتى عندما كان حبيبها، ولكن بعد أن انفصل عنها. حتى إنني لم أكن معجبة به بشكلٍ خاص، لكنني لم أكن قد قبَّلت أيَّ شخص بعد، لذلك لم أشعر أن باستطاعتي رفضه.

- ألم تكوني واحدةً من هؤلاء الفتيات اللاتي أردْنَ قُبلةً أولى مثالية؟

قلبت عينيها قائلة: «يا إلهي، كلَّا. لم أكن أهتم».

- إذًا، لقد اكتشفت الأمر.

- بالضبط. اكتشفت إيف الأمر. لقد كنَّا أصدقاءً نوعًا ما، لكن تلك كانت نهاية صداقتنا. لقد جعلتْ جماعتها تنبذُني في المدرسة وتدعوني بالعاهرة في الأروقة. اعتقدتُ أن هذا سيكون أسوأ ما في الأمر، لكن لا بدَّ أنها بحثت عن كيفية إلقاء لعنة الحب عليَّ. لقد جعلني ذلك في الواقع أحترمها أكثر قليلًا، عدا أن اللعنة قد نجحت.

- كيف تعرفين أن هذا ما فعلته بكِ؟

- لم أكن أعرف في ذلك الوقت. لكن في عامي الأخير في الجامعة ذهبتُ إلى منزل إحدى صديقاتي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وألقت والدتها- التي كانت تعمل وسيطة روحية بدوامٍ جزئي، على ما أعتقد- نظرةً واحدة عليَّ وقالت إنني أُصِبت بلعنة الحب. فتذكرت تلك الليلة على الفور، لقد ومضت في ذهني فحسب. وأصبح كل شيء منطقيًّا. لقد اتضح أن كل شخص ارتبطت به في الكلية كان فظيعًا بطريقةٍ ما.

كنت أومئ برأسي، وأنا أستمع إلى قصتها، وقالت: «أعرف ما تفكرين به، وهو أن كل شخص ارتبط به الجميع في الكلية كان فظيعًا...».

- كلَّا، إنني أصدقك. ربما تكونين ملعونة. ماذا ستفعلين حيال ذلك؟

- أتجنَّب الرجال.

لكن مارثا راتليف لم تتجنَّب كل الرجال في تلك السنة الأولى في بيركبيك. في البداية، أصبحت صديقة للاري، كلانا فعل ذلك، ولكن بدا من الواضح لأيِّ شخصٍ لديه نصف عقل أن لاري كان مغرمًا بمارثا. اعتقدنا جميعًا أن شيئًا ما سيحدث بينهما، ولكن بعد ذلك، في بداية الفصل الدراسي الثاني، كان البعض منَّا يتناول المشروبات في حانة تقدم خدماتها في المقام الأول لطلاب الجامعات تُدعى هايداوت Hideout. أتذكَّر أن لاري كان هناك، وكذلك مارثا، وأحضرت سيسيلي معها شخصًا لم يقابله أحدٌ منَّا من قبل. كان اسمه إيثان سالتز وكان كاتبًا زائرًا في الأدب الواقعي الإبداعي. قدمتنا سيسيلي لبعضنا بعضًا بينما كان إيثان يخيم على الطاولة. لقد كان يبدو كـظَّهير رُبعيٍّ في

رابطة اللبلاب (Ivy League)[1]. شعرٌ أشقر وفكٌّ منحوت، وكان جسده من ذلك النوع الذي يشكِّل حرف V، عريضَ المِنكبَين ذا خصرٍ صغير. شاهدت عينيه تتفحصان الطاولة، وتستقرُّ على كلِّ واحدٍ منَّا وتُصنفنا في فئات (كما كنت أفعل معه، لأكونَ صادقة)، ثم وقعتْ عيناه على مارثا. تضَرَّجت بشرتها الشاحبة الغرب أوسطية إلى حدٍّ كبير. سألنا إيثان عمَّا كنَّا نشربه جميعًا، ثم انطلق إلى البار مثل كلبٍ يلعب لعبة الجَلْب. نظرتُ إلى لاري، الجالس بجوار مارثا، ورأيت أنه قد رأى الشيء نفسه الذي رأيته، وهو أن مارثا وقعتْ في الحب من النظرة الأولى، أو شيء من هذا القبيل، مع هذا الغريب الوسيم.

***

(1) رابطة اللبلاب الأمريكية: هي اتحاد رياضيٌّ جامعيٌّ يضم فرقًا رياضية من ثماني جامعات خاصة في شمال شرق الولايات المتحدة. ويستخدم اسم هذا الاتحاد للدلالة أيضًا على تلك الجامعات الثمانية كمجموعة. وهذه الجامعات هي: جامعة براون، جامعة كولومبيا، جامعة كورنيل، كلية دارتموث، جامعة هارفارد، جامعة بنسلفينيا، وجامعة ييل. ويشير هذا المصطلح إلى مفهوم التميُّز الأكاديمي، الانتقائية في الاختيار، والنخبة الاجتماعية.

الفصل الخامس

خلال علاقة إيثان سالتز بأكملِها، بمُجرد أن أدركتُ حقيقتَه، لم أنفك أعودُ بذاكرتي إلى تلك الليلة في هايداوت، عندما أُحضِر إلى طاولتنا وقُدِّم إلى مجموعتنا الصغيرة من طلاب الدراسات العليا في علم المكتبات. تذكرتُ عينيه وهما تتفحصان المجموعة، ثم هبطَتا على مارثا وبقيَتا هناك. وعندما عاد بالمشروبات، كان الأمر كما لو أننا جميعًا أفسحنا له مجالًا في المكان الذي يريد الجلوس فيه تمامًا، بجوار مارثا مباشرةً.

في ذلك الوقت تساءلت عن سبب اختياره لها فجأةً وبشكلٍ حاسم. وتساءلت أيضًا عن سبب عدم اختياره لي. أعلم أن ذلك يبدو عبثًا، ولم يكن لديَّ أيُّ اهتمام بإيثان سالتز على الإطلاق، أو بأيِّ رجل في هذا الشأن. لكنني كنت أعلم أنني جذابة، تمامًا كما يعلم الأرنب أنه يبدو شهيًّا للثعلب. لقد نشأتُ في منزلٍ كان بمنزلة مأوى يتناوب عليه الضيوف بشكلٍ متكرر ما بين فنانِين ومؤلِفين مخمورِين طوال حياتي. وكنت محطَّ الأنظار منذ وقت طويل قبل أن أبلغ حتى سن البلوغ. لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعلني أعزف عن الرجال والحُب. كان إريك واشبورن هو السبب. لقد وقعتُ في حُبه وقد خانني. أعلم أنها قصة مألوفة، لكن ما علمتني إيَّاه لم يكن مقتصرًا على ما قد يفعله الرجال بالنساء فحسب، بل أيضًا ما سأفعله بالرجال الذين يخونونَنِي. كان هذا جزءًا مني لم أكن أرغب بالتحديد في مقابلته مجددًا.

كنت سعيدة لأنني لم أكن بحاجةٍ إلى صدِّ إيثان سالتز في الليلة التي التقيناه فيها جميعًا، لكنني كنتُ قلقة أيضًا بعض الشيء، حتى في ذلك الوقت، من أن يكون كلُّ اهتمامه مُنصبًّا على مارثا. لم أكن أُومِن بلعنات الحب، لكني كنت أُومِن بالتأكيد بالرجال الأوغاد، وقد جذبت مارثا أحدهم للتو. وخطر لي حينها أنه كان يفصلها عن قطيعنا ليس لأنه منجذبٌ إليها، بل لأنه استشعرَ ضعفها.

انتهت الليلة بذهاب كلٍّ منَّا في طُرقٍ شتى خارج الحانة، واقتلعت رياح الشتاء الباردة تحيات وداعنا. ولم يتفاجأ أحدٌ منَّا بأن إيثان سالتز تصادَف أن كان يسير في اتجاه مارثا.

في يوم الإثنين التالي، وبينما أخذ كل واحد منَّا يشرب شايَه في اتحاد الطلاب، سألتُ مارثا عمَّا حدث.

قلت: «لا أريدُ التفاصيل. فقط الصورة الكاملة».

فكرتْ للحظة، ثم قالت: «أعتقد أن لديَّ حبيبًا».

- وماذا عن لعنة الحب؟

ضحكت رغم أن عينيها بدت لي حزينة: «أوه، لم تذهب إلى أيٍّ مكان. أعلم بالفعل أن إيثان سوف يفطر قلبي، لكن أعتقد أنني لا أهتم. إنه جميل جدًّا، أليس كذلك؟».

- إنه جميل.

بعد تلك المحادثة، اختفت مارثا لفترةٍ من الوقت، في أعماق علاقة حبها المُزدهرة. وحتى نحن، داخل برنامجنا الصغير، اختفينا قليلًا أيضًا. لقد كان شتاءً باردًا بالنسبة لميريلاند، وكان عبءُ المقرر الدراسي في الفصل الدراسي الثاني أصعب بكثير ممَّا كان عليه في الخريف. كنَّا نرى بعضنا بعضًا في الصفوف، لكن التواصل الاجتماعي

كان أقل. وفي المناسبات النادرة التي استضافت فيها سيسيلي حفلة، أو اجتمعنا جميعًا في حانة هايداوت، كانت مارثا إما لا تأتي، أو تظهر لتناوُل مشروبٍ واحد مع إيثان، متشبثةً بذراعه كالغريق الذي يتشبث بطَوق. وعندما كان إيثان يتحدث، وعادةً ما يروي بعض النوادر المُسلية عن صفٍّ الكتابة الذي يُدَرِّسه في المرحلة الجامعية الأولى، كانت مارثا تُحدِّجه بحدَّةٍ تجعلنا جميعًا غير مرتاحين. على الورق، كان إيثان صيدًا ثمينًا، ولم يكن ذلك بسبب مظهره فحسب، لقد كان ذكيًّا وسريع البديهة، ومستمعًا جيدًا على نحوٍ مدهش. فعندما يتحدث شخصٌ آخر، كان يثبت تلك العينين الزرقاوين عليه كما لو كانت أفضل قصة سمعها على الإطلاق. لقد كانت تلك خدعة، بالطبع، أعني القُدرة على القيام بذلك. لقد تعرفتُ عليها، لكنني لم أتعرف عليها إلا كخدعة مُغْوٍ. وفي ذلك الوقت، اعتقدت أن إيثان كان شريكًا أحاديًّا متسلسلًا من نوعٍ ما، رجل يسافرُ كثيرًا ويجد بسرعة شريكتَه العاطفية الراغبة أينما حلَّ. كنت واثقة من وجود صفٍّ طويل من الشابات الثَّكالى في أعقابه، لكن لم تكن هناك جريمة حقيقيَّة في ذلك.

بَيد أنه في وقتٍ ما من شهر مارس، عندما بدأت ثلوج ميريلاند في الذوبان، رأيتُ شيئًا مختلفًا في مارثا. كانت أنحف، إذا كان ذلك ممكنًا حتى، ولم تكن بشرتها شاحبة فحسب، بل بيضاء كالطباشير بطريقةٍ ما، كما لو أنك إذا لمستها فسوف يتساقط اللون العجيني على أصابعك. لقد بدت مهزومة، وقد أسرَّ لي أحد أساتذتِنا بأنها معرضةٌ لخطر الرسوب.

كنت أعلم أنه من الممكن أن تكون هناك أسباب متعددة وراء تغيرها، ولكن بطريقةٍ ما اعتقدت أن الأمر له علاقة بإيثان. فكرتُ في مواجهتها، لكنني كنت أعلم أنها ستنكر وجود أيِّ خطأ. فحدثت نفسي بأن أدع الأمر وشأنه.

وأعتقد أنني كنت سأفعل ذلك لو لم أقد سيارتي على طول نهر تشيسابيك في يوم سبتٍ لطيفٍ للغاية في مطلع إبريل. توقفتُ عند مطعم يقدم السلطعون، ثم قررتُ أنني لا أريد الانتظار في الطابور الطويل الذي يتسلل خارج الباب. عدت إلى سيارتي وكنت أستعد للخروج من موقف السيارات عندما رأيت مارثا وإيثان يغادران المطعم ويشقَّان طريقهما نحو سيارة إيثان الجيب. كان هناك شيءٌ مثير للأعصاب بشأن رؤيتهما من بعيد. سارت مارثا خلفه بخطوة، وعيناها على ظهره، ثم انتظرت عند باب الراكب الجانبي حتى منحها إيثان الإذن بالدخول، على الأقل هذا ما بدا عليه الأمر من حيث شاهدتُ. بقيت في سيارتي، وتركت المحرك يعمل، وشاهدتهما ينطلقان على الطريق ويتجهان جنوبًا. تبعتُهما، متوقعة عودتهما إلى بيركبيك، لكنهما بدلًا من ذلك توجَّها إلى داخل البلاد، وانتهى بهما المطاف في بلدة تدعى بورت توباكو، حيث أوقفا سيارتهما أمام حانة ذات مظهرٍ رثٍّ تُدعى ثري ليجد دوج Three- Legged Dog. كانت الشمس قد شارفت على المغيب عندما دخلا الحانة.

وبما أنني لم أكن قد تناولت الطعام، فقد قدت سيارتي لفترةٍ من الوقت ووجدت مطعمًا للبرجر صُمِّم إما ليبدو وكأنه مطعم يعود إلى الخمسينيات أو أنه كان مكانًا لم يتغير حقًّا طوال الستين عامًا الماضية. وبمجرد أن انتهيت من تناول البرجر الجاف قررت أن أُلقي نظرة داخل ثري ليجد دوج. لا أعرف السبب بالضبط، لكنني أردت رؤيتهما على الطبيعة؛ لقد كان إيثان سالتز يُغير مارثا راتليف ببطء، وربما عن قصد، وأردت معرفة المزيد. إذا رأوني على الفور، فيمكنني حينئذٍ تناول مشروب معهما والمغادرة، لكن ربما يمكنني العثور على بقعة مناسبةٍ لأراقبهما.

أوقفت سيارتي على بُعد بضعة مبانٍ من سيارة إيثان الجيب، وارتديت قبعة صوفية شتوية، ودسست شعري أسفلها، وذهبتُ إلى الحانة أحمل نسختي من كتاب «الغرفة الدموية» (The Bloody Chamber) لأنجيلا كارتر Angela Carter. اندفعت عبر الباب الأمامي الهوائي للحانة ورصدتُ مقصورةً فارغة تتسع لشخصَين على يميني فذهبت إلى هناك مباشرةً. خلعت سترتي ولكنني أبقيت على قبعتي. جاءتْ النادلة وطلبت الجين تونيك. وبعد وصولهما، ألقيت نظرة على المكان أخيرًا. كان المكان أكبر ممَّا يبدو من الخارج، مع كل تلك المقصورات والطاولات، وكان يرتكز في وسط الغرفة بارٌ بيضاويٌّ كبير. وفي الجزء الخلفي تقبع طاولة بلياردو وصندوق موسيقي يصدح حاليًّا بأغنية ريفيَّة عن احتساء التكيلا. كان إيثان ومارثا على الجانب الآخر من البار، يجلسان جنبًا إلى جنب، واستطعت بالكاد تمييزهما من خلال مجموعات من الزجاجات والسقاة الذين يتحركون بسرعة، واللاتي كنَّ ثلاث نساء جميعهن يرتدين القمصان الوردية نفسها المزينة بشعار الحانة. كان من المحتمل أن يتطلع إيثان أو مارثا إلى الأعلى ويرونني عبر دخان السجائر الأزرق في الغرفة في مقصورتي الضيقة، لكنني شككتُ في ذلك. وقررت أن أمكث مكاني وأراقب.

كنت هناك لمدة ثلاث ساعات، تجرعت ثلاثة مشروبات، وأحبطت محاولات أربعة رجال (أحدهم ادَّعى أنه من معجبي أنجيلا كارتر)، وشاهدتُ إيثان ومارثا يلعبان نوعًا ما من الألعاب، التي لم أتمكن من فهم قواعدها تمامًا.

على حدِّ عِلمي، كان كل منهما يتناول مشروبًا في البار -بدا مشروبه مثل الويسكي والصودا، بينما كان مشروبها عبارة عن كأس من النبيذ الأبيض- ثم يتجول أحدهما أو الآخر بعيدًا، ليعود مع طرف ثالث. إذا

كانت مارثا هي من تذهب لاستطلاع البار المزدحم، فعادةً ما كانت تعود برجل، لكن في إحدى المرات عادت بامرأة. تتم عمليات التعارُف، وفي مرحلةٍ ما يبدو وكأن إيثان يقول شيئًا من شأنه أن يجعل الشخص يغادر.

وعندما يغادر إيثان البار، كان يعود بسرعة كبيرة، دائمًا مع امرأة، وكان يضفي أهمية كبيرة على تعريفها بمارثا. رأيته ذات مرة وهو يشير إلى ملامح إحدى المشاركات الثملات على وجه التحديد، كما لو كان يحاول بيْعها لأعلى سعر. وكان يضحك. استمرَّ شعوري بالقلق من أنه قد يأتي إلى الجانب الآخر من البار، حيث كنتُ أجلس، لكنه لم يفعل قط. وبدا أن هناك انقسامًا طبيعيًّا قد حدث في ثري ليجد دوج وضع الأزواج الهادئين والأشخاص المنعزلين على الجانب الأيمن من البار، بينما تحول الجانب الأيسر إلى حفلة ليلة سبتٍ صاخبة، رافقها الغناء بمصاحبة موسيقى الريف الكلاسيكية.

قررتُ أنني قد رأيت ما يكفي، وأنني كنت محظوظة أيضًا لأنه لم يلاحظني أحد. وبينما كنت أبحث عن النادلة لدفع فاتورتي، شاهدت مارثا وإيثان يتحدثان إلى فتاةٍ من غير المعقول أن تكون في السن القانوني للشُّرب. كان لديها شعر أسود طويل وترتدي قميصًا قصيرًا وجينز منخفض الارتفاع. كانت تحدق إلى إيثان كما لو أنها التقت نجمًا سينمائيًّا. وقبل أن أدفع فاتورتي، غادر ثلاثتهم معًا.

عدتُ إلى منزلي عند المستنقع الملحي ورحت أفكر فيما رأيته. بدا من الواضح أن إيثان ومارثا يحبان الخروج إلى الحانات والعثور على شخصٍ ما. وإذا كانت تلك هي الطريقة التي يقضيان بها ليالي السبت، فمن المؤكد أنها ليست من شأني. لكن شيئًا ما بخصوص رضا مارثا عن

الوضع، وغِبْطَة إيثان العفوية، جعلني أتساءل عمَّا إذا كان ما يحدث أقل من أن يكون قد حدث بالتراضي.

في المرة التالية التي رأيت فيها مارثا كانت في صفِّ التقييم الأرشيفي الذي كنَّا ندرسه معًا. بعد ذلك، تجولنا في أنحاء الحرم الجامعي معًا.

قلت: «لقد رأيتكِ تلك الليلة».

- أوه حقًّا؟

- ليلة السبت. لقد ذهبت إلى بورت توباكو وتناولت مشروبًا سريعًا في حانةٍ هناك. لقد رأيتكِ مع إيثان.

كنا نسير جنبًا إلى جنب واسترقتُ لمحةً إليها ورأيت نظرة قلق وخوف على وجهها. قالت، بصوت طبيعي إلى حدٍّ ما: «كان عليكِ أن تُلقي التحية».

- بصراحة، كنتُ هناك لأحتسي مشروبًا سريعًا، ومن الواضح أنكما كنتما في موعد وظننتُ أنه قد يكون أمرًا محرجًا. إنه شيءٌ سخيف، رغم ذلك، كان يجدر بي أن ألقي التحية.

مرَّ بجانبي صحنٌ طائر (فريسبي)، وكاد أن يصطدم بكتِفي، فصاح الشاب الذي أمسك به معتذرًا. قلت وأنا أحاول أن أجعل الكلمات تبدو عفويَّة قدر الإمكان: «هل الأمور على ما يرام مع إيثان؟».

- امم... على ما يرام.

توقفت هنيهة، ثم قالت: «الأمور مثيرةٌ جدًّا للاهتمام مع إيثان».

- حسنًا.

سِرنا في صمتٍ هُنيْهَة، وكان تغريد الطيور يملأ الهواء، وأجبرتُ نفسي على انتظارها.

- إنه مغامرٌ عاطفي وأنا لست كذلك، وهذا ليس أمرًا سيئًا. أعني أنه أمر ممتع. هو ممتع.

وصلنا إلى اتحاد الطلاب، وبدلًا من الدخول، وجهتُ مارثا إلى مقعدٍ خشبي يواجه الساحة الرئيسية للحرم الجامعي. وجلسنا. بدأت تتحدث، بشكلٍ شبه جنوني، كما لو كانت تتحرَّق شوقًا لمشاركة تفاصيل علاقتها مع أيِّ شخص.

- أعلم أنه سيذهب إلى فيرمونت لقضاء الصيف كملاذٍ للكتابة وأن ذلك سيكون نهاية علاقتنا. لعلَّ ذلك الأفضل للجميع. أعني، أنني لم أفكر للحظة أنني سأتزوج من شخصٍ مثل إيثان سالتز. إنني فقط أستمر في إخبار نفسي بأن وجودي معه هو تجربة. أعني، إنه يحب العلاقات المُتحررة، وقد فعلنا ذلك والأمر على ما يرام، وهو منغمسٌ بشدة في أشياء غريبة الأطوار من نوعية لَعِب أدوار، وبعض من ذلك كان يثير الخوف داخلي إلى حدٍّ ما، لذا أخبرته أنني ربما قد تجاوزت حدود راحتي، أو أيًّا كان ما تريدين أن تسميه.

- وماذا قال؟

- أوه، لقد ضحك. إنه يضحكُ على كل شيء. ثم قال الشيء الذي أزعجني حقًّا. لقد دعاني بالمشروع. لقد قال، وأنا متأكدة تمامًا من أن هذه هي الكلمات بالضبط: «أنتِ مشروعي يا مارثا. ولهذا السبب اخترتكِ، كما تعلمين، لأرى إلى أيِّ مدى يمكنني أن أجعلكِ تذهبين».

- مُقرف.

- أعتقد أنه كان يمزح فحسب، بصراحة. لكن، أجل، إنه مقزز.

- هل أذاكِ؟

ترددت طويلًا بما يكفي لأعرف أنه فعل، ثم قالت: «لا شيء متطرف. لكن... حسنًا، الآن سأخبركِ في الواقع بهذا...»، أخذتْ نفسًا عميقًا واستطردت: «إذن، ليلة السبت عندما رأيتِنا في تلك الحانة، كنَّا هناك لنلتقط شخصًا ما وهو ما فعلناه من قبل. وانتهى بنا المطاف مع مثل هذه الفتاة المحليَّة المخبولة. أقول إنها مخبولة لأنها كانت في حالة سُكر حقًّا، وأخذت الأمور منعطفًا غريبًا جدًّا على نحوٍ بالغ السرعة، و... لن أخوض في التفاصيل، لكن إيثان كان يحاول أن يجعلني أوذيها».

ضغطت مارثا برسغ يدها على إحدى عينيها، ووضعتُ يدي على ظهرها وتركتها هناك. وبعد فترة قلت: «عليكِ أن تتركيه، كما تعلمين. ولهذا السبب أخبرتِني بذلك».

- أعلم.

وفي ذلك المساء وضعنا خطة، حيث كنَّا نجلس على فراشها الفرديِّ في غرفة نومها الصغيرة المصنوعة من الطوب الخرساني. كانت قد زينت الغرفة بأغلفة نيويوركر مُؤطَّرة، معظمها يصور قطة، على الرغم من أن أحد الأغلفة، وهو عبارة عن لوحة مائية لأُفق نيويورك، كان عددًا تعرفته من عام 1986، واحدًا يحتوي على قصةٍ كتبها والدي بعنوان «أيام مارتن توبي الأخيرة» (The Final Days of Martin Tobey).

قالت مارثا: «إيثان لن يمانع. أعني أنه لن يمانع عاطفيًّا، أو أي شيء آخر. لكنه يراني حقًّا كمشروع، ولستُ متأكدة من أنه انتهى منه... مني».

تدربنا على بعض عبارات الانفصال معًا، ووضعت مارثا خطة للقاء إيثان في الليلة التالية في حانة هايداوت. كانت الخطة تقتضي أن أنضم إليهما في العاشرة والنصف تقريبًا. وكونَّا بعض الإشارات السهلة. على سبيل المثال، إذا أخذت مارثا رشفة من مشروبها بعد أن مررتُ وألقيت

التحية، فهذا يعني أنه لا ينبغي لي البقاء هناك. أما إذا دفعت شعرها خلف أذنها، فهذا يعني أنني يجب أن أنضم إليهما. وبهذه الطريقة، إذا سار الأمر على نحوٍ شنيع، سأكون هناك لتقديم الدعم.

في الليلة التالية، دخلت إلى هايداوت في الساعة العاشرة والربع، ولاحظتُ على الفور مارثا وإيثان في إحدى المقصورات الخلفية. ذهبت إلى البار وابتعتُ مشروبًا غازيًّا مع الليمون، وأملت مقعدي حتى أتمكن من مراقبتهما. من حيث كنت جالسة، استطعت رؤية مؤخرة رأس إيثان، وشعره الذهبي، وتمكنت من رؤية مارثا، بوجهها القلق، وهي تشرح موقفها. وعندما هدأ الحديث، انزلقتُ عن مقعدي وسِرت نحوهما.

قلت: «أوه، مرحبًا».

دسَّت مارثا خصلة من شعرها خلف أذنها اليسرى بينما تطلع إيثان إليَّ وقال: «مرحبًا ليلي».

قالت مارثا وهي تنزلق خارجة من المقصورة: «انضمي إلينا. عليَّ أن أسرع إلى المرحاض».

انزلقت على المقعد الخشبي في المقصورة التي أخلَتْها مارثا ونظرت إلى إيثان عبر الطاولة الضيقة. بدا مستمتعًا. فقلت: «كيف حالُكَ؟».

قال وهو لا يزال يبتسم: «كان الأمر أشبه بمشاهدة دمية مُتَحَرِّكَة. لقد كانت شفتا مارثا تتحركان، ولكن كلماتكِ كانت تخرج منهما».

- عفوًا؟

- أيًّا كان. ليس بالأمر الهام بالنسبة لي.

كان متكئًا على الطاولة واستطعتُ أن أشم رائحته. لقد فاحت منه رائحة صابونٍ رجالي، كما كانت رائحته دائمًا.

- ما زلتُ لا أعرف عمَّا تتحدث.

- بلى، في الواقع تعرفين، لكنّي سأشاركِ اللعبة. لقد انفصلت عني مارثا للتو، وبما أنكِ هنا لتقودينها إلى منزلها بأمان فسأقول لكِ هذا: إذا أردتُ استعادتها فسيكون ذلك أسهل شيء في العالم. لكنني بصراحة، لا أكترث فحسب بما يكفي لأبذل هذا الجهد. وبما أنكِ هنا الآن أيضًا، أدرك أنكِ ربما تكوني غاضبة مني لأنني لم أكن منجذبًا إليك، بيد أنكِ كنتِ ستصبحين سهلة المنال. أنتِ بالفعل وحش، يا ليلي كلٌّ يعرف الذي مثله.

قلت، وأنا أُخفض صوتي: «اسمع يا إيثان. أنا وحشٌ بالفعل. تذكر ذلك، حسنًا؟».

كانت مارثا عائدة إلى المقصورة، وقد كانت قدماها غير مُتزنة بعض الشيء، إما بسبب كثرة المشروبات أو بسبب الضغط الناجم عن إخبار إيثان بأن الأمر قد انتهى. نهضتُ سريعًا وقلت: «مارثا، لا أشعر أنني بخير. أكره أن أفعل هذا بكِ، لكن هل يمكنكِ مرافقتي للمنزل؟».

- بالطبع.

وبعد أن أحضرت معطفها غادرنا معًا، تاركين إيثان خلفنا يضحك في مقصورته.

عادت مارثا معي إلى غرفتي المستأجرة. كان علينا أن نمر بإِثيل واتكينز، مالكة المنزل، التي كانت تحب الجلوس في الغرفة الأمامية لمشاهدة إعادة عرض المسلسلات الكوميدية على تلفازها القديم المُتذبِذب. اعتقدتُ أنها ستدلي بتعليقٍ بشأن زائرتي، لكنها حدقت إلينا فحسب ونحن نتجه إلى الطابق العُلوي. قضت مارثا الليلة معي. كانت مفعمةً بالأدرينالين، وهي تخبرني مرارًا وتكرارًا كيف جرت المحادثة بالضبط، ثم تشرح كيف أنها ستتخلى فعليًّا عن الرجال من الآن فصاعدًا. غطَّت في النوم بملابسها فوق الأغطية وتكوَّرتُ بجانبها.

في الأسبوع التالي، كنَّا لا نفترق، وكانت مشاعر مارثا تتناوب بين السعادة والأسى بسبب انتهاء علاقتها بإيثان، بينما كنتُ أنا حذرة من هجومٍ مضاد. بَيد أنه لم يأتِ. لقد رأيت إيثان مرةً واحدة فقط، وهو يعبر الساحة مرتديًا قميصَ رَجبي وسروالًا قصيرًا. تلاقت أعيننا لفترة وجيزة، ولكن لم يكن هناك أيُّ تعبير على وجهه.

أتساءل أحيانًا أكنَّا أنا ومارثا سنظل أصدقاء بعد الدراسات العليا، أم أنني أفسدتُ الأمر بسبب ما قلته لها في الليلة الأخيرة قبل أن تبدأ عطلتنا الصيفية.

سألتني: «ماهي خططكِ؟».

كنَّا نجلس في شرفة منزل إِثيل الأمامية، نشرب النبيذ ونحاول تجاهُل الذباب الأسود.

- على الأرجح سأقضي بعض الوقت مع والدتي، وأقرأ قليلًا. وربما أذهب إلى فيرمونت وأقتل إيثان سالتز.

ضحكت ضحكتها العريضة، وقالت: «نعم، اجعلي العالم مكانًا أفضل».

كان حريًّا بي تركُ الأمر عند هذا الحد، لكنني كنتُ صغيرة في ذلك الوقت، وربما اعتقدتُ أن مارثا يمكنها تحمُّل سماع خطاياي.

- أنا جادَّة. إنني من أشد المؤمنين بتخليص العالم من أشخاصٍ مثل إيثان سالتز. لن يكون من العسير الإفلات من العقاب.

ارتسمت نظرة صدمةٍ حقيقيَّة على وجه مارثا عندما أدركتْ أنني كنت جادة حقًّا.

قلت: «أم لا»، وضحكتُ.

في ذلك الصيف، احتفظت بالغرفة المستأجرة، وتنقلت ذهابًا وإيابًا بين ميريلاند ومنزل مونك في كونيتيكت. قضيت شهر أغسطس في لندن مع والدي. لم أزر فيرمونت ولم أقتل إيثان سالتز. لقد بقينا أنا ومارثا صديقتَين للعام الدراسي التالي، ولكن بصراحة، لم يعد الأمر كما كان أبدًا، ولم أتفاجأ بأنني ومارثا فقدنا الاتصال بعد الكلية. كلُّ ذلك جعلني أشعر بالفضول لمعرفة سبب اتصالها بي الآن.

***

الفصل السادس

- هل هذه مارثا؟

- أجل. مرحبًا ليلي، لقد مرَّ وقتٌ طويل.

استطاعت مارثا أن تشعر بصوتِها يرتجف. كانت في مكتبها بالمكتبة ونهضت لتُغلق بابها.

قالت ليلي: «لقد مرَّ وقتٌ طويل بالفعل. لكن يسعدني سماع صوتكِ». وشعرت مارثا بصِدق مشاعرها.

- يسعدني سماع صوتكِ أيضًا. هل عدتِ إلى العيش مع والديكِ؟

- أجل. إنها قصة طويلة، ولكن ملخصها أنهما انفصلا، ولكن والدي لا يستطيع أن يبقى بمفرده، ووالدتي لا تملك ما يكفي من المال لإعالة نفسها، لذا فهما مُجبران على العيش معًا. وأنا هناك لأحول دون قتلِهما بعضهما بعضًا.

قالت مارثا: «يبدو أنها مهمةٌ شاقة»، وانغمست في المحادثة، مدركةً أنها قد افتقدت ليلي بعد مرور الأعوام.

- الأمر ليس بهذا السوء.

- هل تعملين؟

- أتعرفين كليَّة وينسلو في ماساتشوستس؟ بعد عام تقريبًا من تخرجنا، حصلت على وظيفة هناك. كانت وظيفة جيدة حقًّا،

ولكنني تركتُها بعد عامَين للعودة إلى هنا. والآن على الأغلب عاطلة، رغم انشغالي بأرشفة أعمال والدي.

قالت مارثا، سعيدةً بتحويل دفة الحديث نحو صديقتها القديمة لبعض الوقت: «أوه، كيف ذلك؟».

- إنه يستمرُّ في التهديد بحرقهم في المدفأة، لكنه ينبحُ ولا يعض. لقد احتفظَ بكل شيء، بما في ذلك بعض المجلات الشائنة إلى حدٍّ ما. ماذا عنكِ؟ هل تعملين؟

- أنا مديرة مكتبةٍ عامة في كيتري الآن. قبل ذلك كنت أقوم بأعمالٍ أرشيفية في جامعة بوسطن، لكنني لا أمانع العودة إلى محيط المكتبة الكلاسيكية.

- لا، بالطبع لا.

لم تقل مارثا أيَّ شيء على الفور. لقد أراد جزء منها مواصلة الحديث فحسب عمَّا كانا يفعلانه منذ أن عرفا بعضهما بعضًا طوال تلك الأعوام المُنصرِمة، لكنها أرادت أيضًا الوصول إلى صُلب الموضوع. وأخيرًا قالت: «إذن، لقد اتصلتُ بكِ لغرضٍ ما».

قالت ليلي: «حسنًا، إنني مصغية».

وقد شعرتْ مارثا نتيجة الطريقة التي قالت بها ذلك كما لو أنهما كانا يقضيان الوقت في غرفة نومها بالمَهجع في ميريلاند مرةً أخرى.

- إذن، لقد تزوجتُ.

- أوه حقًّا؟ متى كان ذلك؟

- منذ ما يزيد قليلًا عن عام. آلان أكبر مني بقليل. إنه يبيع موادًّا تعليمية، لذا فهو دائم السفر.

لم تكن مارثا ترغب حقًّا في الخوض في ماهية ما يبيعه بالفعل حاليًا، لأن الناس دائمًا ما كانت تراودهم الكثير من الأسئلة.

- وهل أبطلَ لعنة حُبكِ؟

- أوه، أتتذكرين ذلك؟

- بالطبع أفعل. في الواقع، كنت واثقة تمامًا من أنكِ تتصلين بشأن شيءٍ يتعلق بإيثان سالتز.

- أوه. ذلك الاسم. إن مجرد سماعه يصيبني بالقشعريرة.

- ألا تعرفين أخباره؟

- كلَّا. حمدًا للرب. أنا أتصل بخصوص زوجي. أعتقد أنني بحاجةٍ فقط إلى إخبار شخصٍ ما بما يحدث معه.

- هل يؤذيكِ؟

- لا لا، مطلقًا! بل هو رجل لطيفٌ للغاية، على الأقل هذا ما أظنُّه. اسمعي، لم أكن لأطلب هذا، لكن بما أننا نتحدث الآن... هل تظنين... هل من الممكن أن نلتقي ونتحدث وجهًا لوجه؟

- بالطبع. هل تقيمين في مين؟

- أقيم في بورتسموث، نيو هامبشاير، لكنني أعمل في مين. رغم ذلك، بإمكاني أن آتي إليكِ. آلان مسافر في إحدى رحلاته المعتادة. وأنا في العمل، ولكن لدينا فريق عملٍ جيد، ويُمكنني المغادرة في أيِّ وقت.

فجأة، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، أرادت مارثا رؤية ليلي بالفعل. لم تكن ترغب في إجراء هذه المحادثة عبر الهاتف.

- يُسعدني أن نلتقي في منتصف الطريق، ولا أُمانع في جولة بالسيارة اليوم.

شغَّلتْ مارثا حاسوبها المكتبي مستعرضةً خريطة للمنطقة، واتفقتا على أن تلتقيا لتناوُل عشاء مبكر في ورسستر بولاية ماساتشوستس. ووقع اختيارها على حانة إيرلندية تُدعى تيبسِي مَكستاجرز Tipsy McStaggers لأنها تقع بجوار الطريق السريع مباشرةً. وقد اتفقتا على أن يكون موعد اللقاء في الرابعة بعد الظهر.

وما إن أنهت مارثا مكالمتَها، حتى غمرها شعورٌ بالراحة لدرجة أنها أجهشت ببكاءٍ مفاجئ غير مُتوقع. فلم تكن لديها أدنى فكرة عمَّا ستحمله لها تلك المكالمة الهاتفية، بل أن جزءًا منها قد تساءل إن كانت ليلي حتى ستتذكرها. فكانت بمنزلة راحةٍ كبيرة أن تذكرتها ليلي، بل وتذكرت كذلك لعنة الحب تلك. والآن ستلتقيان وجهًا لوجه، وسيصبح بإمكان مارثا أن تُطلِع ليلي على شكوكها، آملةً أن تردَّ ليلي بقهقهةٍ تُبدِّد كلَّ هذه المخاوف، وتعيدها إلى صوابها. وبذلك ينتهي هذا الفصل من حياتها.

بعد أن انتهت من نوبة البكاء، جلست مارثا لحظةً واستعادت رباطة جأشها. أرسلت بريدًا إلكترونيًّا سريعًا إلى موظفيها تخبرهم بأنها ستغادر مبكرًا ذلك اليوم، ثم حاولت إنجاز بعض رسائل البريد الإلكتروني التي كانت تتجنبها. أطلَّت ماري- أكبر أمينة مكتبة في الموظفين- برأسها في مكتب مارثا لتطرح سؤالًا، ثم بعد أن أجابت مارثا، قالت: «عزيزتي، هل أنتِ بخير؟».

مسحت مارثا على عينها بِردَّة فعل لا شعورية وقالت: «أجل، أنا بخير». وعندما لم تتحرك ماري لمُغادرة الغرفة على الفور، أضافت: «لقد تحدثتُ للتو مع صديقة تمرُّ بوقتٍ عصيب للغاية في زواجها. لهذا السبب سأغادر مبكرًا لألقاها».

قالت ماري عابسة: «أوه، هذا سيئ للغاية».

بعد أن غادرت ماري المكتب، مقتنعة على ما يبدو بنصف الحقيقة التي قصتها عليها، قررتْ مارثا بأن الوقت قد حان للرحيل. مرَّت مسرعةً على منزلها لتأخذ مذكرتها، وقررت أن تُبدل ملابسها. ما هو الشيء المناسب لارتدائه عندما تقابلين صديقةً قديمة لتتحدثي معها عن زوجكِ المشتبه به؟ استقرَّت في النهاية على أفضل سروال جينز لديها، ذاك المهترئ بعض الشيء، واختارت معه قميصًا مطبوعًا. ذلك الذي أشارت إليه إحدى أمينات المكتبة الأصغر سنًّا بأنه «بُوهيمي» الطابع.

كان مطعم تيبسي مَكستاجرز عبارة عن مطعمٍ ضخم يتربع على مساحة فدان من ساحة انتظار السيارات، وكانت واجهته مغطاة بألواحٍ خشبية مطلية باللون الأخضر، ومُزينة بالأعلام والأضواء المعلقة ولافتات جعة جينيس. كان الجو مشرقًا في الخارج في موقف السيارات، واستغرقت عينا مارثا لحظة حتى تتأقلم مع الضوء بعد أن وطأت قدماها أرضية المطعم المُظلم. بدا المكان أشبه بنسخة والت ديزني من حانة أيرلندية، إذ امتلأت كل زاوية وجدار بزخارف نَباتِ النَّفَل أو برسوم جنٍّ قزم أو بإعلانات لمشروب الجينيس. تقدَّمت إحدى المضيفات ببطءٍ وسألت إن كانت مارثا بمفردها.

- أنتظر شخصًا ما، لكنني وصلت مبكرًا.

- يمكنكِ الجلوس أينما تشائين.

تجولت مارثا داخل المطعم المُحيِّر، مرورًا بكُوتين صغيرتين، لكلٍّ منهما بار ومقاعد، ثم صعدت درجتين إلى ما بدا لها أنها منطقة البار الرئيسية. تسلَّقتْ مارثا مقعدًا مُبطَّنًا، وطلبتْ من نادل صغير السن قدحًا من الجينيس، وانتظرت. من مكانها ذاك، استطاعت مارثا أن ترى مدخل المطعم الرئيسي خلفها. ووجدت نفسها تتأرجح بين رشفاتٍ صغيرة من مشروبها ونظرات خاطفة نحو الباب. في وقتٍ سابق من

اليوم، كانت تشعر براحةٍ كبيرة حيال هذا اللقاء، ولكن الآن وقد اقترب موعده، سيطر عليها شعور بتوترٍ خفيف وإحراج بسيط. هل حقًّا طلبت من شخصٍ لا تعرفه جيدًا أن يقود لمدة ساعتين لسماع نظريةٍ جامحة؟

أنهت جعتها وطلبت الماء. كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة، ودخل المطعم بضعة رواد يحتسون الشراب على انفراد، بالإضافة إلى مجموعة من طلاب الجامعة، اثنان منهم كانا يرتديان قمصان جامعة «هولي كروس». اهتزَّ هاتفها؛ كان آلان يتصل مرة أخرى من نورث كارولينا. رفضت المكالمة وأرسلت رسالة: «هل يمكنني الاتصال بكَ لاحقًا؟». ردَّ بعلامة إعجاب.

استدارت لتنظر إلى المدخل مرة أخرى، ووجدت نفسها تنظر إلى ليلي، التي تقف على بُعد قدمين منها. تساءلت مارثا عمَّا إذا كانت قد تغيرت، لكنها لم تتغير. شعر أحمر طويل، بشرة شاحبة، تلك العينان الخضراوان الحادَّتان. تعانقتا، وظنَّت مارثا للحظة أنها قد تبكي مرةً أخرى، لكنها تمالكت نفسها.

قالت مارثا: «دعينا نأخذ طاولة أو مقصورة».

- حسنًا.

وأشارتا إلى نادلة كانت تمرُّ بجوارهما للإشارة إلى أنهما ستنتقلان إلى مقصورة في إحدى الزوايا. وجلستا متقابلتين.

قالت مارثا: «تبدين كما أنتِ».

- أهو كذلك؟ أنا لا أشعر بأنني كما كنتُ. أنتِ من تبدين مختلفةً.

ضحكت مارثا. تذكرت هذا الأمر عن ليلي، أنها لم تقل الأشياء التي كان من المُفترض أن يقولها الجميع في المواقف الاجتماعية. قالت: «مختلفة من أي ناحية؟».

- تبدين أكثر ثقة بالنفس، وكأنكِ قد وصلتِ إلى العمر الذي خُلقتِ له.

- ها. ربما تكونين محقة، على الرغم من أنني لا أشعر بالثقة بالنفس تحديدًا.

ظهرت النادلةُ وطلبت مارثا كأسًا أخرى من الجينيس، بينما طلبت ليلي الشيء نفسه. وبعد أن غادرت النادلة بطلبهما، قالت ليلي: «إذن، ما الذي يجري مع زوجكِ؟».

قبل الخوض في بقعة الدماء والمرة التي تجسست عليه فيها في الممر والوفيات التي وجدتها على الإنترنت، وجدت مارثا نفسها تتحدث فقط عن آلان، عن فترة مواعدتهما وعمله، وكيف كان. حتى إنها أخبرت ليلي كيف أنها، على الرغم من زواجها، لا تزال تشعر وكأنها لا تعرفُه على الإطلاق. وبأنه غريب عنها. وكانت ليلي تومئ برأسها.

- هل تفهمين قصدي؟

- تعنين هل أفهم قصدكِ عندما تقولين إن شخصًا ما غريبٌ بالنسبة لك؟

- ليس مجرد شخصٍ ما. أحيانًا أعتقد أن الجميع غرباء بالنسبة لي، وأنني حُكم عليَّ بألا أفهم أبدًا أي روح حية حقًّا.

أخذت ليلي رشفة من جعتها، وعيناها على السقف المنخفض، وقالت: «أعتقد أن هذا شعورٌ عامٌّ جدًّا. فمن يظنُّ أنه يعلم كل شيء عن شخصٍ آخر، فهو على الأغلب يخدع نفسه».

أومأت مارثا برأسها. قالت ليلي: «ما الذي تعتقدين أن زوجكِ يفعله من وراء ظهركِ؟ هل تعتقدين أنه يخونكِ؟».

- كلَّا، الأمر ليس كذلك.

أخذت مارثا نفسًا وأردفت: «أعتقد أنه قد يكون أسوأ بكثير».

***

الفصل السابع

قلت: «لماذا تعتقدين ذلك؟».

وروت لي مارثا قصتها، كيف أنها اكتشفت قبل بضعة أيامٍ بقعةَ دماءٍ على ظهر أحد قمصانه بعد عودته من رحلة إلى دنفر، وكيف أنها راجعت آخر القصص الإخبارية ووجدت تقريرًا حول اعتداءٍ لم يُحل حدث في أثناء رحلته. ثم تحدثت لبعض الوقت عن التجسُّس عليه من نافذة غرفة نومها ذات ليلة عندما عاد من إحدى رحلاته، وكيف شعرت كما لو كان يتدرَّب على ابتسامته، ويحول نفسه إلى شخصٍ مختلف عند عودته إلى المنزل. بدت مُحرجة بشأن تلك الحادثة بالذات، كما لو كانت تتخيل أشياء، وأخبرتها أن الأمر يبدو مريبًا بعض الشيء على الأقل. وأخيرًا أخبرتني كيف أنها عادت واكتشفت ما مجموعه خمس جرائم قتل لم تُحل، جميع الضحايا نساء، وجميعهن شابات، وجميعها وقعت في مدن زارها آلان للعمل. قالت مارثا: «هل أنا مجنونة لأفكر على هذا النحو؟».

قلتُ وأنا أتساءل إن كانت مجنونة لتفكيرها في الزواج من هذا الرجل تحديدًا: «إن تفكيركِ على هذا النحو حتمًا لا يجعل منكِ مجنونة. ولكن مجرد تفكيركِ في الأمر لا يجعله حقيقة. لماذا جئتِ إليَّ أنا بالذات؟».

- لا أعرف. في البداية، اعتقدت أن أمامي خياران. يمكنني أن أذهب مباشرةً إلى آلان وأخبره بما اكتشفتُه لأرى ما سيقوله. ولكن إن كان حقًّا هذا النوع من... الوحوش أو ما شابه... فسيكون من

الغباء على الأرجح أن أفعل ذلك. وإذا كان كلُّ هذا مجردَ مصادفة غريبةٍ فحسب، فكيف سيشعره اتهامِي له؟ أعني، كيف يمكنه أن يثق بي مَرةً أخرى، وهو يعلم ما كنتُ أشكُّ فيه؟ أظنُّ أن هذا سيُدَمِّرُ زواجنا. وليس هذا ما أريده.

- آها.

- الخيار الآخر، كما أعتقد، هو الذهاب مباشرةً إلى الشرطة. لكنها المشكلة نفسها. إذا أخذوا شكوكي على محمل الجدِّ، وإذا استجوبوا آلان، فسيعلم أنني أنا من أبلغت عنه. وفي كلتا الحالتين، سيكون الأمر قد انتهى. أقصد زواجَنا.

- وأنتِ لا تريدين أن تؤذي زواجكِ؟

- ليس إذا كان آلان بريئًا، لا. أعلم أنني قلت كل تلك الأشياء عن كونه غريبًا، لكن ذلك لا يعني أنني لا أحبه. فأنا أحبه. وأعتقد أن حياتي أفضل بوجوده. بصراحة، أعتقد أنني هنا معكِ فقط على أمل أن تقولي إنني أتصرف بسخافة وإنني يجب أن أنسى الأمر برُمته.

كانت قد أنهت جعتها الجينيس، مخلفةً القليل من رغوتها عند زاوية فمها. واستطردت: «لقد فكرت بكِ كثيرًا على مرِّ الأعوام يا ليلي. ذلك الشيء مع إيثان سالتز كان فظيعًا جدًّا وأشعر أنكِ أنقذتني. أتساءل أحيانًا ما الذي كان سيحل بي لو بقيتُ معه. لقد فكرت بكِ باعتباركِ شخصًا ساعدني من قبل في موقفٍ سيئ، ثم فكرت بكِ أيضًا لأن أحد المؤتمرات التي حضرها آلان كان في جامعة شيبوج. هذا قريب من مكان إقامتكِ، أليس كذلك؟».

- البلدة نفسها. حيث التقتْ والدتي والدي.

- لذا، أصبحتِ عندئذ خياري الثالث. أستطيع أن أقول لكِ ما فكرت به وآخذ رأيكِ. وفي هذه المرحلة، مهما طلبتِ مني أن أفعل، سأفعله. لا أشعر أنني أستطيع اتخاذ هذا القرار بمفردي الآن.

- فهمت. لقد فعلتِ الشيء الصحيح.

راقبتُها وهي تلتقط أول نفسٍ عميقٍ حقيقي منذ أن جلسنا مقابل بعضنا بعضًا.

- أخبريني المزيد عن المؤتمر الذي عقد في شيبوج. هل وقعت هناك أي وفيات؟

كانت لدى مارثا حقيبة يد كبيرة بجانبها، فأخرجت منها مفكرة وقالت: «لقد صنفت كل ما وجدته مثل أمينة مكتبة جيدة. وكدتُ لا أدرج ما حدث في شيبوج لأنها كانت حادثةً شاذّة بعض الشيء».

- كيف؟

كانت تُقلب في مفكرتها حتى وصلت إلى الصفحة المنشودة. وقالت: «من بين الحوادث الخمس، وسأخبركِ عنها جميعًا، كانت هذه هي الوحيدة التي تُوفي فيها شخصٌ حضر المؤتمر فعليًّا».

- وما كان ذلك المؤتمر؟

- كان مؤتمرًا فنيًّا لمعلمي الفنون من المرحلة الابتدائية وحتى الثانوية، وكانت جوزي نيكسون معلمة فنون في المرحلة الإعدادية من شمال ولاية نيويورك. لقد قفزت من إحدى شرفات المهجع.

- أوه، أتذكر ذلك. لقد كان ذلك في الصيف الماضي مباشرةً. سمعت عنها من والدتي التي اعتادت أن تخبرني عن كل حدث مأساوي يحدث محليًّا. وكعادتها تستهل النبأ بقول شيءٍ على غرار: «هل

يمكنكِ تصديق ذلك؟» بينما تنظر إلى هاتفها، ربما على افتراض أنني أنظر إلى هاتفها كذلك.

- صحيح، وقد صُنفت على أنها حادثة انتحار، لذا، من الناحية العملية، فهي ليست جريمة قتل لم تُحل.

- ولكن، ربما كانت جريمة قتل.

- كل ما أعرفه أن الحادثة قد وقعت عندما كان زوجي هناك. وأيضًا، كان ذلك هو المؤتمر الذي عاد منه عندما رأيته من النافذة، حين كان...

- صحيح. بالتأكيد يمكنني التحقُّق من الأمر، إذا أردتِ ذلك. ولكن لا تطلقي العنان لآمالك. أعرف بعض الأشخاص في شيبوج، لكني أشك في أنهم يعلمون شيئًا لم يُنشر في الصحف. ولكن، ربما قد أكتشف شيئًا. هل هذا ما تريدينني أن أفعله؟ أن أساعدكِ؟

- أظنُّ ذلك. لا أدري حقًّا. لقد اعتقد جزءٌ مني للحظة أن بإمكاني أن أخبركِ بما اكتشفته وبأنكِ ستخبرينني بما تعتقدين أن عليَّ فعله.

- أظن أنه سيسرني القيام بذلك، بَيد أنني أظن كذلك أنك لا تملكين معلوماتٍ كافية بعد. فكما قلتِ، إن اتهمتِ زوجكِ بهذا واتضح أنه ليس له علاقة بالأمر، فعلى الأرجح سيدمر ذلك زواجكِ. وأنتِ قلتِ إن هذا لم يكن شيئًا تريدين القيام به.

كانت مارثا تومئ برأسها.

- أين زوجكِ الآن؟

- إنه في نورث كارولينا. مؤتمر رياضيات آخر.

- هل أنتِ قلقة من أنه قد...

- قطعًا أنا قلقة. بل إنني مرتعبة. إذا عاد واكتشفتُ أن امرأةً ما قد تعرضت للاعتداء أو القتل هناك، فعندئذٍ سيكون هذا ذنبي أنا. إذ كان بإمكاني أن أفعل شيئًا حيال ذلك.

- حسنًا، لا يوجد ما يمكنكِ فعله حيال ذلك الآن. إنه هناك بالفعل. ليس الأمر كما لو أنه يمكنكِ الاتصال بمكتب التحقيقات الفيدرالي وسيعتقلونه لأنكِ وجدتِ دماء على قميصه.

قالت وهي تومئ برأسها: «حسنًا».

- متى سيعود؟

- ليلة الغد، وبعدها سيكون بالمنزل طوال الأسبوع وحتى نهاية الأسبوع القادم. وسيغادر يوم الإثنين إلى مكانٍ آخر لأسبوعٍ كامل، على ما أعتقد. في مكانٍ ما في ولاية نيويورك.

- حسنًا، إليكِ ما أعتقد أنه يجب علينا فعله. أولًا، راقبي أي قصص إخبارية من نورث كارولينا، أين هو بالضبط؟

- تشابل هيل.

- إذا حدث شيءٌ ما هناك، عندئذ أعتقد أن عليكِ الذهاب إلى الشرطة فورًا.

قالت مارثا وعيناها مثبتتان عليَّ: «أنتِ محقة».

أدركتُ أنها تريد فقط أن يُقال لها ما يجب فعله، والآن وقد شرعتُ في ذلك، كانت تحدِّق إليَّ كما يحدِّق الغريق إلى طوق النجاة.

- إذا لم يطرأ جديد، فسوف أُجري بعض تحرياتي، ليس فقط في شيبوج، بل أيضًا في الأماكن الأخرى. وسنتخذ القرار معًا. لم نصل إلى هذه النقطة بعد، ولكن ربما يمكن أن يصدر الاتهام مني، أو أن يكون من مجهول.

- لم أفكر في ذلك.

- مهمتكِ أن تلاحظي أيَّ شيءٍ مريب عند عودته، وأخبريني على الفور إذا وجدتِ شيئًا. هل يناسبكِ ذلك؟

مسحت على عينها وقالت: «أجل. إذن أنتِ لا تعتقدين أنني مجنونة؟».

- لا أعرف بعد.

قلتها بطريقةٍ اعتقدتُ أنها أوضحت أنني أمزح. وبدت علامات الخيبة على وجهها، فسرعان ما أضفتُ: «مجرَّد مزحة. كلَّا، لا أعتقد أنكِ مجنونة على الإطلاق».

- هل تعتقدين أن زوجي قاتلٌ متسلسل؟

عادت نادلتنا، وراحت تحوم على بُعد ثلاثة أقدام تقريبًا من الطاولة، وانتبهنا لها معًا في اللحظة نفسها. طلبتُ الحساب.

قالت مارثا: «أوه يا إلهي! هل تظنين أنها سمعتني؟».

- ربما اعتقدت أننا نتحدث عن برنامجٍ تلفزيونيٍّ ما. إذًا تعتقدين أن زوجكِ قاتل متسلسل؟

ضحكت مارثا قائلة: «على الأرجح. ماذا عنكِ؟».

وَزنتُ ما كنت سأقوله وأخيرًا قررت أن أقول الحقيقة: «هناك الكثير من الأدلة يا مارثا، العديد من الوفيات التي لم تُحل. أعتقد أن بقعة الدماء يمكن تفسيرها، لكن كل الاعتداءات المتماثلة في المدن التي كان فيها... لا أعلم، يبدو أن هناك الكثير من الدخان».

- لئلَّا يكون هناك نار.

- نعم. على الرغم من أنه، كما أشرتِ، هذه مدن كبرى يسافر إليها. سيكون الأمر أكثر إثارة للريبة لو مرَّت عطلة نهاية أسبوع دون وقوع جريمة قتل لم تُحل.

- شيبوج ليست مدينة كبيرة.

- إنها ليست كذلك. انظري، كل ما أقوله هو أنه ربما قد وقعت أشياء غريبة. فالعالم يعجُّ بالصُدف.

وصل الحساب وأصرت مارثا على دفعه. سمحتُ لها. وبعد أن دفعت النقود، قالت: «أوه لا. كان من المفترض أن نتناول العشاء، أليس كذلك؟ يمكننا البقاء».

- لا بأس أنا لستُ جائعة حتى بعد، وقد تحدثنا عمَّا أردتِ التحدث عنه. والآن أصبحت لدينا خطة.

خرجنا من حانة تيبسي مكستاجرز ورافقتُ مارثا إلى سيارتها. كانت الشمس منخفضة في السماء، لكنها لا تزال مضيئة بالقدر الكافي بالخارج لدرجة أن عينيَّ كانتا تتأقلمان على الضوء بعد خروجهما من الداخل الخافت من تلك الحانة الأيرلندية المُصطنعة التي خرجنا للتو منها. وعند السيارة، قالت: «إننا لم نتحدث حتى عن الوفيَّات المشبوهة الأخرى التي وجدتها».

- هل دونتِها في مفكرتكِ؟

- أجل. يمكنني أن أرسل إليكِ نسخة.

- لم لا ألتقط صورة؟

وكان هذا ما فعَلتْه. أخذت تقلب الملاحظات التي دونتها، ليس فقط أسماء وتواريخ وأماكن الضحايا المحتملين، بل أيضًا قائمة بكل رحلة عمل قام بها آلان بيرالتا منذ أن كانا معًا. التقطتُ صورًا بهاتفي الذكي، ذلك المُكتسب الجديد الذي حثتني والدتي على اقتنائه. ثم عانقنا بعضنا بعضًا، وسرتُ عائدةً إلى سيارتي، وأنا أدندن لنفسي. استغرقتُ لحظةً

لأدرك ماهية الأغنية، ثم تذكرت. «مارثا عزيزتي» لفرقة البيتلز. الدماغ آلةٌ غريبة بالفعل.

***

في تلك الليلة جلستُ مع والدي في غرفة معيشة منزل مونك بينما كان يشغل أسطواناته ويحتسي الويسكي والماء. كنت قد نزلتُ للتو من غرفتي، حيث أمضيت معظم المساء أبحث في مصرع جوزي نيكسون في حرم جامعة شيبوج. كما أجريت بعض الأبحاث حول الوفيات الأخرى التي وجدَتْها مارثا. جميعهن شابات، وجميعها جرائم لم تُحل. عندما بدأت عيناي تؤلمانني، نزلت إلى الطابق السفلي لتناوُل مشروب مع والدي.

قال بعد أن جلست مقابله: «أوه، لديَّ شيءٌ لك».

نهض واختفى، ليعود بعد بضع دقائق مع مشروبٍ كامل ونسخة مستعملة من «القصائد الكاملة» لآن سيكستون.

مكتبة ياسمين

قال: «من أجلكِ».

- أجل، أعرف. لقد طلبتُه.

- وقد فتحتها.

- هل أنت معتاد على فتح البريد الموجه إلى أشخاصٍ آخرين؟

- حسنًا، لقد كان على شكل كتاب، وأعترف أنني لم أنظر إلى الاسم الموجود على الملصق. لقد أنذر صديقي القديم إيان بيك بإرسال كتابه الجديد إليَّ وظننتُ أنه قد يكون ذلك.

التقطتُ الكتاب، وأنا أشمه قائلة: «سأغفرُ لكَ خطيئتكَ».

- شكرًا لكِ. هل أنتِ من معجبي آن سيكستون؟

- لا أعرف بعد. لقد أحضرته بناءً على ترشيح أحدهم.

- هنري كيمبل؟

- تخمينٌ صائب.

كان والدي محقًّا. لقد مر عام منذ آخر مرة رأيتُ فيها هنري، عام منذ أن طلب رأيي في قضيةٍ كان يعمل عليها، مقتنعًا بأنه وُرِّط كشاهد على جريمة. وهذا ما كان، وكاد أن يتسبب في مقتله. كانت آخر مرة رأيته فيها عندما جاء لزيارتي بعد خروجه من المستشفى، وكان محظوظًا لأنه على قيد الحياة، ومصابًا بتلفٍ بسيطٍ في الدماغ. على مدار العام المُنصرم منذ آخر لقاء جمعنا، كنَّا نتبادل الرسائل، تلك التي من النوع القديم الذي يُكتب بالورقة والقلم. وكان ذلك جزئيًّا نوعًا من التكلف، ولكنه في معظمه ضرورة. فأنا وهنري يجمعنا ماضٍ مشترك، فبعد وقتٍ قصير من لقائي به لأول مرة، طعنتُه في بطنه، خوفًا من أن يكون على وشك اكتشاف بعض أسراري. حدث ذلك في السابق حين كان ضابط شرطة وكان يشتبه في ارتكابي جريمة قتل. ومنذ ذلك الحين، أصبح محققًا خاصًّا. لم يكن أحد يعلم أننا أصدقاء سوى والديَّ.

- هو المعجب بـسيكستون إذن؟

- لقد أخبرني في خطابه الأخير كم كان مستمتعًا بإعادة قراءة قصائدها، ولذلك طلبتُ هذا الكتاب.

راقبت وجه والدي، خيالات ردوده المُحتملة وهي تتوالى عليه، إلى أن استقر أخيرًا على مقولته: «في الماضي، كنَّا ببساطة نُضاجع من نحبهم».

***

في تلك الليلة، استلقيتُ في فراشي وفكرت في مارثا ولعنة حبها، وقليلًا في آن سيكستون، إذ كان كتاب قصائدها مفتوحًا على صدري.

قبل أن أذهب إلى الفراش كنت أُلقي قصيدةً عشوائية من الكتاب بصوتٍ عالٍ على مسامع والدي. كانت السطور الأولى من القصيدة، «إننا بين شتاءٍ، وربيع، وأنا وباربرا نقف أمام المحيط».

عندما أنهيت القصيدة، قال والدي، «الطقس نوعًا ما بين شتاءٍ وربيع الآن».

- هو كذلك.
- ليس وقتي المفضل من العام.
- لا؟
- عندما كنت أصغر عمرًا لم أكن أمانع أن تنتهي الأشياء، وكنت أحب بداياتها، لكن هذه الأيام أُفضِّل منتصف الأشياء. ربما أصبحت عجوزًا فحسب.
- إذن فقد أعجبتكَ القصيدة؟
- لقد استأثرتْ باهتمامي.

في صباح اليوم التالي، قررت أن أقضي اليوم في اكتشاف ما أستطيع فعله بشأن جوزي نيكسون وانتحارها. كان مؤتمر آلان التالي بعد أسبوع تقريبًا. ممَّا منحنا بعض الوقت، ولكن ليس كثيرًا. فكما أشارت مارثا، إذا هاجم آلان امرأةً أخرى في إحدى رحلاته بينما نحن مستغرقتان في محاولة اكتشاف ما يجب فعله، حينها سنكون مسؤولتَين جزئيًّا. وفجأة راودتني رؤية للنساء الميتات اللاتي أصبحنا مسؤولتَين عنهم الآن: جوزي نيكسون، بائعة الهوى من أتلانتا، والنادلة من فورت مايرز، وموظفة الاستقبال في شيكاجو، والمدلكة في سان دييجو. كان بإمكاني تخيُّلهن واقفات في صف، يشاهدْنَني من مكانٍ آخر، وقد خلت وجوههن من أيِّ تعبيرات، ولكن أعينهن كانت تخبرني،

تخبرني أنا ومارثا، ألَّا نسمح بحدوث ذلك مرةً أخرى. قرأت أسماءهن من الصور الموجودة على هاتفي. جوزي نيكسون، كيلي بالدوين، بيانكا مورانوس، نورا جونسون، ميكائيلا ساجر. واصلن التحديق إليَّ، من خلال أعينٍ لم تكن سوى من نسج خيالي، يطرحن الأسئلة التي أظن أن الموتى يطرحونها دومًا. لماذا أنا؟ لماذا الآن؟

***

الفصل الثامن

كان آلان سيصل إلى مطار مانشستر في الخامسة، وهو ما يعني أنه سيكون في المنزل في موعدٍ لا يتجاوز السادسة والنصف مساءً. أرسلت مارثا رسالة نصيَّة لإخباره بأنها ستعدُّ العشاء تلك الليلة.

كانت تشوي دجاجة، آملةً أن تمنع تلك المهمة المألوفة عقلها من الدوران. وكانت هذه الوجبة من أطباقهما المفضلة، إذ كانت مارثا تحب الرائحة التي تضفيها على المنزل. في السابق، لقد وجدت في هذه الرائحة باعثًا على الطمأنينة، تذكيرًا بأنك في مأمنٍ بمنزلك في الوقت الحالي، وأن هناك طعامًا في الفرن، وبأن العالم في الخارج يستطيع الانتظار. لكن الآن، مع انتهاء مؤقت الفرن، بدأ الظلام يُخيم على المنزل بينما تتجمع السحب في الخارج، شعرت مارثا بإحساسٍ عميق بالخوف، تجلَّى في شكل عقدةٍ صلبة في منتصف صدرها. كان اعتقادها أن زوجها وحش يفترس النساء شيئًا، وتصريحها بذلك علانية شيئًا آخر، الآن وقد أخبرت ليلي عنه، وأطلقت العنان للأحداث. والآن كل ما كان بوسعها أن تفكر فيه هو أنه عندما سيدخل من الباب الأمامي سيُلقي نظرة واحدة على وجهها ويعرف بالضبط ما حدث.

ولكن عندما دخل أخيرًا من الباب، مبللًا بالمطر، ترك حقيبته في الرُّدهة، وعبر غرفة المعيشة بسرعة نحو المطبخ المفتوح، وقبَّل مارثا، وسألها إذا كان لديه وقتٌ لحمامٍ ساخن.

قالت: «بالطبع»، وهي في انتظار أن ينظر إليها حقًّا ويعرف ما حدث. منتظرة أن يرى تلك العقدة النابضة في منتصف صدرها أو يديها المرتجفتَين.

لكن كل ما قاله كان: «الرائحة مذهلةٌ هنا. سأعود حالًا».

وبينما كان يغتسل، احتست مارثا كأسًا ثالثة من النبيذ. لم يمنحها ذلك الشعور بالاسترخاء، بل جعل الغرفة تتلألأ بضوءٍ غير طبيعي. لذا، أجبرت نفسها على تناوُل قطعتَين من خبز الباجيت الطري الذي ابتاعته، ودهنت عليه جُبْن الكامامبير. لم تكن جائعة، لكن عملية المضغ والبلع هدأتها قليلًا. أخرجت الدجاجة من الفرن، وفحصت حبات البطاطس الحمراء الصغيرة -كانت لا تزال بحاجة إلى وقت- وأضافت شريحة الهليون حيث كان الدجاج. كانت نظارتها قد غشتها طبقة من البخار، فاضطرت إلى خلعها للحظة. لم يكن آلان يعلم ماذا فعلت صباح ذلك اليوم. حتى لو كان وحشًا، فهو لم يكن شخصًا يمكنه سبر أغوار النفس البشرية لقراءة أفكارها الخفية. تمامًا كما لم تكن تستطيع قراءة أفكاره. أخذت رشفة من النبيذ ثم توجهت إلى نظام الاستيريو الخاص بهما، شغَّلته وأقرنته بهاتفها، ثم اختارت مزيجًا يُدعى (موسيقى جاز وقت العشاء) «Dinnertime Jazz».

قال آلان وهو يتسلل خلفها في المطبخ: «أوه، رومانسي».

قفزت، مصدرة واحدًا من تلك الأصوات الغريبة التي تصدر عنها عندما تكون مذعورة. ضحك آلان بقوة، ضحكةً من ضحكاته الصاخبة التي تليق بحفلات الكوكتيل، ثم اعتذر.

- آسفة. أشعر بالقلق لسببٍ ما، ربما كان الطقس.

- عندما كنَّا نحلق بالطائرة، استطعنا رؤية البرق على طول الساحل. أعتقد أن المرأة التي كانت تجلس بجواري كانت تتلو صلاتها.

- كيف كان المؤتمر؟

- سأخبركِ كل شيءٍ عن ذلك غدًا. لكنه سار على ما يرام. هل يمكنني المساعدة في تحضير العشاء؟

أخرجت مارثا البطاطس والهليون من الفرن بينما قطع آلان الدجاج. ثم أحضرا كل شيءٍ إلى الطاولة وشرعا في تناول الطعام.

عندما انتهى من الطعام في طبقه، اتكأ آلان إلى الخلف وقال: «هل فكرتِ مليًّا في رحلةٍ إلى إنجلترا هذا الصيف؟».

- أجل فعلتُ. تبدو مثالية.

راودت مخيلة مارثا صورةٌ، تظهر فيها هي وآلان يجلسان في حانة ريفية، بينما المروج تلوح من بعيد. فجأة اشتاقت إلى أن تكون هناك، ليست لأنها ستكون رحلة جميلة، ولكن لأنهما إذا كانا هناك معًا فهذا يعني أن زوجها بريء، وأن الكابوس الذي كانت تعيشه سيصل إلى نهاية حميدة.

قال آلان: «هل أنتِ بخير؟».

- أوه، آسفة. بدأت أحلم برحلتنا منذ الآن. أعتقد أنه سيكون أمرًا رائعًا. لقد قلتَ إنكَ فكرت في أسبوعٍ محتمل بالفعل؟

- في وقتٍ ما من أغسطس. دعينا نتحدث عن ذلك غدًا. كل ما لديَّ طاقة له ربما مشاهدة التلفاز ثم سأذهب مباشرة إلى الفراش.

اجتاحتها موجةٌ صغيرة من الارتياح لأنه لم يبدِ رغبته في مضاجعتها. كان يفعل ذلك غالبًا عندما يعود من إحدى رحلاته، لكنه عادة ما يخبرها بأنه في مزاج جيد أولًا. في بعض الأحيان كان يفعل ذلك مازحًا، إذ يقول شيئًا من قبيل: «هل ننهي الليلة باكرًا؟» بينما يرفع ويخفض حاجبيه، لكنه في بعض الأحيان يصبح أكثر مباشرةً بعض الشيء، إذ يندفع

نحوها بينما تغسل الأطباق، ويمرِّر يده للأسفل بين ساقيها. وكما كان يخبرها دائمًا مسبقًا إذا أراد مضاجعتها، فإنه عادةً ما يخبرها إذا لم يكن يريد ذلك، قائلًا شيئًا مثل ما قاله للتو عن كونه متعبًا للغاية، أو أنه يمكنه النوم لمدة أسبوع إذا أتيحت له فرصة.

وبعد أن انتهت من غسل الأطباق وكانا يشاهدان «برنامج الخبز البريطاني العظيم» (The Great British Baking Show) معًا، بدأت تتساءل إذا كانت هناك صلة ما بين ما حدث في الرحلة ورغبته في مضاجعتها من عدمها حين يعود. ربما كان إرهاقه يعني أنه وجد امرأة وقتلها في تشابل هيل. حلَّق طعم الثوم المشوي في مؤخرة حلق مارثا، وظنت للحظة أنها ستتقيأ. أخذت نفسًا عميقًا وهادئًا. ربما كان العكس تمامًا. ربما حين يعود زوجها إلى المنزل، ويتحسس جسدها، وهو يتحرَّق شوقًا لإدخالها إلى غرفة النوم وتجريدها من ملابسها، يكون ذلك لأنه قتل امرأةً قبل ساعات فقط. ربما كان بمنزلة احتفال بالنسبة له.

قال آلان: «هل أنتِ بخير هناك؟».

قالت مارثا متسائلةً عمَّا جعله يسأل: «أوه، أنا بخير. القليل من الارتجاع، لأكون صادقة».

- تناولي شيئًا ما.

- حسنًا، سأفعل.

لكنها ظلت جالسة بينما كان بول هوليوود يُحلل بعض البسكويت غير المخبوز جيدًا. تساءلت كيف ستجتاز ما تبقَّى من الليل، ناهيك بالأيام القليلة القادمة.

عندما انتهت الحلقة، قال آلان إنه ذاهب إلى الفراش، بينما قالت مارثا أنها قد تبقى مستيقظة وتشاهد المزيد من التلفاز. قبل أن يغادر الغرفة

مباشرة، استدار وسألها: «هل أنتِ متأكدة من أنكِ بخير؟ تبدين متوترةً بعض الشيء هذه الليلة».

- إنها فقط دورتي الشهرية، على ما أعتقد.

على الرغم من أنها قد أتتها قبل أقل من أسبوعَين.

قال آلان لنفسه تقريبًا، قبل أن يغادر غرفة التلفاز: «مشكلاتٌ نسائية».

وبعد ساعة، دلفت مارثا إلى غرفة نومهما لتسمع آلان يشخر في وسادته. أغلقت باب غرفة النوم وعادت إلى غرفة المعيشة المظلمة في الطابق السفلي، وفتحتْ حاسوبها النقال، وقالت لنفسها إنها ستتفقد سريعًا أخبار ولاية كارولينا الشمالية لمعرفة ما إذا كان أيُّ شيءٍ قد حدث خلال عطلة نهاية الأسبوع. جلست على حافة كرسي مكتبها، وكتبت في البحث «تشابل هيل»، ممَّا قادها إلى الصحيفة المحلية، «نيوز آند أوبزرفر» (News & Observer). فحصت قسم الأخبار، وشعرت بالارتياح لأن القصة الرئيسية كانت على ما يبدو أن فريقًا من رجال الإطفاء أنقذوا هِرَّة من سطح مبنى سكني. وعلى حدِّ علمها، لم تكن هناك جرائم قتل أو جرائم عنف حديثة. ومع ذلك، بحثت باستخدام كلمات «تشابل هيل» و «غير محلولة». كانت هناك العديد من النتائج، ولكن لا شيء حديث. حذفت سجل تصفُّحها، وأغلقت حاسوبها النقال، وأخذت أول نفسٍ عميق تتنفسه تلك الليلة.

***

عملت مارثا في اليوم التالي في المكتبة، وأخذت الساعات تمرُّ بطريقة تشبه الحلم، كما لو كان كلُّ شيء يتحرك بوتيرة أبطأ قليلًا. كانت تعمل يوميًّا خلال ذلك الأسبوع. وكان آلان في المنزل في واحدة

من عطلاته المنزلية. إذ لم يكن لديه مؤتمر خلال عطلة نهاية الأسبوع التالية، وقد تحدثا عن الذهاب إلى مكانٍ ما، ربما إلى نزل يروق لهما في جلوسستر، في كيب آن.

قالت لها ماري وهي تسير بجوار مكتب المَراجِع: «هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟».

لا بدَّ أن مارثا كانت تحدق إلى الفضاء.

قالت: «إذا سألني شخصٌ آخر ذلك مرةً أخرى»، ثم رأت نظرة الخجل على وجه ماري واعتذرت على الفور، قائلة: «أوه، آسفة، ماري. أنا بخير حقًّا».

- كنتُ آمل فقط ألَّا تكوني قد أُصبتِ بتلك الإنفلونزا المتفشية. لقد أُصيبت بها مارجي وقالت إن حلقها كان يُشعرها كأنها ابتلعت دبابيس ضغط.

- كلَّا، أنا بخير. لا يوجد شيء على الأرجح.

لكن في تلك الليلة أخبرت آلان أنها تظن أنها ربما أصيبت بشيءٍ ما، وأنها تشعر بالحرارة وحلقها يؤلمها.

- وأتتكِ دورتك الشهرية.

استغرقت هُنَيْهة لتتذكر أنها كذبت عليه بهذا الشأن في اليوم السابق. وقالت: «حين تسقط من البلايا قطرة...».

استقرَّت في غرفة الضيوف، تقرأ كتابها وتتناول البسكويت المملح وجعة الزنجبيل على العشاء، وقررت أنه على الرغم من أنها لم تكن مريضة فإنها تستطيع على الأرجح تناول تلك الوجبة تحديدًا بكل سرورٍ في أيِّ وقت من اليوم. وفي تمام العاشرة مساءً ظهر آلان فجأة في

الغرفة ليتمنى لها ليلة سعيدة. وهو يقف في إطار الباب. قال: «اسمعي، هل يمكنني أن أسألكِ شيئًا غريبًا؟».

قالت، وقد أقلقتها النبرة الجادة في صوته: «حسنًا».

- لا تفزعي لسؤالي هذا، لكن هل تقيمين علاقةً عاطفية؟

نظرت إليه لخمس ثوانٍ محاولةً أن تعالج الكلمات ورأت أن الدماء قد فرَّت من وجهه، وتصلَّب فكُّه من القلق. فقالت: «ماذا؟ لا، بالطبع لا. لماذا تسأل؟».

- إنه مجرد... شعور على ما أعتقد. لقد كنتِ بعيدة بعض الشيء مؤخرًا، كما أنني أغيب لفتراتٍ طويلة. وهناك شيءٌ آخر، لكن لا أعرف إن كنتُ أرغب في قوله. فسيجعلني أبدو مجنونًا.

- ما هو؟ الآن أنت تفزعني قليلًا.

- إذن، لقد بدوتِ بعيدة جدًّا بالأمس، وكنتِ نوعًا ما غامضة بشأن ما فعلتِه في عطلة نهاية الأسبوع، لذا فبينما كنتِ تغتسلين... ذهبت وتفقدتُ عداد مسافاتك. في سيارتك.

- آسفة. فعلتَ ماذا؟

- تفقدتُ عداد مسافاتك. ورأيتُ أنكِ أضفت زهاء مئتَي ميل إليه منذ آخر مرة تفقدتُه.

- منذ آخر مرة تفقدته؟ من فضلك فسر لي ذلك.

- لا أفهم سؤالكِ.

- لماذا تعرف مقياس عداد مسافاتي؟

- إنني دائمًا ما أعرف ذلك، تمامًا كما أعرف بالضبط مقدار الأموال الموجودة في حساباتنا الجارية، والمدة التي مرَّت منذ أن قمنا بتغيير فلتر المياه في الثلاجة، وأرقام المبيعات الدقيقة لجميع

البضائع الخاصة بي. إنها طريقة تفكيري فحسب. أين ذهبتِ يا مارثا؟

كان خطابه القصير طويلًا بما يكفي لتقرِّر مارثا ما ستقول.

- لقد تناولتُ الغداء مع صديقة في ورسستر. اسمها ليلي كينتنر وتعيش في كونيتيكت، لذا التقينا في مُنتصف الطريق هناك.

- لم تذكريها من قبل.

- بصراحة، نحن لسنا قريبتين إلى هذا الحد. لقد التحقنا بكلية الدراسات العليا معًا، ثم فقدنا الاتصال، لكنها تواصلت معي وتحدثنا عبر الهاتف وقررنا أن نلتقي في اللحظة الأخيرة. لقد ذهبنا إلى هذه الحانة الأيرلندية الفظيعة التي لن تصدقها...

جذب شحمة أذنه، وقال: «لا أفهم لماذا لم تخبرينني عن ذلك».

- أعتقد أنني كنت لأفعل. أعني، لم أتخذ قرارًا بعدم إخبارك. الأمر هو، أننا قُدنا كلَّ هذه المسافة لنلتقي، ثم نفدت منَّا مواضيع الحديث بشكلٍ أساسي تقريبًا في منتصف مشروبنا الأول. لقد كان الأمر محبطًا. تعرف كيف تحدثت معك من قبل عن عدم امتلاكي أيِّ أصدقاء حميمين حقيقيين، وعن شعوري السيئ تجاه ذلك؟

أومأ آلان برأسه.

- حسنًا، أعتقد أن جزءًا مني كان يأمل أن نتمكن أنا وليلي من إحياء صداقتنا، لكن ذلك لم يحدث ببساطة. وأشعرني الأمر وكأنه خطئي، وكأنني أنا مَن يعاني عدمَ القُدرة على التقرُّب من الآخرين. أعتقد أن هذا هو السبب في أنني لم أتطرق إلى الموضوع.

مسحت مارثا عينيها، وتفاجأت بوجود دموعٍ حقيقيَّة هناك. لقد كانت تكذب، لكنها لم تكن تكذب فيما يتعلق بشعورها تجاه نفسها فيما

يخصُّ الأصدقاء. جاء آلان وجلس على حافة الفراش، ووضع يده على ساقها.

- أنا لا أخونكَ يا آلان، أعدك. لن أفعل ذلك أبدًا مهما حدث.

استمرَّت الدموع بالانهمار.

- أعرف. أعلم ذلك.

بدت الكلمات مريحة، لكن فكه كان لا يزال متصلبًا، وكانت شحمة الأذن التي أخذ يجذبها منذ لحظة حمراء قانية.

- ماذا عنك؟ أنت دائمًا ما تسافر. هل سبق وشعرتَ بالإغراء؟

- إغراء للقيام بماذا؟ لخيانتكِ؟

- أجل. أعني، أنا لا أتهمكَ، ولكن...

استقرَّت عينا آلان على الحائط العاري خلف الفراش. وأخيرًا قال: «ما هو السبب المحتمل الذي قد يدفعني إلى خيانتكِ؟».

***

الفصل التاسع

بعد أن اتخذ والدي مقعده على مائدة الإفطار، وبينما كانت والدتي لا تزال عند المَجلى، سألتُ كليهما عن الأشخاص الذين لا يزالون على تواصلٍ معهم من جامعة شيبوج.

قال ديفيد، الذي يفضل ألَّا يتحدث قبل أن يتناول بيض فطوره الصباحي: «لا أحد».

قالت شارون: «هذا غير صحيح يا ديفيد. أنت تعرف جيري سيفيرن».

- أنا أعرف جيري سيفيرن.

- ومن يكون هذا؟

قالت والدتي: «جيري هو رئيس قسم اللغة الإنجليزية، أو كان كذلك قبل فترة قصيرة. لا بدَّ أنه الآن يبلغ سبعين عامًا على الأقل. لقد كان هو الرجل الذي دعا والدكِ للحضور ليكون كاتبًا مقيمًا. لولاه يا ليلي، لما ولدتِ أبدًا».

- ماذا عنكِ يا أمي، من لا تزالين تعرفينه؟

- في شيبوج؟ كاري مايكلسون، بالطبع، ومارك لوميس. لماذا تسألين عن هذا؟

- مَن تعرفين ممن يحبون الثرثرة؟

قلت، مدركة أن معظم أهل الجامعة يميلون بطبيعتهم للكلام خلف ظهور زملائهم، لكن ما أردته حقًّا هو شخصٌ لديه أفكار، وربما حتى آراء حول وفاة جوزي نيكسون.

- الثرثرة؟

- لديَّ صديقة مهتمة بالتقدم لوظيفة هناك، لكنها تريد معرفة كل شيءٍ عن المكان. كما تعلمين، أشياء مثل: ما مقدار المشاحنات الداخلية؟ وما هي الأقسام التي يجب تجنُّبها؟

قالت شارون: «أوه، دعيني أفكر». بينما أخذ والدي يزيل بحذر القشر عن البيض المسلوق. واستطردت: «حسنًا، أكبر ثرثارة في شيبوج كانت باتي رايلي -تتذكرينها، أليس كذلك يا ليل؟- لكن ذلك كان منذ زمن بعيد».

قال والدي فجأة: «جرِّبي ليبي ما اسمها، لقد كانت تدرس في قسم اللغة الإنجليزية».

قالت شارون: «لقد رحلت منذ زمن بعيد».

قال ديفيد: «ماذا، ماتت؟ لا أعتقد هذا. لقد رأيتها منذ أسبوعَين في متجر الكتب أعني، قد تكون كذلك، لكنها ستكون قد فارقت الحياة حديثًا».

- لا، أعني أنها رحلت منذ فترة طويلة من شيبوج. إنها في مثل عمرك.

- كل ما أعرفه هو أنني صادفتها في متجر الكتب ودون أن أسألها حتى بدأت تخبرني بكلِّ شيءٍ حدث لكل شخص عرفناه في شيبوج والآن سوف أتوقف عن الكلام لفترة وأركز على إفطاري.

لاحقًا، بعد أن ذهب والدي إلى مكتبه في الصباح، تبعتُه وسألتُه عن ليبي، قال ديفيد: «إنها لن تساعد صديقتكِ على الإطلاق. فمعظم النميمة التي كانت لديها تتعلق بمَن مات ومن لا يزال على قيد الحياة. ثرثرة شخصٍ مُسن».

- في الواقع أريد أن أعرف شيئًا آخر.

قال ديفيد، وهو يرفع حاجبيه الأشعثَين قليلًا: «أوه».

- لقد وقعت حادثة انتحارٍ في الحرم الجامعي الصيف الماضي. كان ذلك خلال مؤتمر تدريب المعلمين وقد وثَبتْ إحدى المشاركات من مَهجع ميلنر.

- نعم، سمعت عن ذلك. هل تعلمين أن أرنولد ميلنر، الذي تبرع بالمال لهذه القباحة، كان متحرشًا بالأطفال؟

- لم أكن أعلم ذلك.

- كان كذلك.

- هل تعتقد أن لهذا علاقة بقفز المشاركة في المؤتمر من مبناه؟

قلتُ ذلك على سبيل المزاح، لكن والدي فكر للحظة وقال: «هناك أشياء أكثر في السماء والأرض يا ليل أعجب ممَّا يمكنكِ تصوره».

- نعم، على ما أعتقد. انظر، كل ما أحاول معرفته هو ما إذا كان الأمر انتحارًا واضحًا أو إذا كان هناك شيءٌ مريبٌ يحدث.

- حسنًا، على الأرجح ستكون ليبي هي المرأة المنشودة لتلك المهمة. أعتقد أن اسمها الأخير هو فروست.

- لا أفترض أن لديكِ معلومات اتصالٍ بها؟

قلت، وأنا لست متأكدة حقًّا من سبب سؤالي. فلم يكن والدي يمتلك هاتفًا، وربما لم يكن يعرف ما تعنيه حتى عبارة «معلومات اتصال».

لكنه فكَّر للحظة، ثم قال: «إنها على الأرجح في ستونز ثرو كل صباح. لديهم مقهى هناك الآن، كما تعرفين».

ستونز ثرو هو اسم متجر كتب المدينة المستقل، يديره ستانلي بيريني، وهو أحد سكان شيبوج المقيمين فيها منذ فترة طويلة. لقد كان أحد الأماكن القليلة التي يوافق والدي على الذهاب إليها، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أنه كان يحب ستانلي، وجزئيًّا لأنه كان هناك رفٌّ كامل مخصص لكتب ديفيد كينتنر في المتجر.

- متى كنتَ هناك ورأيت ليبي؟

- أراها كلما ذهبتُ إلى هناك، لكني تحدثت معها منذ بضعة أسابيع. كان ذلك ذات صباح لم تكوني موجودة به، وقد أوصلتني والدتكِ إلى هناك في طريقها لجلسات إعادة تأهيل وركها.

كان مركز بلدتنا يبعد تقريبًا ميلين عن منزل مونك عن طريق البر، وما يقرب من ميل ونصف إذا مشيتُ عبر غابة بريجهام ثم عبرت مزرعة كين القديمة. ارتديتُ حذائي ذا الرقبة العالية وانطلقت عبر الغابة، ووصلت إلى متجر الكتب بعد خمس دقائق تقريبًا من تحوُّل المطر الصباحي إلى سيول غزيرة. وقفتُ عند المدخل مباشرة وقطرتُ لبضع لحظات. كانت منطقة المقهى على اليمين، توجد بها منضدة للطلبات تقدم مشروبات ساخنة ومخبوزات، بالإضافة إلى خمس طاولات صغيرة تقريبًا، ثلاث منها مشغولة. بالكاد تذكرت كيف كانت تبدو ليبي فروست، على الرغم من أنها كانت واحدة من زميلات والدي في العمل خلال الأعوام التي قضاها في الجامعة، ولكن من حيث كنت أقف كان بإمكاني سماع صوت امرأة متهدِّج قليلًا وعرفت على الفور أنها ليبي. كانت ضئيلة الحجم، وشعرُها مصففٌ إلى الخلف على شكل ذيل حصان

رمادي، وفمها محاط بالتجاعيد الصغيرة التي يعانيها المُدخنون منذ فترة طويلة، لكن صوتها كان لا يُنسى.

اتجهتُ إلى الطاولة الخالية الأقرب إليها وألقيتُ معطفي المُبلل على الكرسي، ثم أخذتُ شايًا ساخنًا من المراهق خلف المنضدة وجلستُ في مقعدي. كانت ليبي لا تزال تتحدث. وكانت جالسة إلى طاولتها، وأمامها كرواسون مقضوم، بينما كانت المرأة التي تتحدث إليها واقفة، مرتديةً معطفها، وتحمل في يدها حقيبة بلاستيكية من ستونز ثرو. أدركتُ من وضعية المرأة أنها تنتمي إلى شخص يبحثُ عن فرصةٍ لإقحام بضع كلمات لتشير إلى ضرورة رحيلها. بالتأكيد، بعد أن أنهت ليبي قصة عن جارتها التي حولت مرأبها إلى نوع من إيجارات إيربنب Airbnb، قالت المرأة ذات المعطف: «ليب، عليَّ الذهاب. سكرافي عند الطبيب البيطري».

قالت ليبي: «هيَّا، اذهبي».

أزلت الغطاء البلاستيكي عن الشاي ونفخت فيه. كنت أفكر في كيفية تقديم نفسي إلى ليبي فروست عندما فوجئتُ بها تقول: «أنا أعرفكِ. أنتِ ابنة ديفيد كينتنر».

استدرتُ قائلة: «أُقرُّ، وأعترف».

قالت وهي تزيل فتات الكرواسون عن مقدمة سترتها الأرجوانية: «لن تتذكريني، لكن ديفيد وأنا كنَّا نُدرِّس في القسم نفسه في عصور ما قبل التاريخ».

قلتُ لها: «أنتِ ليبي فروست»، فأضاءت عيناها.

- أوه، فتاةٌ ذكية. أنا هي. كيف حال والدكِ؟ أتعلمين، لقد رأيتُه هنا منذ وقت ليس ببعيد، وأخبرني أنه تأخر عن جلسة العلاج بالهرمُونات البديلة...

نظرت إليَّ مستفهمة. فقلت: «لقد كان يمازحكِ».

- أجل، لقد توقعت ذلك. لطالما كان والدكِ رجلًا مشاغبًا.

سألتها إذا كان بإمكاني الانضمام إليها على طاولتها، لأنني أرغب في الاقتراب منها فقط حتى تتمكن من التحدث بهدوء أكبر. قالت إنها متحمسة لرفقتي، وأمضت عشرين دقيقة في تذكر بعض الأشياء التي كان والدي يفعلها خلال الأعوام التي كان فيها أستاذًا مساعدًا. معظم ما قالته لي لم يكن ضارًّا؛ اجتماعات القسم التي كان ينام خلالها، والوقت الذي كان يُلقي فيه قراءة من كتاب جديد وهو ثمل، كل ذلك بينما كان يقلد صوت رئيس القسم آنذاك بشكلٍ مثالي.

قالت ليبي بنظرةٍ شاردة في عينيها: «لا أحد يستطيع اليوم الإفلات بما أفلت به، أقول لكِ ذلك». وتساءلتُ إذا كانت قد ضاجعتْ والدي. كان من الصعب تخيُّل ذلك بالنظر إليها الآن، لكن والدي، وكذلك والدتي، جعلا من الخيانة الزوجية رياضة يمارسانها كثيرًا عندما كانا متزوجين.

قلت: «هل تعلمين، كنت أفكر بكِ في ذلك اليوم».

- أوه حقًّا؟

- لقد التقيتُ ذلك الرجل -إنه زوج إحدى أعز صديقاتي- وقد أخبرني بأنه قد أمضى أسبوعًا في شيبوج في الصيف الماضي من أجل مؤتمرٍ ما لتدريب المعلمين. ألستِ معتادة على تنظيم البرامج الصيفية؟

- كلَّا، أنتِ تقصدين ديان هودر، على الأرجح. فعندما كنت في شيبوج، كنت أنا وزوجي نستأجر المنزل نفسه في توسكانا كل صيف. إذ لم يكن بوسعهم أن يدفعوا لي مقابل الإقامة هنا في كونيتيكت خلال أشهر الصيف.

- صحيح، ديان هودر. لم أفكر بها منذ أعوام.

- هل كان زوج صديقتكِ في مؤتمر معلمي الفنون؟

- على الأرجح.

- لا بدَّ أنك سمعت عنه، ولكن كان ذلك هو المؤتمر الذي قفزت فيه إحدى المشاركات من ميلنر.

- أجل أعرف. لهذا السبب كنَّا نتحدث عنه. لقد قال إنه كان أمرًا فظيعًا.

- أوه، أنا واثقة من ذلك. يا للفتاة المسكينة.

قلتُ وأنا أقترب منها، على أمل أن أدعوها لتخبرني بأيٍّ تفاصيل مثيرة قد تكون في جُعبتها: «ماذا تعرفين عنه؟».

- هل تعرفين من عثر عليها... أعني، عثر على جثة الفتاة؟ لقد كان جيم بريسكوت، الذي خرج للجري في وقتٍ مُبكر. سمعت أنها كانت عارية. هل يمكنكِ تصور ذلك؟

لم أكن أعرف من هو جيم بريسكوت، لكنني قلتُ: «يا إلهي، جيم المسكين. لماذا قفزت، هل يعلم أحد؟».

- كان هناك تحقيق كامل في جريمة قتل، بحسب ما سمعته. لم تترك رسالة انتحار، لذا أعتقد أنه كان عليهم أن يتساءلوا إن كانت قد أُلقِيت من تلك الشرفة. أقول إن عليهم هدم تلك الوحشية بأكملها. من يضع شرفات في مَهاجع الطلاب بادئ ذي بدء؟ وأرنولد ميلنر كان منحرفًا، كما تعلمين.

- أجل، أعلم هذا.

- لكنهم لا يستطيعون إزالة اسمه لأنه لم يُدَن قط. لذا أقول فقط دمِّر ذلك المَهجع بأكمله وتخلص منه.

- لا أعتقد أن هناك من سيتذمر.

- بل سيقيمون احتفالًا.

تناولتُ رشفةً من شايي البارد، وقلتُ: «من كانت المرأة التي قفزت، هل كانت من هنا؟».

- كلَّا، لقد كانت من الحضور. جوزي شيءٌ ما. لقد كانت معلمة فنون من وودستوك.

- وهل قررت الشرطة أنه كان انتحارًا، في النهاية؟

- مما سمعته تقرر في النهاية أنه انتحار. لكنني سمعت أيضًا أنه حكم بذلك فقط لأنهم لم يتمكنوا من العثور على أيِّ دليلٍ قوي على وجود حادثة مُدبرة. يعتقدُ بعض الناس أنها أُلقيت. أعلم أن زوجها أثار ضجةً كبيرة حيال ذلك. لقد جاء إلى هنا، وأصرَّ على أنها لم تقتل نفسها قط، وأن قاتلًا ما قد أفلت بفعلته وهو الآن طليق.

- مفهوم.

- صحيح، لكن ما سمعته، ولم تكن هذه معلوماتٌ عامة على الإطلاق، هو أن تلك الفتاة كانت تبحث عن رفقة خلال المؤتمر. يعلم الجميع أن كل تلك المؤتمرات لتدريب المعلمين التي تنظمها شيبوج تتحول إلى طقوس عربدة رومانية في وقتٍ متأخر من الليل. أعتقد أنه إذا كنتِ تقضين وقتك في تعليم طلاب الصف السادس كيفية عمل الكولاج، فأنت بحاجةٍ إلى إضافة بعض الإثارة إلى حياتكِ بأيِّ طريقة ممكنة.

- إذن أفادت الشائعات بأن جوزي نيكسون كانت تضاجع شخصًا ما في هذا المؤتمر؟

- حسنًا، تقول الشائعات أنها كانت تأمل ذلك، أنها كانت في طريقها، لعدم وجود كلمةٍ أفضل. وبالطبع كانت عاريةً عندما قفزت.

- وكانت متزوجة.

- وكانت متزوجة.

- إذن، من المحتمل أنها ضاجعت شخصًا ما في المؤتمر ثم شعرت بالذنب حيال ذلك وألقت بنفسها من الشرفة.

- صحيح. أو أنه هو من شعر بالذنب حيال ذلك وألقى بها من الشرفة.

- هل كان زوجها على علمٍ بكل هذا؟

عبست ليبي، فتقلصت الخطوط الدقيقة حول فمها. وقالت: «إنني لا أعرف حقًّا. كل ما أعرفه هو أنه لم يصدق أنها قتلت نفسها، لذا ربما لم يصدق أيضًا أنها كانت على علاقة غرامية».

- على الأغلب لا. ربما كان من الأسهل عليه تصديق أن أحدهم أزهقَ روحها من أن يصدق أنها أنهتْ حياتها بنفسها. أو يصدق أنها كانت على علاقة غرامية ثم أنهتْ حياتها بنفسها.

ارتسمت على مُحَيًّا ليبي واحدة من نظراتها البعيدة المعتادة مرة أخرى وقالت: «هل تتذكرين إيلين موريل؟ لا، لا يمكنكِ ذلك، أليس كذلك؟ لقد دَرَّست هنا حتى قبل أن تولدي. أطلق زوجها النار على نفسه وحتى إنه ترك رسالةً خلفه. لا بدَّ أن إيلين شعرت بالذنب حيال ذلك، لأن الشائعات في ذلك الوقت أفادت بأنها كانت تضاجع شخصًا ما في قسم العلوم. وظلَّت تصر على أن زوجها قد قُتل، وأن رسالة الانتحار كانت مزيفة. لقد منحوها إجازةً فجيعة، أو أيًّا ما كانوا يسمونها في ذلك الوقت، لكنها لم تَعُد قط. وأتساءل عمَّا قد حدث لها».

كنتُ مُبتلَّة وباردة على نحوٍ مُضاعَف عندما عدت إلى منزل مونك. خلعت ملابسي وأخذت حمامًا ساخنًا طويلًا في حوض الاستحمام المنفصل في الطابق الثاني. فكرت في جوزي نيكسون وزوجها. وفكرتُ في ذلك المؤتمر الصيفي لمعلمي الفنون في شهر يوليو، حيث الأيام المليئة بالندوات والفصول الدراسية، والليالي التي تزخَر بالمناسبات الاجتماعية. لقد كانت جوزي نيكسون، لأيٍّ سببٍ كان، متحمسة لاحتمالية وجود علاقة رومانسية صيفية. لربما قابلت آلان بيرالتا، الرجل الذي نصب جناحه المجهز بالقمصان المضحكة والحلي الغريبة. كان كل من حضر المؤتمر سيقابله بالطبع. وهل كان هناك يبحث عن علاقةٍ مؤقتة أيضًا؟

انفتح باب الحمام وانزلقت أبريل إلى الداخل. لم تكن قطتي بالضبط، على الرغم من أنني أسميتها تيمنًا بالشهر، منذ عامين، عندما ظهرت لأول مرة في منزلنا دون دعوة. كانت تأتي وتذهب كما يحلو لها، وغالبًا ما كانت تزور الحظيرة، حيث أترك لها طعامًا، وقد مرَّ وقت طويل منذ أن دخلت المنزل الفعلي. جلست على بلاط الحمام ونظرت إليَّ. قلت: «إنه يسمى حمامًا».

عندما خرجتُ من المياه الباردة، تبخترتُ عائدةً من الطريق نفسه الذي دخلت منه.

في تلك الليلة، بينما راحت والدتي تشاهد مسلسلات الألغاز على شبكة PBS جلستُ بجانبها على الأريكة وبحوزتي حاسوبي النقال واكتشفتُ كلَّ ما يمكنني اكتشافه عن جوزي نيكسون وزوجها ترافيس. كان هناك بالفعل عدد قليل جدًّا من المقالات الصحفية حول وفاتها، ولكن كان هناك نعيٌ في صحيفة ألباني، وكانت هناك صفحةٌ تأبينية ترك فيها الناس تعليقات حول جوزي والفراغ التي خلفته وراءها.

كانت هناك العديد من الصور على الإنترنت، بما في ذلك العديد من الصور التي مصدرها موقع زفاف ترافيس وجوزي. كانا قد التقيا في مدرسة الفنون قبل خمسة أعوام وتزوجا بعد ذلك بعامين. بدا كلاهما كما لو أنهما في أواخر العشرينيات من عمرهما. كان لجوزي وجه شاحبٌ مستديرٌ وشعرٌ طويل صبغته باللون الأسود الفاتح. وكانت ترتدي الكثير من القمصان البيضاء ذات العنق العالي، ولكن في الصور القليلة التي أظهرت فيها جزءًا من بشرتها، بدا من الواضح أن ذراعيها تغطيهما الوشوم. كان من الممكن الاعتقاد بأن زوجها هو شقيقها. لأنه كان يمتلك الوجه الشاحب نفسه، بيد أنه أكثر استدارة بعض الشيء، وكان له شارب مُشَمَّع. في يوم زفافهما ارتدت فستانًا أبيض تقليديًّا وكان هو يرتدي حُلَّة داكنة لامعة، ولكن في كل صورة أخرى لهما كان يرتدي بنطال جينز أسود وقمصانًا مطبوع عليها رسومات، بينما كانت هي ترتدي عادةً تنانير سوداء مخملية. أو قمصان مع دبابيس الزينة، أو سترات كلاسيكية، وتُفرق شعرها الحالك من المنتصف. واعتقدتُ أنها تبدو مثل وينزداي آدامز، ثم تذكرت أن وينزداي آدامز كانت تُسرح شعرها على شكل ضفائر. كان زوج جوزي مصمم جرافيك وفنان كتب مصورة طموح. وقد عاشا في وودستوك، نيويورك.

منذ فترة قصيرة كنت قد أنشأت حسابًا وهميًّا على الإنستجرام باسم «روز شيلدون». كان هذا في الوقت الذي كنت أساعد فيه هنري كيمبل في القضية التي كادت أن تؤدي إلى مقتله. سجلتُ الدخول إلى صفحتي الوهمية، ولم أتفاجأ كثيرًا حين وجدت أنني قد اكتسبت بعضَ المتابعين الجدد، بما في ذلك رجلًا أرسل إليَّ رسالة مطلعها: **مرحبًا، أيتها الجميلة...** على الرغم من وجود ثلاثة منشورات فقط على صفحتي، اثنين منها للقطة أبريل، وواحدة لشُجيرة الورود البيضاء في

الفناء الأمامي لمنزلنا. وجدت صفحة ترافيس نيكسون. لم تكن صفحة خاصة، ممَّا مكَّنني من تصفح مئات الصور. من الواضح أنه كان مغرمًا بزوجته قبل وفاتها، ولكن منذ ذلك الحين أصبح كل منشور مخصص لها، مصحوبًا بنصٍّ طويل حول كيفية توقف الشرطة عن البحث عن قاتلها. وانتهى كل منشورٍ بوسم: **#العدالة_لجوزي.**

عدَّلت معلومات حساب الإنستجرام الوهمي الخاص بي بحيث لم تعد تقول «بُستانية، محققة هاوية، مغامِرة» بل أصبحت تقول «صحفية مستقلة. أبحث عن قصص لا يرغب أحد آخر في روايتها». ثم أرسلت رسالة إلى ترافيس نيكسون: **مرحبًا ترافيس. إنني مهتمة بكتابة مقالة عن وفاة زوجتك. هل توافق على إجراء مقابلة؟ ليس لديَّ أي مُخطَّط سوى كشف الحقيقة. مع تحياتي، روز شيلدون.**

أرسلتها، ثم ندمت على الفور، معتقدة أنه كان ينبغي عليَّ التفكير في الأمر أكثر قليلًا. كل ما كان على ترافيس فعله هو أن يبحث في جوجل عن روز شيلدون ليكتشف أنها لم تنشر مقالًا قط. كان سيعتبرني مُنْتَحِلة، وربما استنتج أنني كنت محتالة من نوعٍ ما. فكرت في طرق أخرى للتواصل معه. يمكنني أن أكون صادقة، بالطبع، دون أن أمنحه أيَّ أسماء حقيقيَّة. فقط أدعه يعرف أن لديَّ صديقة تشتبه في أن زوجها يستهدف النساء في مؤتمرات المعلمين. لكنه سيصرُّ على معرفة المزيد. ومن خلال النظر إلى وجوده على الإنترنت، كان من الواضح أنه مهووسٌ بشدة بوفاة زوجته.

كنت أفكر في إغلاق حاسوبي النقال والاستعداد للذهاب إلى الفراش حين تلقيت ردًّا: **روز. شكرًا لكِ، شكرًا لكِ على التواصل. يسعدني أن أخبركِ قصتي. هل تفضلين إجراء المقابلة شخصيًّا؟ أم**

عبر الهاتف؟ أعيش في وودستوك ولكني على استعدادٍ للسفر. تحياتي، ترافيس.

أجبته بأنني على استعداد لمقابلته لتناوُل الغداء في وودستوك ظهر اليوم التالي. بدا متحمسًا للغاية واقترح مكانًا يُدعى «دوف آند هير» (Dove and Hare).

بعد أن أرسلت تلك الرسالة، قررت الاتصال بمارثا. التقطتُ السماعة على الفور، وكان صوتها يلهث قليلًا، وكأنها تنتظر أخبارًا سيئة.

أخبرتُها بما علمته، وبخططي للغد.

قالت: «حسنًا، واو. لكن حتى لو كان مقتنعًا بأنها قُتلت، فقد لا يعني ذلك أنها قُتلت».

- سأتحدث معه وسنرى. لكن، نعم، من الواضح أنه سيحاول الدفاع عن قضيته. في هذه الأثناء، يجب أن نبدأ أنا وأنتِ في إجراء بعض المكالمات الهاتفية، والقيام ببعض التحريات.

- مثل ماذا؟

- يمكننا الاتصال بأقسام شرطة المُدن التي عثرتِ فيها على تلك الجرائم. سنخبرهم أننا نعمل لصالح محققٍ خاص، ونطلب منهم آخر المستجدات بخصوص تلك القضايا. إما أنهم سيوافقون على التحدث معنا أو سيرفضون، لكن لا يمكننا الجزم مسبقًا. يمكننا أيضًا الاتصال بمراسلي الجرائم في تلك المُدن. قد يكون ذلك مجديًا.

قالت مارثا وهي تبدو مُتشككة: «أعتقد أنني أستطيع القيام بذلك».

- يستحق الأمر المحاولة. قد نصادف شرطيًّا ثرثارًا. فالأمور الغريبة تحدث.

- حسنًا، بالطبع، يمكنني المحاولة بالتأكيد. في الواقع يمكنني أن أبدأ غدًا. آلان هنا، لكنه سيكون غائبًا معظم يوم غدٍ. أخبرني أنه يجرد المخزون وهذا سيستغرق معظم يومه. لقد أخبرته مسبقًا أنني أشعر بأني على وشك الإصابة بشيءٍ ما، لذلك سأتصل بالعمل وأُخبرهم أنني مريضة.

تحدثنا أكثر عن الأسئلة التي يجب طرحها، ويمكنني أن أقول إنها بدأت تتحمَّس للمهمة التي كلفتُها بها. لقد كانت أمينة مكتبة، بعد كل شيء، ولا شيء يُسعد أمين المكتبة أكثر من مهمة.

***

الفصل العاشر

في الصباح، أرسلت مارثا بريدًا إلكترونيًّا إلى المكتبة لإبلاغهم بأنها ستأخذ إجازة مرضية، ثم تركت آلان يحضر لها وجبة الإفطار في الفراش. بعد أن ترك لها الصينية، سمعته يتحرك في الطابق السفلي، وهو يستعد للخروج. الآن وقد قررتْ إجراء بعض المكالمات الهاتفية، شعرت بالتوتر، لكنها كانت ترغب في البدء في تحرياتها.

أخيرًا، سمعت صوت فتحِ باب المَدخل وإغلاقه، ثم صوتًا خافتًا لسيارته وهي تتحرك. نهضت مارثا من الفراش بسرعة وارتدت بنطال اليوجا وكنزةً رياضية، ثم هبطت إلى الطابق السفلي حيث يوجد الحاسوب. لا يزال لديهم هاتفٌ أرضي في المنزل، وكان بجوار الحاسوب هاتفُ مكتب.

لم تسِر المحادثات القليلة الأولى على ما يرام. حاولت مارثا جاهدة أن تبدو وكأنها محققةٌ مُنهَكة، شخص يتوقع تلقي المعلومات. وكان أول محقق شرطة وصلت إليه في قسم شرطة أتلانتا، وهو المحقق جانتر، الذي عمل على قضية كيلي بالدوين. لقد كانت الضحية الوحيدة على قائمة مارثا التي وصفت في الصحافة بأنها بائعة هوى. وقد تُوفِّيت متأثرة بضربة شديدة في الرأس في وقت متأخر من الليل خلال عودتها إلى شقتها في شمال أتلانتا، على بُعد ثلاثة أميال من وسط المدينة حيث

عُقِد المؤتمر. سألت مارثا المحقق إذا كان لديه أيُّ أدلة، فأخبرها أنها مدمنة وبائعة هوى، وقد يكون الجاني أي شخص تعرفه.

سألته: «هل كانت تعمل في فنادق المؤتمرات؟».

- فنادق المؤتمرات؟ كلَّا. كانت عاهرة شارع مدمنة تعمل بالقرب من منتزه بيدمونت.

- ولكن أليس من الممكن أن يكون شخصٌ ما من أحد فنادق وسط المدينة قد جاب تلك المنطقة بحثًا عن علاقةٍ عابرة؟

- أيُّ شيء ممكن، سيدتي. ومن المحتمل أن يكون هناك سائحٌ صينيٌّ قرأ عن البغايا الجذابات في شارع بونسي دي ليون. لا يسعني مساعدتك.

كانت مكالمتها التالية إلى شيكاجو، وأخذت تتنقل بين الأقسام لمدة ثلاثين دقيقة قبل أن يوصلوها بالضابط وُود، الذي تمكن من إلقاء نظرة على ملف بيانكا مورانوس، التي عُثر عليها مقتولة في زقاقٍ خلف مركز مؤتمرات دبل تري في شيكاجو. لقد قُتلت أيضًا نتيجة صدمة قوية في الرأس. ومثلما حدث في أتلانتا، لم يُعثر على أي سلاح.

سألت مارثا الضابط وود إن كانت بيانكا بائعة هوى، واستمعت إليه وهو يُصفر لنفسه، ويقلب ملف القضية: «ليس وفقًا لهذا. لقد عملت موظفة استقبال في أحد مباني المكاتب الكبيرة بوسط المدينة».

- ولم تكن هناك أدلة؟

استمرَّ في الصفير، وقال: «حسنًا، لا شيء مُثمر. أتعلمين، رغم ذلك، توجد صور للجثة هنا في الملف، ولقد خرجت للاحتفال في تلك الليلة».

- ماذا تعني؟

- أعني أنه من الممكن أن تكون تنورتها قد ارتفعت أو شيءٌ من هذا القبيل عندما اصطدمت بالأرض، ولكن حتى لو حدث ذلك، فإن تلك التنورة كانت أقصر من سعة انتباه أطفالي. إما أنها كانت في الخارج تحتفل أو أنها كانت تلهو.

كانت أول محادثة مفيدة تمكنت من إجرائها مع المحققة ميليسا كروز، المكلفة بالتحقيق في جريمة قتل نورا جونسون التي لا زال ملفها مفتوحًا في فورت مايرز، فلوريدا.

قالت المحققة تلقائيًا: «نعتقد أن الجاني كان من الحاضرين في مؤتمرٍ عُقد في تلك العطلة الأسبوعية».

وسارعت مارثا، التي كانت تُدوِّن الملاحظات، إلى تدوين ذلك.

- لماذا تعتقدين ذلك؟

- لأنني علمت الكثير عن نورا جونسون خلال الأشهر الستة الماضية، وما علمته هو أن تقريبًا ثمانين بالمئة من وظيفتها كانت نادلة، والعشرين بالمئة الأخرى لتنفيذ عمليات احتيال على رجالٍ متزوجين يحضرون المؤتمرات في الفندق الذي عملت فيه. لقد عملت مع موظفٍ لصفِّ السيارات يُدعى دايسون هولمجرين، وهو من عثر على الجثة. كانت سيارتها متوقفة في قسم الموظفين بالجراج السفلي، وقد أخبرنا أنه رصد سيارتها هناك بعد وقتٍ طويل من انتهاء ورديتها، لذلك ذهب للتحقُّق من الأمر.

- لقد كانت ميتة في السيارة، أليس كذلك؟

- نعم. لكننا حصلنا على إفادات الشهود من كل من ذهب وعاد من مَرأب السيارات ذاك منذ وقت انتهاء وردية نورا جونسون عند الساعة الحادية عشرة إلى حين اتصل هولمجرين للإبلاغ عن الجثة. وكان أحد شهودنا موظفًا آخر، امرأةٌ تعمل في مكتب

الاستقبال، قالت إنها عندما كانت تغادر ساحة انتظار السيارات في الساعة الثانية عشرة، رأت هولمجرين وهو يسترق النظر داخل سيارة نورا جونسون.

- في أيِّ وقتٍ اتصل هولمجرين ليبلغ عن الجثة؟

- ليس قبل الساعة الثالثة تقريبًا.

- إذن، هل تعتقدين أنه رأى الجثة هناك عند مُنتصف الليل؟

- في حينها اعتقدنا أن ذلك احتمال وارد، لكنه أنكر هذا. بغضِّ النظر عن ذلك، لقد وضع ذلك هولمجرين في موقع الجريمة قُرب الوقت الذي يُرجح وقوع الجريمة فيه. واكتشفنا بعد ذلك أن هولمجرين كان صديقًا لنورا جونسون، وأنها هي من منحته الوظيفة في الفندق في المقام الأول.

- وهل ألقيتم القبض عليه؟

- ألقينا القبض عليه. كانت بصماته على باب سيارة جونسون، لكن ذلك لأنه فتحه عندما رآها جالسةً على المقعد الأماميِّ، دون حراك. ولم تكن هناك مؤشرات أخرى على أنه كان في السيارة عندما خُنِقت.

- هل كان هناك أيُّ دليلٍ جنائي؟

- كان ولم يكن. كانت هناك بضعة ألياف من الشيء الذي خنقت به. نوعٌ من الحرير الاصطناعي. ولكن بخلاف ذلك، وجدنا الكثير من الأدلة. شعرٌ من خمسة عشر شخصًا مختلفًا على الأقل. وألياف متعددة. حتى إننا وجدنا بُقع سائل مَنوي، لكن عمرها جميعًا لا يقل عن أربع وعشرين ساعة.

- ألن يكون هذا أمرًا شائعًا في سيارة أي شخص؟

- هل تضاجعين الكثير من الأشخاص في سيارتك؟ بالنسبة لي، أعلم أنني لا أفعل ذلك.

- لم أقصد السائل المَنوي بقدر ما أقصدُ الألياف والشعر.

- أفترض ذلك. يعتمد الأمر على عدد الأشخاص الذين تُقلِّيهم بسيارتك. أو في حالة نورا، يعتمد على عدد الرجال الذين أحضرتهم إلى سيارتها.

- الكثير منهم؟

- أجل، الكثير منهم. عندما أحضرنا هولمجرين، أصابه الهلع بسرعةٍ كبيرة حين أخبرناه أنه سيُسجن بتهمة القتل من الدرجة الأولى. لذلك أخبرنا لماذا كان يتلصَّص حول سيارتها. كان هو ونورا يديران عملية احتيالٍ صغيرة في فندق أنينجا، وهي أقدم عملية احتيال في العالم إلى حدٍّ كبير. كانت تتعرف على أحد زوار المؤتمر، ويفضل أن يكون رجلًا متزوجًا، وبعد انتهاء ورديتها إما أن تذهب إلى غرفته، أو، في العادة، تطلب منه أن يرافقها إلى سيارتها. ثم تدخله إلى السيارة لممارسة بعض الأنشطة خارج نطاق الزواج، وعندها يأتي هولمجرين ويقتحم الحفلة.

قالت مارثا: «أوه، واو!»، ثم صرَّت على أسنانها، وحدَّثت نفسها بأن عليها أن تتحدث أكثر كمحققةٍ زميلة.

- إنه ضخمٌ مفتول العضلات. وفي بعض الأحيان كان يتظاهر بأنه قوَّادها. وغالبًا ما ينتهي الأمر بالرجل بإفراغ محفظته للخروج من الموقف. إذا لم يكن معه أموال، فسيصادر هولمجرين رخصة قيادته ويطلب ألف دولار أو شيئًا من هذا القبيل قبل مغادرته فلوريدا وإلَّا فإنه سيجعل حياته بائسة. كانت كلها أمور صغيرة نسبيًّا. وفقًا لهولمجرين، فإنهما كانا يفعلان ذلك مرة أو مرتين

فقط في الشهر. في بعض الأحيان كانا يحصلان على ألف، وأحيانًا بضع مئات من الدولارات.

- هل كان ذلك يحدث دائمًا في السيارة؟

- في بعض الأحيان كانت تذهب مع أحد الرجال إلى غرفته في الفندق. ثم ترسل رسالة نصيَّة إلى هولمجرين تخبره برقم الغرفة التي كانت فيها ليأتي ويطرقها. لكن ذلك كان ينطوي على خطورة أكبر. لقد كان عاملًا في ساحة انتظار السيارات، لذلك فضَّلا استخدام ساحة الانتظار الخارجية. كانت ترسل إليه رسالة نصيَّة عند دخولها هي والهدف إلى السيارة. ليظهر بعد خمس دقائق، عندما يكون الرجل قد أنزل سرواله. أوه، انتظري لحظة.

أمكنها سماع المحققة كروز تتحدث إلى أحدهم، ويدُها على الهاتف. عندما عادت للحديث، قالت مارثا: «أما زال لديكِ وقت؟».

- نعم، قليلًا.

- إذًا ماذا تعتقدين أنه قد حدث في الليلة التي خُنِقت فيها نورا جونسون؟

- حسنًا، لهذا السبب قلت إنني أعتقد أن أحد الحاضرين في المؤتمر هو من فعل ذلك. لقد التقطت الرجل الخطأ.

- إذن فلماذا لم يكن هولمجرين موجودًا في موقع الحادث لإيقافه؟ لقد قلتِ إنه حاول الوصول إلى هناك بعد خمس دقائق من ركوبها السيارة مع الرجل.

- لقد حاول ذلك، لكنه لم يكن ينجح دائمًا، حسب ظروف العمل. في تلك الليلة، تلقى رسالة نصيَّة من نورا تفيد بأنها ستحضر رجلًا معها إلى سيارتها. حدث هذا قرابة الساعة الحادية عشرة وخمس

وأربعين دقيقة. ويزعم أنه استغرق خمس عشرة دقيقة للوصول إلى السيارة وأنها كانت قد فارقت الحياة بالفعل.

- لماذا لم يبلغ عن الجثة إذًا؟

- قال إنه أصيب بالذعر، وأنه لم يرغب في التورُّط. وما إلى ذلك، ومن ثم، في الساعة الثالثة، انتصرت طبيعته الأفضل، على ما أعتقد.

- وأنتِ لا تعتقدين أنه الفاعل؟

- كلَّا. إذا تحدثت مع بعض زملائي، فستحصلين على قصة مختلفة. هولمجرين حقير، لكنه ليس قاتلًا. لقد قُتلتْ على يد شخصٍ كان يقيم في الفندق.

- هل اطلعتِ على قائمة الحاضرين في المؤتمر؟

- قرابة المئة مرة.

- ألم يلفت انتباهكِ أيُّ اسم؟

- ليس حقًّا.

- هل تَحَرَّيتِ عن شخصٍ يُدعى آلان بيرالتا؟

أشعر نطق مارثا لاسمه بأن جميع عضلاتها تشنجت قليلًا في وقتٍ واحد.

- هذا الاسم مألوف قليلًا. هل كان في المؤتمر؟

- على الأرجح لم يكن من الحضور. لقد كان يعمل في المؤتمر. كان يبيع سلعًا مبتكرة للمعلمين من جناحه.

- فهمت. نعم، لقد كان نزيلًا في الفندق. لقد تَحَرَّينا عنه فقط لأنه أنفق بعض المال في حانة الفندق.

- في ليلة مقتل نورا جونسون؟

- في كل ليلةٍ كان هناك، إذا كنتُ أتذكر. هل يجب أن أتحرَّى عن هذا الرجل؟

- ربما. ستكونين أول من يعلم إذا اكتشفتُ أي شيء.

تلعثمت مارثا في الكلمات، لكن لم يبدُ أن المحققة لاحظت ذلك.

- سأقبل أيَّ أدلة. هذه القضية تبدو باردة جدًّا.

كتمت الهاتف مرة أخرى، واستطاعت مارثا سماع محادثة مكتومة. قالت المحققة كروز عندما عادت للحديث: «عفوًا، يجب أن أذهب. هل انتهينا هنا؟».

تبين أن آخر شخصٍ تمكنت مارثا من التحدث معه في ذلك الصباح، وهي ليندا كالاهان، لم تكن مهتمةً بالتحدث معها مثل المحققَين الأولَين. كانت المحققة كالاهان تعمل على قضية وفاة ميكائيلا ساجر المشبوهة، معالجة التدليك التي جرفتها الأمواج إلى شاطئ إمبريال بيير في خليج سان دييجو الجنوبي.

- بدا الأمر وكأنها حادثة غرق في البداية، لكن الطبيب الشرعي وجد كدمة في الرأس، لذا يبدو الآن أن شخصًا ما قادها إلى نهاية الرصيف، وضربها على رأسها، وألقاها.

- ولا يوجد مشتبهٌ بهم؟

- كلَّا.

- لقد كانت معالجة تدليك.

- أجل.

- هل هناك أيُّ احتمال أن يكون وصفها لنفسها بمعالجة التدليك هو كناية عن عملٍ جنسيٍّ من نوع ما؟

- هذا ممكن، على ما أعتقد. لقد كانت تعمل من منزلها.

- ماذا عن الليلة التي لقيت فيها مَصرعها؟

- ماذا عنها؟

- ماذا كانت تفعل؟ هل كانت في الخارج مع الأصدقاء، أو في موعدٍ غرامي، أو في العمل؟ كيف انتهى بها المطاف عند الرصيف؟ هل قادت السيارة إلى هناك؟

- قادت إلى هناك. نحن لا نعرف ماذا كانت تفعل تلك الليلة سوى أنها عرَّضت نفسها للقتل. وقبل ذلك، نعلم أنها أكلت كاليماري مقلي وشربت التكيلا. هذا ما أظهرته لنا محتويات معدتها. أوه، ولم تمارس الجنس، على الأقل ليس مؤخرًا.

توقفت مارثا قليلًا بعد أن أنهت إجابتها وأضافت المحققة بسرعة: «هل انتهينا هنا؟».

- سؤالٌ أخير، ماذا كانت ترتدي عندما انتُشِلت من الماء؟

- حسنًا. دعيني أرى. كانت ترتدي بنطال جينز وقميصًا قطنيًّا أخضر. وكانت ترتدي كنزة بيضاء وسترة. لا شيء فاخر أو مُميز. ولم يُعثر على حذائها.

قررت مارثا الاستسلام وقالت: «أيتها المحققة كالاهان، لقد كنتِ خير عونٍ لي بشكلٍ ملحوظ. أشكركِ على التحدث معي».

أصبح صوت المحققة أكثر إشراقًا، وقالت دون أدنى لمسة من السخرية: «مهلًا، لا توجد مشكلة. كَوني خير عونٍ هي وظيفتي».

قالت مارثا: «حسنًا...»، ثم لم تستطع أن تفكر فيما يجب أن تقوله لإنهاء الجملة.

قالت المحققة كالاهان، كما لو أنها تذكرت تلك الحقيقة بالذات للتو: «أوه، وقد كانت ترتدي دبوسًا».

- مَن؟

- الضحية لقد سألتِني عن الملابس التي كانت ترتديها. إنني أنظر إلى الملف الآن. كانت ترتدي دبوسًا على كنزتها مثل... مثل دبوس زينة.

قالت مارثا، محاولةً الحفاظ على حياد صوتها: «ماذا عنه؟».

- آه، دعيني أرى. إنه وجه امرأة. شعرها أبيض. لا، إنها قبعة ترتديها من نوعٍ ما

- هل هي صورة؟

- كلَّا، إنه دبوس زينة.

- هل يمكنكِ أن تقدمي لي خدمة كبيرة، أيتها المحققة، هل يمكنني أن أعطيكِ رقم هاتفي الخلوي ويمكنك أن ترسلي إليَّ صورةً لذلك الدبوس؟

- ستكون صورةً لصورة.

- لا بأس. إنني فقط أرغب حقًّا في رؤيته.

بعد أن أنهيا المكالمة، حدَّقت مارثا إلى هاتفها حتى وصلت الرسالة النصيَّة. لقد كانت صورة لدبوس زينة، ولم تكن صورة جيدة جدًّا، ولكنها جيدة بما يكفي بحيث عرفتْ مارثا بالضبط ما كانت تنظر إليه. لقد كان دبوسًا لجين أوستن، وشعرها مغطى بقلنسوة بيضاء، وهو دبوس زينة من النوع الذي قد تبيعه لمعلم لغة إنجليزية.

أرسلت رسالة نصيَّة إلى ليلي، من أربع كلمات: **أعتقد أنني وجدتُ شيئًا.**

***

الفصل الحادي عشر

كنت أعبر نهر هدسون على جسر كينجستون-راينكليف عندما أصدر هاتفي صوتًا. لم أكن معتادة على تلقي الرسائل لدرجة أنني لم أكن أعرف في البداية من أين يصدر التنبيه الغنائي، ولكن عندما نظرت إلى هاتفي الذي كان مُلقى فوق حامل الأكواب غير المُستخدَم، رأيت أنني تلقيت رسالة نصيَّة من مارثا. كتبت فيها: **أعتقد أنني وجدتُ شيئًا.**

كدتُ أن ألتقط الهاتف لأتصل بها في ذلك الوقت وأعرف ما اكتشفته، ولكنني كنت قد تأخرت في الاستيقاظ هذا الصباح، وكنت في عجلة من أمري للوصول في موعد غدائي مع ترافيس نيكسون في وودستوك. في أثناء الإفطار، أخبرت والديَّ أنني سأقابل صديقًا، وأنني سأغيب لبعض الوقت. على الأرجح كان كل شيءٍ سيكون على ما يرام، ولكن والدتي، دون علمي، كانت قد أعدت أيضًا خططًا لتناوُل الغداء، حيث ستلتقي بإحدى صديقاتها القدامى من الجامعة على بُعد بلدتين في بلدة بِثلَهم. لقد عانى والدي على مدار معظم حياته البالغة، رهابًا عميقًا من البقاء وحيدًا، خاصةً خلال الليل (وهو أمرٌ لا يمكن التفكير فيه تقريبًا في هذه المرحلة)، بل وكذلك في أوقات الوجبات. وادَّعى أن السبب في ذلك هو أنه لا يعتقد أن الشرب هو عمل فردي، وأن أي وجبة تتضمن بطبيعة الحال الشرب. كان عادة ما يتناول الكوكتيل الأول له في اليوم، وهي كأس شعيرٍ واحدة بالماء، في الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا،

بعد قضاء الصباح في القراءة والغفوة في مكتبه. ولم يكن من عادتنا لا أنا ولا والدتي أن نتناول أيَّ شراب في ذلك الوقت، لكن عادةً ما تكون إحدانا هناك لتبقى بصحبته.

في هذا الصباح، عندما أدرك أننا سنغيب كلتانا، رأيت نظرة فزعٍ في عينيه، مزيج من الخوف والحزن. أقرب ما يمكنني وصفها به هو الأسى. وأعتقد أنها كانت كذلك بطريقة ما. كنت أقضي الكثير من الوقت مع والدي بحيث لا أضيع وقتي في تحليله، لكني أعتقد أنه عندما يكون وحيدًا، تستحوذ عليه رؤى بالموت، سواء كان موته هو أو موت الأشخاص الذين يحبهم، وكان هذا أكثر ممَّا يستطيع احتماله.

قلت: «أمي، لماذا لا تأخذي أبي لتناول الغداء؟».

بدت مرعوبة، لذا قلت: «أو ربما يمكننا أن نرى إذا كان ستانلي يريد المجيء؟».

قال أبي، على نحوٍ غير مُقنع للغاية: «سأكون بخير. سأعد لنفسي شطيرة لحم خنزير».

ومع ذلك، تمكنتُ من الاتصال هاتفيًّا بستانلي، صديق ديفيد وصاحب متجر كتب ستونز ثرو، وقد وافق على الحضور في الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا لتناوُل مشروب مع ديفيد. كان ستانلي متحدثًا بطيئًا، إذ أمضينا عشر دقائق تقريبًا على الهاتف وأنا أحاول إقناعه بأنه لا يحتاج إلى إحضار أيِّ شيء بوجهٍ خاص، أو ارتداء قميص بياقة. وبسبب كل ذلك، تأخرت في التوجه إلى وودستوك، وبعد ذلك استغرقت تقريبًا عشر دقائق للعثور على مطعم دوف آند هير، وهو مطعم من طابقٍ واحد مغطى باللبلاب يقع قبالة شارع مين.

قال ترافيس نيكسون: «اعتقدتُ أنكِ لن تحضري».

كان ينتظرني عند المدخل الأمامي. ولأنني كنت قد نظرت إلى العديد من الصور له على الإنستجرام، معظمها مع جوزي، أذهلتني مدى نحافته الآن، كان يبدو كالشبح.

- آسفة. بدايةٌ متأخرة، ولكنني هنا الآن.

تبعته إلى طاولة في زاويةٍ بجوار بارٍ مُزخرف مزين بأغصان ملتوية وأضواء عيد الميلاد.

قال وهو يجلس في مقابلتي: «كان هذا مكاننا المُفضل».

- مكانكَ أنت وجوزي؟

- نعم.

على الرغم من أنه فقد وزنه، على ما يبدو، فإنه لم يكن قد حصل على ملابس جديدة، إذ كان غارقًا في قميصه الذي يحمل صورة غراب تحت عبارة «قُل ليس بعد اليوم».(1)

قلت: «أولًا وقبل كل شيء، أنا آسفة حقًّا لخسارتك».

أومأ برأسه نحوي. فاستطردتُ: «وأريد أيضًا أن أكون صريحة. إنني كاتبة أدبية في المقام الأول، أكتب الشعر في الغالب، ولكنني التحقت بالكلية في جامعة شيبوج، وعندما سمعت عن جوزي... لا أعلم، لقد واصلتُ التفكير بها فحسب. لذا، كل ما في الأمر، أنني سألت من حولي، فقط الأشخاص الذين كنت أعرفهم من هناك، وبدأت أعتقد أن الأمر ربما لم يكن كما يبدو. أعني أن الأمر يبدو أشبه بجريمة قتل أكثر من كونه

---

(1) من المرجَّح أن تكون عبارة «قل ليس بعد اليوم» إشارة إلى القصيدة الشهيرة «الغراب» لإدجار آلان بو، حيث تحكي القصيدة عن زيارة غراب مُتكلم وغامض إلى عاشقٍ مضطرب وتتبع القصيدة شعور العاشق حتى إصابته بالجنون. يتباكى العاشق على عشيقته لينور بينما يجلس الغراب على تمثال لأثينا ويؤجج مشاعر العاشق الحزينة بترديده لكلمة (ليس بعد اليوم).

انتحارًا، وهذا يعني أن شخصًا ما قد أفلتَ بفعلته. ثم بحثتُ عنك، ومن الواضح أنكَ تشعر بالمثل».

- أجل.

كانت ثمة نادلة تحوم بالقرب منا، لكن لا بدَّ أنها رأت النظرة الحادة على وجه ترافيس فتراجعت.

- لم أكن أعرف جوزي، ولا أعرفكَ، لكنني اعتقدتُ أنه ربما يمكنني كتابة مقالة حول ما حدث، ومحاولة نشرها. وبهذه الطريقة يمكنني مساعدتك قليلًا.

قال، وهو يتكئ على الطاولة التي بيننا: «سيكون ذلك رائعًا. في الواقع من الجيد أنكِ لا تعرفيننا، وأنكِ لم تعرفي جوزي. لا أنفك أخبر العالم أنها قُتلت، لكن موقفي متحيز لأنني كنت زوجها. لا أحد يصدقني ولكن إذا قلتِ شيئًا...».

- أتفق معك.

اقتربت النادلة أخيرًا، ونظرتُ سريعًا إلى القائمة، طلبت نوعًا من الكوكتيل المصنوع من شجيرة التوت الأسود، وبرجر الحمص. وطلب ترافيس جعة داكنة وحساء اليوم. وبينما كنَّا نطلب، بدأت أشعر بالذنب قليلًا لكوني كذبت على هذا الرجل ولكنني أخبرت نفسي أيضًا أنني أحاول العثور على قاتل جوزي وإذا تمكنتُ من فعل ذلك، فسيكونُ الأمرُ بالنسبة له يستحق أكثر بكثيرٍ من مجرد مقالةٍ صحفيةٍ.

قلت بعد أن غادرت النادلة بطلبنا: «إذًا، لم لا تصدق أن جوزي قد تقتل نفسها؟».

كنت أتوقع منه أن يتحدث عن مدى حبها للحياة، أو كيف أنها ليست من هذا النوع، لكن أول ما قاله هو: «لقد كانت تخاف المرتفعات. تخافها

حتى الموت. من المستحيل فحسب أن تخرج إلى شرفة، ناهيكِ بالقفز منها. أعني، كان هذا أول شيءٍ فكرتُ فيه عندما سمعت بما حدث. وأيضًا، لو كانت غير سعيدة لدرجة أنها أرادت قتل نفسها، لكنتُ علمت بذلك. أعلم أنكِ لن تصدقي ذلك، لا أحد يفعل، لكنها كانت لتخبرني. أعرف ذلك. حتى إننا تحدثنا عن الانتحار مرة واحدة. قالت إنها اعتادت أن تفكر في الأمر طوال الوقت في المدرسة الثانوية. قالت إنها إذا حدث وفعلت ذلك، فسيكون بالمخدرات، شيءٌ سيجعلها تنام. من المستحيل أن تكون قد قفزت من الشرفة».

- ماذا كنت ستظن إذن، إذا كانت قد ذهبت إلى مؤتمر المعلمين وتعاطت جرعةً زائدة وتوفيت هناك؟

زمَّ شفتيه بشدة لدرجة أن شفته العليا ضُغطت تحت أنفه: «هذا سؤالٌ جيد لم يسألني إياه أحد. وسأقول هذا: ما زلتُ أعتقد أنها لم تكن لتفعل ذلك. لقد كانت حياتنا جيدة، وكانت متحمسة للغاية لتلك الرحلة».

وصلت مشروباتنا، وبعد أن تذوقت كوكتيل التوت الأسود، شعرت بالندم قليلًا لأنني لم أطلب الجعة. بينما جاء مشروب ترافيس في كأسٍ على شكل حذاء. قال، وقد أمسك بي وأنا أنظر إليه: «رائع أليس كذلك؟ هذا المكان رائع جدًّا، لم تكن جوزي تحب الجعة، لكنها كانت تطلبها هنا بسبب هذه الكؤوس».

- لماذا كانت متحمسة بشأن الرحلة؟

- هل يمكنني أن أسألكِ شيئًا؟ قلتِ إنك تحدثتِ مع بعض الناس في شيبوج. ماذا سمعتِ؟ ما هي الثرثرة التي تدور هناك؟ هل يقولون إنها مجرد فتاة قوطية غريبة الأطوار قفزت من مَهجعها فحسب؟

كنت أتوقع أن يسألني ترافيس هذا السؤال، لكنني لم أكن قد قررت بعد ماذا سأقول له. لكن من معرفتي به لمدة خمس دقائق اعتقدت أنه

يستطيع التعامل مع ما قالته لي ليبي فروست. قلت له: «ما سمعته هو أنه ربما كانت جوزي قد أقامت علاقة مع شخصٍ ما في المؤتمر، أو أنها كانت تتطلع إلى إقامة علاقة مع شخصٍ ما في المؤتمر. وإذا كان هذا هو الحال، فأعتقد أن الناس يشعرون أنه ربما استحوذ عليها الشعور بالذنب وقفزت، أو ربما دفعها شخصٌ ما. هل سمعتَ بهذا من قبل؟».

سألته لأنه كان يومئ برأسه بوقار في أثناء حديثي.

- نعم. وتلك الشائعات صحيحة. لا أعني تلك المتعلقة بالشعور بالذنب، بل أنها ربما كانت تبحث عن شخصٍ ما لتقيم علاقة معه.

- هل كنت تعرف بشأن ذلك؟

- هل سمعتِ عن تعدد الشركاء العاطفيين؟

- بالتأكيد.

- لم أكن أعلم أننا كنَّا نطلق على زواجنا متعدد الشركاء، بالضبط، على الأقل ليس بعد، لكننا بدأنا تجربة الخوض في علاقاتٍ مع أشخاص آخرين. لقد ذهبتُ إلى مؤتمر للقصص المصورة في لاس فيجاس وأقمتُ علاقة مع إحداهن، وأخبرت جوزي بذلك، ممَّا أثار حماسها حقًّا. أنا واثق من أنكِ ستصدرين الأحكام علينا...

- أنا لا أصدر الأحكام عليكما، أعدك بذلك. لقد كان والداي يحظيان بعلاقة زوجية متعددة الشركاء، حتى قبل أن تظهر كلمة تصف ذلك، ولكن بالنسبة لهما كان الأمر يدور حول إيذاء الآخر. والثأر. والتفوق على الآخر. يبدو أن هذا الإصدار الجديد هو الأفضل.

- لقد علمنا أنا وجوزي أننا سنقضي حياتنا كلها معًا مهما حدث، وأننا سنتشارك كل شيءٍ مع بعضنا بعضًا، فلماذا لا نوسع حياتنا العاطفية بشكلٍ علني؟ لقد بدا الأمر طبيعيًّا.

- هل كانت جوزي مهتمة بالعثور على شخصٍ ما خلال المؤتمر في شيبوج؟

- أجل، كانت متحمسة لذلك. وكذلك كنت أنا.

كان ترافيس قد أنهى نصف جعته لكنه لم يكن قد لمس حساءه. بدا ممتنًا للحديث عن جوزي، لكن عينيه، بالظلال العميقة حولهما، بدتا خائفتَين وحزينتَين. ممَّا جعلني أفكر في عينَي والدي ذلك الصباح.

- هل أخبرت الشرطة بهذا؟

- بالطبع فعلت. وقد نظروا إليَّ بطريقة جعلتني أفهم ما يفكرون به جميعًا. ألا وهو أنني قد غيرتُ رأيي في الأمر كله وقُدت سيارتي إلى شيبوج وقتلتها بنفسي.

- هل تعتقد أن هذا ما كانوا يفكرون فيه؟

- بالتأكيد. ولكنهم تحققوا من حجة غيابي وكنت هنا في وودستوك، في سهرة ألعابٍ عند أحد الأصدقاء. حيث الكثير من الشهود.

- ألم يزعجك التفكير فيما قد تفعله جوزي في مؤتمرها؟

هزَّ رأسه قائلًا: «كلَّا».

- ولكن لا يزال هناك احتمال، أليس كذلك، أن جوزي كانت متحمسة لخوض مغامرة عاطفية، ثم بعد أن فعلت ذلك، جعلها ذلك تشعر بالسوء؟ لن تكون هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل.

- أعتقد الأكثر احتمالًا هو أنها اختارت الشريك الخطأ، ثم حدث خطبٌ ما. لكنني أعرف في أعماقي أن الخطأ لم يكن منها، بل من الشخص الآخر.

كنت أومئ برأسي، وأكمل حديثه: «ربما أنا مُخطئ. ربما دفعتُها نحو هذا الأمر ممَّا أفزعها. ليس الأمر وكأنني لم أمضِ عدة ليالٍ بلا نوم وأنا أفكر في ذلك. لكن لنفترض أنها التقت أحدهم وأثير شيءٌ ما بداخلها، شيءٌ فظيع للغاية لدرجة أنها قررت إزهاق روحها. لم تكن لتقفز من الشرفة قط».

لقد صدقته، ربما ليس أنه يعرف كل شيء عن زوجته، لكن في أنه يعلم أنها لن تقفز من بناية.

- دعيني أسألكِ، ماذا تعتقدين أنه قد حدث؟

انتهيت من مضغ قضمة من برجر الحمص وقلت: «لقد التقت الشخصَ الخطأ. والآن وأنا أتحدث إليك، أشعر وكأنني أعرف المزيد عن هذا الشخص».

- مثل ماذا؟

- حسنًا، أعلم أن كل ما حدث لها لم يكن شيئًا عفويًّا أو وليد اللحظة. لم يكن الأمر مجرد رجل دخل فجأة في نوبة غضب. لأنه لو كان الأمر كذلك، لوقع شجار، ولكان هناك دليل على هذا الشجار. كلَّا، أعتقد أن من قتلها كان شخصًا سلسًا للغاية ويعرف ما يفعل. ربما أغراها بالخروج إلى الشرفة، قائلًا إن الحاجز مرتفع جدًّا وستكون بخير، وأنها ليلةٌ جميلة. شيءٌ من هذا القبيل. لم تكن تدرك ما كان على وشك الحدوث. لقد هاجمها على حين غرة.

قلقت من كوني قد قلتُ أكثر ممَّا ينبغي، لكن ترافيس كان يصغي باهتمامٍ وهو ويومئ برأسه. وقال: «هذا ما أعتقده. شخصٌ ذكي قتلها. وقد أفلت بفعلته».

- لقد قلتَ سابقًا أنَّها ربما كانت تتسكع مع فتى أو...

- قلتُ ذلك فحسب لأنه احتمال. لقد تظاهرت جوزي كثيرًا حتى تبدو منفتحة.

- لقد كان رجلًا إذن. إحصائيًّا، هذا هو الأكثر منطقية.

- أتفق مع ذلك.

- ترافيس، هل كان لديك الكثير من التواصل معها خلال رحلتها؟

- نعم ولا. في اليوم الأول، نعم. تبادلنا الرسائل النصيَّة قليلًا. لقد أرسلت إليَّ صورًا للحرم الجامعي، وأشياء من هذا القبيل. لكن في اليوم الذي حدث فيه الأمر، لم يكن هناك الكثير من الاتصال على الإطلاق. اعتقدتُ أنها ربما التقت شخصًا ما، ولم أرغب في إزعاجها.

غطى ترافيس فمه وأنفه بإحدى يديه الموشومتين، وأغمض عينيه بإحكام. اعتقدت أنه كان على وشك البكاء، ولكن بعد ذلك أنزل يده وقال: «في الواقع من الجيد التحدث معكِ حول هذا الأمر. أعلم أن أصدقائي يريدون مني المضي قدمًا، لكنني لا أستطيع ذلك».

- من الصعب المضي قدمًا عندما تكون هناك أسئلة بلا إجابة.

- أجل.

- إذا وجدتُ أي إجابات، فستكون أول من يعرف.

- حسنًا.

أكلتُ المزيد من البرجر الخاص بي، بينما أخذ يحرك ملعقته حول وعاء الحساء الخاص به، وقال: «كنتِ ستحبينها إذا التقيتها. كنتِ ستحبين جوزي. لقد كانت مُفْعمة بِالحياة».

***

الفصل الثاني عشر

بعد أن أرسلت الرسالة النصيَّة إلى ليلي وقبل أن تتلقى الردَّ منها، ذهبت مارثا، التي شعرت بإرهاق جسدي فجأة، إلى أريكة غرفة المعيشة واستلقت. وحتى اللحظة التي رأت فيها تلك الصورة لدبوس زينة جين أوستن، كان جزءٌ منها يعتقد أنها اختلقت الأمر برُمته من مُخيلتها الخصبة، وأن زوجها هو بالضبط ما يبدو عليه، وأن الجرائم (جرائم القتل) التي وقعت في المدن التي سافر إليها لا تمثل سوى مصادفةٍ غريبة. لكنها الآن وهي ترقد على الأريكة، وعقلها خَدِر لكنه يدور بطريقةٍ ما، وتنظر إلى سقفها بشقوقه الصغيرة أدركت أن عالمها قد تغير إلى الأبد.

وفجأة، قفز جلبرت على الأريكة عند قدميها، ممَّا أجفلها. ألقى عليها نظرةً خاطفة، ثم طوى قدميه تحت صدره واستقرَّ على حافة وسادة الأريكة في وضعية تشبه رغيف اللحم. ركزت مارثا على تنفُّسِها، وهي تحدث نفسها بألَّا تبالغ في رد فعلها حتى تتحدث مع ليلي. ربما لن تقتنع بأهمية الدبوس مثلما تفعل مارثا حاليًا.

بعد أن استلقت على الأريكة لوقتٍ كافٍ حتى غفا جلبرت، متكورًا حول نفسه ليلتقط خيط ضوء الشمس القادم عبر النافذة الجنوبية المطلة على الكُوة، أجبرت مارثا نفسها على النهوض. دخلت المطبخ وفتحت الثلاجة رغم أنها لم تكن جائعة. ثم تجوَّلت في أرجاء المنزل،

شبه شاردة، وهي توبخ نفسها بشدة على جرأتها التي جعلتها تتزوج فعليًّا. لقد أدركت منذ زمن طويل أنه من المفترض بها أن تحيا حياتها بمفردها. هل كانت تعتقد أن لتلك اللعنة تحديدًا مدة زمنية؟ لكنها حدثت نفسها بعد ذلك، بأن الأمور ربما تحدث حقًّا لسببٍ ما، ذلك النوع من الأمور التي كانت دائمًا ما ترددها شقيقتها المتدينة. لعل سبب زواجها من آلان بيرالتا هو أن تكون هي من يوقفه عن الاستمرار في قتل النساء. هذا ما قررت مارثا أن تقنع نفسها به من الآن فصاعدًا.

عندما رنَّ هاتفها أخيرًا، كانت قد عادت إلى غرفة المعيشة، جالسة أمام الحاسوب، تبحث عن أيِّ شيء ربما قد فاتها في المقالات التي كتبت عن حادثة وفاة ميكائيلا ساجر غرقًا.

قالت ليلي: «ماذا وجدتِ؟».

أجابت مارثا، منزعجة لسماع صوتها يرتجف: «وجدتُ الكثير. لكن السبب الذي دفعني لإرسال هذه الرسالة إليكِ هو أمرٌ اكتشفته عن ميكائيلا ساجر، معالجة التدليك».

- حسنًا، وماذا كان؟

- إذن، في الليلة التي غرقت فيها... كانت المحققة تصف الملابس التي ارتدتها، ويبدو أنها كانت ترتدي دبوس زينة. سألت المحققة عن نوعه وأرسلت إليَّ صورة.

- وماذا كان؟

- لقد كان دبوس زينة، أو مثل دبوس المينا، لوجه جين أوستن.

- هل هذا شيء يبيعه آلان؟

- أعني إنه بالضبط من نوعية الأشياء التي قد يبيعها. في الواقع، لا أذكر أنني رأيت واحدًا من قبل، لكنني نادرًا ما أرى الأشياء التي

يبيعها. ومع ذلك، كان المؤتمر الذي حضره في سياتل مخصصًا لمعلمي اللغة الإنجليزية في المدارس الثانوية. كان من الممكن أن يكون لديه هذا الدبوس في جناحه.

- حسنًا، تمهَّلي. ذكريني: ميكائيلا ساجر كانت معالجة تدليك، أليس كذلك؟ ولم تحضر المؤتمر.

- لم تفعل، لكن هذا لا يعني شيئًا. ربما صَحِبها آلان للخارج، أو حجز موعدًا معها، وعندها أعطاها الدبوس. أو، من يدري ربما قتلها على الرصيف ثم وضع الدبوس عليها قبل أن يُلقي جثتها في المحيط.

- لم قد يفعل ذلك؟

قالت مارثا وهي تشير بيدها الحرة رغم أنها كانت تتحدث على الهاتف: «بصراحة، لا أعرف، ولكن السيناريوهات لا تنفك تواتيني. ربما يريد أن يُلقى القبض عليه؟ ربما هو مجرد وغدٍ مغرور، أو أنه مجنون تمامًا. ربما لا شيءَ يعني أي شيء. كل ما أعرفه حقًّا هو أنها مصادفة كبيرة، إن كانت مصادفة حتى».

- أنا لا أقول إنها مصادفة. بل إنني أعتقد أن هناك صلة قوية بين آلان وهذه المرأة التي ماتت، لكن هذا لا يثبت أيَّ شيء. أعني، إذا كنتِ تريدين الذهاب إلى الشرطة الآن، فسوف أدعمكِ تمامًا -حتى إنني سأجري المكالمة، إذا كنتِ تريدين ذلك- ولكن مجرد وضع آلان تحت أنظارهم لن ينتج عنه بالضرورة أيُّ شيء.

قالت مارثا وهي تفرك مؤخرة عنقها: «نعم، أعرف، إذن ماذا أفعل الآن؟ أعني، أنا مقتنعة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى أن زوجي قد قتل هؤلاء النساء. لا أستطيع أن أستمر في العيش معه. ماذا سأقول له لو حملت نفسي وغادرت ببساطة هكذا؟».

قالت ليلي بنبرةٍ بطيئة ومدروسة: «حسنًا؟ دعيني أفكر للحظة». عرفتْ مارثا أن ليلي كانت تحاول تهدئتها، لكنها لم تمانع تمامًا. واستطردت ليلي: «لمَ لا تخبريني ماذا اكتشفتِ أيضًا اليوم؟».

- حسنًا، أولًا، لديَّ شعور بأن هناك سببًا لعدم حل أيٍّ من هذه القضايا. ليس هناك الكثير من الأدلة، أو الخيوط، أو الأنماط، وبما أن بعض الضحايا كنَّ بائعات هوى، فأعتقد أن أقسام الشرطة لا تولي الأمر الكثير من الاهتمام.

- هل كانت النساء جميعهن عاهرات؟

- ليس تمامًا. لم تكن ميكائيلا ساجر كذلك، لكنها كانت تعمل معالجة تدليك في المنزل، لذا فهذا احتمال وارد. كيلي بالدوين، ضحية أتلانتا، كانت تعمل بائعة هوى. نورا جونسون، التي كانت تعمل نادلة في الفندق الذي أقام آلان فيه في فورت مايرز، كانت تدير نوعًا من النشاط الجانبي مع عامل موقف السيارات الذي كان يعمل أيضًا في الفندق. إذ تغازل أحد الحاضرين المسافرين في المؤتمر وتصحبه إلى سيارتها لممارسة الجنس، ثم يقتحم عليهما السيارة ذلك العامل ويحصل على المال منهما. لم أعلم الكثير عن بيانكا مورانوس، التي قُتلت في شيكاغو. لقد تحدثتُ إلى شخصٍ ما في القسم بدا وكأنه يطالع الملف للمرة الأولى. لكن ما فهمته هو أنها قُتلت في الزقاق خلف الفندق الذي أقام فيه آلان، وأنها كانت ترتدي ملابس توحي بأنها إما عاهرة أو كانت في الخارج في ملهى ما. أعني تنورة قصيرة وأشياء من هذا القبيل. أعرف أنها ليست معلومات وفيرة.

- لقد أحسنتِ صنعًا.

- هل فعلتُ؟ لا أعرف. أخبريني ماذا اكتشفتِ.

- لقد التقيتُ زوج جوزي نيكسون اليوم. أنا في السيارة الآن عائدة من وودستوك.

- كيف سار الأمر؟

- لم تقتل نفسها. على الأقل، أنا متأكدة بنسبة تسعٍ وتسعين بالمئة من أنها لم تفعل ذلك. لكن أهم ما علمته هو أنها كانت في علاقةٍ مفتوحة، وكانت تتطلع إلى مقابلة شخصٍ ما خلال المؤتمر.

- لتضاجعه؟

- أجل، كانت تلك هي الفكرة.

- هل أخبركِ زوجها بكل هذا؟

- أجل، قال إنها كانت متحمسة لذلك.

- مما يعني أنها تتلاءم مع الأخريات. هذا يعني أن زوجي يطارد النساء ليضاجعهن، ثم يقتلهن. لم يكن يكترث لكونهنَّ عاهرات أو يرغبن في ممارسة الجنس فقط، أو حتى إذا كنَّ مجرد معالجات تدليك يعتقد أنه قد يضاجعهن.

- إنكِ تبالغين في الاستنتاج.

- أعلم، أعلم. أعتقد أن عقلي بحاجة فحسب إلى استحضار الأسوأ بطريقةٍ ما. لكن إذا كان آلان مسؤولًا عن هذه الوفيات، فإن النمط الوارد هو أنه يبحث عن امرأةٍ شابة متاحة جنسيًّا. أعني، إنه ليس بالخارج يقتل رئيسات أقسام في الستين من أعمارهن.

- صحيح، أفهم ما تقصدين، كانت جوزي نيكسون تخاف بشدة من المرتفعات أيضًا.

- ممَّا يعني أنها لم تكن لتقفز عمدًا من شرفة المَهجع؟

- ممَّا يعني أنها لم تكن لتخرج إلى الشرفة عمدًا في المقام الأول.

- حسنًا.

- على الأقل هذا ما قاله ترافيس نيكسون. لقد كان مقنعًا. اعتقدت أنه سيكون شخصًا لا يستطيع قبول حقيقة أن زوجته ربما كانت لديها ميول انتحارية فحسب، لكنه لم يبدُ كذلك على الإطلاق.

- لكن إذا كانت تخشى المرتفعات حتى الموت فكما قلتِ: لعلها لم تخرج إلى الشرفة على الإطلاق. فكيف تمكَّن أحدهم من إخراجها إلى هناك؟

- أوه، هذا هو مخرجي. آسفة، فأنا أقود السيارة.

- هل نتحدث لاحقًا؟

- لا بأس، الأمر على ما يرام. نعم، فكرتُ في الأمر، موضوع الشرفة. إنه يمنحنا فكرةً عن أيٍّ نوع من القتلة قد يكون زوجكِ، إذا كان قاتلًا بالفعل. كنت أتساءل إن كان يخونكِ على نحوٍ قسري ثم يسيطر عليه الشعور بالذنب ويهاجم النساء. وأن قتلَهم وسيلةٌ لمعاقبة نفسه على خيانته، وهذا من شأنه أن يتطابق مع ضحايا الضرب المُبرح. لكن إذا جعل جوزي نيكسون تخرج إلى الشرفة رغم خوفها الشديد من المرتفعات، ودون استخدام أي قوة، فهذا يعني أنه أقنعها بالقيام بذلك. أستطيع أن أتخيل ذلك نوعًا ما، وهو يقول شيئًا مثل: «عليكِ أن تأتي إلى هنا وتري النجوم. فقط لا تنظري إلى الأسفل»، وما إلى ذلك. ثم يُلقي بها. قد يعني ذلك أنه لم تستبد به نوبة قتل جنونية، لقد كان هادئًا، وكان ذلك مع سبق الإصرار. كيف حالكِ مع كل هذا؟

- أنا بخير، إنني أصغي فحسب.

- ربما أنا أيضًا أقفز إلى استنتاجاتٍ كثيرة؟

- كلَّا، لا مشكلة. أنتِ تتكهنين. وإذا كان يفعل هذا، فهو بارعٌ جدًّا به. إنه لا يترك أيَّ دليل خلفه على الإطلاق، والجرائم التي يرتكبها لا تتناسب مع نمطٍ يمكن تمييزه. فالوفيات مختلفة بما يكفي بحيث لا يمكن لأحد أن يربطها. إذن ماذا نفعل الآن؟

- هل يمكنني أن أعاود الاتصال بكِ لاحقًا؟ فربما ضللتُ الطريق.

أسرعت مارثا الخطى وهي تفكر. ذهبت ووقفت عند الباب الخلفي في نهاية المطبخ، ونظرت عبر ألواح الزجاج نحو الفناء الخلفي لمنزلها. لقد كان منظرًا مألوفًا، إلا أنه قد تغير. لقد تغيرت حياتها. كانت ثمة حياة قبل أن تعرف من هو زوجها الحقيقي، والآن لم يعد هناك سوى ما بعد ذلك. وستقضي بقية حياتها فيما بعد. حدثت نفسها بأن مهمتها الوحيدة في الوقت الحالي هي معرفة الحقيقة. ولم يكن عليها أن تفعل ذلك بمفردها، كانت لديها ليلي. وعندما تكتشف الحقيقة، ستحرص على أن يُسجن آلان إلى الأبد. ثم ماذا بعد ذلك؟ ثم ستصبح زوجة قاتل متسلسل، أمينة المكتبة الغبية التي لم تكن تعرف من هو زوجها حقًّا. اندلعت بداخلها نوبةُ ذعر، سرعان ما أخمدتها. لا يهم ما يعتقده الآخرون. مهمتها الآن هي معرفة من هو آلان حقًّا. وقريبًا ستتحدث أكثر مع ليلي. ستشكلان خطة. ومن ثم سترحب بزوجها عند عودته وتتأكد من أنه لم يشك بشيء.

وبينما كانت عائدة إلى غرفة المعيشة ومعها الزبادي من الثلاجة، رنَّ هاتفها.

قالت ليلي: «أنا بالمنزل. كيف حالكِ منذ أن تحدثنا؟».

- أنا بخير. كل ما علينا فعله هو إنجاز ما يلزم إنجازه.

- صحيح. أخبريني مرةً أخرى عندما يغادر آلان في رحلته القادمة.

- سيذهب إلى ساراتوجا سبرينجز صباح الإثنين. يمكنني البحث عن ذلك، لكني أعتقد أنه مؤتمر للرياضيات والعلوم.

- سأذهب إلى ذلك المؤتمر.

- ماذا تعنين؟

- سأذهب إلى ساراتوجا سبرينجز. أحتاج على الأقل إلى أن أراه، يا مارثا، ربما أحصل على فكرةٍ بخصوص إذا كان يخطط لشيءٍ ما أم لا. وأحتاج إلى أن أبقيه تحت المراقبة، لأتأكد من أنه لن يؤذي أحدًا. لن أخاطر.

لم تستطع مارثا التفكير فيما تقوله.

قالت ليلي: «سوف أتبعه. إذا رأيتُ أيَّ شيءٍ مريب على الإطلاق، سأتصل بالشرطة على الفور».

- أتعدينني؟

- نعم. في اللحظة التي أعتقد فيها أنه يخطط لشيءٍ سيئ، سأبلغ عنه. سأكذب إذا اضطررتُ إلى ذلك. لن يؤدي ذلك بالضرورة إلى اعتقاله، لكني سأمنعه من إيذاء أيِّ شخص آخر. هذا هو الشيء الأكثر أهمية، أليس كذلك؟

- أوافقكِ الرأي، أنا فقط... لا أعرف ما أنا عليه.

- اسمعي، سأكون حذرة. لكن علينا أن نعرف على وجه اليقين، ألا تعتقدين ذلك؟

- ولكن ماذا لو حضر المؤتمر فحسب، ليبيع قمصانه، ثم يذهب إلى النوم مبكرًا كل ليلة؟

- إذن فسنكون قد عرفنا المزيد عنه.

قالت مارثا: «حسنًا». ثم أضافت: «أوه، تبًّا!».

- ماذا؟

راقبت مارثا من خلال نوافذها الناتئة آلان وهو يدخل سيارته إلى مدخل المنزل، عائدًا من أيٍّ كان ما يفعله خلال اليوم. قالت: «لقد عاد آلان».

قالت ليلي: «يمكنكِ التعامل مع الأمر».

- أعلم أنني أستطيع.

- ما عليكِ سوى اجتياز الأيام القليلة المقبلة، وبطريقةٍ أو بأخرى سنكون قد عرفنا المزيد عمَّا سيحدث في مثل هذا الوقت من الأسبوع المقبل.

***

الفصل الثالث عشر

كانت السماء تُمطر عندما وصلتُ إلى ضواحي ساراتوجا سبرينجز. لم أكن أعرف الكثير عن المنطقة سوى أنها بلدة مُنتجعيَّة بُنيت في الأصل باعتبارها وجهة لينابيعها الطبيعية، ثم تحولت بعد ذلك إلى بلدة معروفة بسباق الخيل. تخيلتُ أن المدينة الآن تبحث باستماتةٍ عن صناعةٍ أخرى تحتضر لتؤسس عليها اقتصادها، وربما وجدوها في استضافة المؤتمرات. مررتُ بمركز المؤتمرات العملاق بلافتته الإلكترونية الضخمة التي تتناوب بين الترحيب بمعلمي الرياضيات من الروضة إلى الصف الثاني عشر والترحيب بمُربِّي الدواجن في ولاية نيويورك. على بُعد ميلين تقريبًا من المركز، وصلت إلى امتداد الطريق المخصص للفنادق الصغيرة وسلسلة المطاعم الوطنية. مطعم أوتباك ستيك هاوس. وبافالو وايلد وينجز. ميلٌ آخر، وكنت في أرضِ النزل ذات الطابق الواحد، ومتاجر الجنس، والحانات التي ليس لها نوافذ. توقفت أمام نزل يعرض غرفًا مقابل 59.95 دولارًا في الليلة.

في الداخل، سجَّلتْ فتاة مراهقة ضجرة وصولي لمدة ليلتين. كانت ترتدي سماعات أذن، وعندما بدأنا في التفاعُل، سحبتْ إحداها وتركتها تتدلى على كتفها، بينما أبقت سماعة الأذن الأخرى في مكانها. عندما أخبرتُها أنني أريد أن أدفع نقدًا مقدمًا، لاحظت عينيها تنظران من فوق كتفي لترى إذا كان هناك عاشق مُسْتَتِرٌ ينتظر في سيارتي. بعد أن

أعطتني الباقي، قالت إنها بحاجةٍ إلى بطاقة ائتمان لتغطية النفقات الطارئة.

- مثل ماذا؟

- أعتقد كأن تقومي بتدمير الغرفة أو سَرقة مصباح أو شيء من هذا القبيل.

ابتسمت لي، ورأيت أنها تفتقد لعدة أسنان.

قلت: «حسنًا»، وسلمتُها بطاقتي. أخذت بصمتها باستخدام إحدى ماكينات بطاقات الائتمان القديمة تلك، حيث وضعت قصاصة من الورق فوق البطاقة، ثم مررت شريطًا معدنيًّا عبرها للحصول على بصمتها.

- سوف نتخلص من هذه إذا كانت الغرفة على ما يرام بعد إقامتك.

قلت: «شكرًا»، وأخذتُ المفتاح من فوق المنضدة.

حركتُ السيارة حتى أصبحت الآن متوقفة أمام باب غرفتي. كانت الغرفة نظيفة بشكلٍ مدهش من الداخل، ولكن بسيطة للغاية. لم يكن هناك سوى قطعة فنية واحدة، وهي مطبوعة حصان سباق مُثبتة على الحائط.

تساءلتُ لوهلة إن كنت مفرطة في الحذر، باختياري لنُزل مجهول وتجنبي الطرق ذات الرسوم في طريقي من شيبوج. كان كل ما خططتُ لفعله في ساراتوجا سبرينجز هو مراقبة آلان بيرالتا، ومعرفة كيف يتصرف وهو مسافر، بعيدًا عن زوجته. ربما قد ألتقيه، وربما لا. ومن ثم يمكننا أنا ومارثا أن نستخدم تلك المعلومات لاتخاذ قرار بشأن تسليم زوجها للشرطة. لم تكن لديَّ أي نية للاعتناء ببيرالتا بنفسي، بالطريقة عينها التي اعتنيتُ بها ببعض الجناة المفترسين في الماضي، حتى لو اكتشفت أنه قاتل. هذه المرة، سأجد طريقة أخرى. ومع ذلك، لا تعرف

أبدًا ما قد يحدث، وقد تعلمت أن كَونك مجهولًا أفضل بكثيرٍ من أن يلاحظك أحد.

أفرغت أمتعتي في غرفة النزل، ثم أرسلت رسالة نصيَّة إلى أمي أخبرها أنني وصلت بأمان. اعتقد والداي أنني ذاهبة إلى منزل إحدى صديقاتي في بيركشايرز. وقد استخدمت اسم مارثا باعتبارها تلك الصديقة، وأنا أذكرهما بأننا عدنا إلى التواصل بعد أن تعرفنا على بعضنا بعضًا في كلية الدراسات العليا. اعتقدت أن كليهما بدا متشككًا، على الرغم من أن شكوك والدتي كانت على الأرجح أنني أحظى بعلاقة غرامية متقدة لم تكن على علمٍ بها، في حين أن شكوك والدي كانت على الأغلب أنني سئمت من كوني قائمة على رعايته وكنت أتخلى عنه.

لم يبدأ المؤتمر رسميًّا حتى الظهيرة، لكن مارثا قد أخبرتني أن البائعين يجهزون مبكرًا صباح اليوم الأول. من الواضح أن فكرة القيادة في الليلة السابقة للمؤتمر كانت قد غازلت آلان، ولكنه قرر توفير المال والمغادرة في وقت مبكر للغاية من اليوم. اقتضت خطتي أن ألقي نظرة عليه هذا الصباح، وربما أسمح له أن ينظر إليَّ، ثم أعود إلى مركز المؤتمرات في الساعة الخامسة، عندما يتوقف البائعون عن العمل لهذا اليوم. في الحقيقة، أردت أن أراقبه فحسب.

بعد أن ارتديت زِيَّ حضور المؤتمر -تنورة سوداء، وبلوزة خضراء حريرية، وحذاء بكعب ثلاثة أرباع- غادرتُ النزل وتوجهت إلى وسط المدينة وأوقفت السيارة عند عدَّاد انتظارٍ يعمل بالعملات النقدية. دخلت عبر الأبواب الدوَّارة إلى داخل الفندق ومركز المؤتمرات الغائر. حيث يقود دَرج واسع إلى طابق رئيسي لا بدَّ أنه بحجم ملعبين لكرة القدم. على اليمين كانت منطقة تسجيل الوصول والاستقبال، بالإضافة إلى منطقةِ جلوسٍ كبيرة مليئة بالكراسي والأرائك الفخمة ومُحددة بصفوفٍ

من أصص النباتات. إلى اليسار، عبر مساحة من السجاجيد المُزخرفة بألوانٍ زاهية، كان هناك بار ومطعم من طابقَين، يطلق عليهما اسم فيسيس، وفقًا لبعض النصوص المكتوبة المحفورة على حاجزٍ زجاجي كبير. كان المعلمون والإداريون مصطفِّين أمام طاولات التسجيل، أو كانوا يتجولون في مجموعاتٍ صغيرة، يتحدثون وينظرون إلى برامجهم. وقد امتلأ الهواء بضجيج آلاف الأصوات، التي اختلطت معًا في همهمةٍ لا معنى لها. صوت الحشرات الطنَّانة في فصل الصيف.

اتبعتُ لافتة توجهني نحو البهو أ والبهو ب وقاعة المعرض. عندما وصلتُ إلى نهاية رواق طويل مفروش بالسجاجيد، رأيت سيلًا مستمرًّا من المشاركين في المؤتمر، معظمهم يحملون حقائب كبيرة مُعلقة على أكتافهم، يأتون ويخرجون عبر الأبواب الدوارة المفتوحة لقاعة المعرض. دخلتُ محاولة أن أبدو وكأنني أنتمي إلى هناك. كانت القاعة عالية السقف وأكبر حتى من مساحة الردهة/البار التي أتيت منها للتو. كان هناك صفٌّ تلو الآخر من أجنحة العارضين، ومعظمهم من دور نشر الكتب المدرسية أو شركات البرمجيَّات. وحوت أكبر الأجنحة منصات للعروض التقديمية ومناطق للجلوس، بالإضافة إلى قطع من السجاجيد جُلِبت وثُبِّتت بشريطٍ لاصق لتغطية أقسامها من الأرضية الخرسانية المصبوبة. كانت بعض الأجنحة لا تزال قيد التجهيز، ولكن بدا معظمها جاهزًا للانطلاق، حيث يجري البائعون المتفائلون تعديلات على بضائعهم في اللحظة الأخيرة أو يقفون أمام أجنحتهم على استعدادٍ لتقديم عروضهم. بينما يتجوَّل المشاركون في المؤتمر بلا هدف صعودًا وهبوطًا في الصفوف. غادرت المنطقة التي بدا أن أبرز العارضين موجودون فيها وتجولت في الجزء الخلفي من القاعة. استغرق الأمر منِّي تقريبًا خمس دقائق، لكنني وجدتُ في النهاية جناح بيرالتا، في

أقصى الجزء الخلفي من المساحة المخصصة للعارضين. كان بسيط التجهيز، مجرد طاولة بيضاء قابلة للطيِّ وخلفها كرسي واحد، وخلف الكرسي خلفية سوداء، معلق عليها قمصان وربطات عنق وحتى بعض الملصقات المُؤطَّرة المخصصة للفصول الدراسية. أحدهم كُتِب عليه **أسلحة تعليم الرياضيات** (weapons of math instruction) وعليه صور للمساطر والرسوم البيانية والبوصلات. وآخر كُتِب عليه **دعونا نحظى بلحظةِ عِلم** (let's have a moment of science). وكان آلان بيرالتا هناك أيضًا، حيث رتَّب العناصر المعروضة للبيع على الطاولة المواجهة للجناح.

كنت أتمنى ألَّا يكون هناك أحد بحيث أتمكن من التحدث معه على انفراد، ولكن كان هناك حشدٌ صغير صاخب، ثلاثة معلمين في منتصف العمر يضحكون بصخب وهم يقرأون بصوتٍ عالٍ ما كُتب على القمصان والشارات المعروضة. بدا بيرالتا عازمًا على الانتهاء من تفريغ أمتعته، وتجاهلهم. كان يرتدي بنطال بذلة داكنًا وقميصًا أبيض بياقة، ويرتدي ربطة عنق مزينة بمعادلات رياضية. منذ أن أرتني مارثا صورة له، وأنا أحاول معرفة بمَن يذكرني، والآن وأنا أراقبه أدركت فجأة من يشبه. كان يشبه الشاب جي دي سالينجر الذي رأيته في الصور. خط الشعر نفسه، الجبهة الطويلة نفسها، والحواجب الكثيفة، والجسد النحيف، والهزيل نفسه تقريبًا.

تجولت بعيدًا، وابتعتُ بوريتو لوجبة الغداء من أحد البائعين الموجودين خارج مركز المؤتمرات مباشرةً. لم تكن تُمطر، ولكن كان عليَّ أن أمسح مقعدًا لكي أجلس وأتناول طعامي. بعد تناوُل الطعام، أغمضت عينيَّ لحظة ورفعت وجهي نحو الشمس التي اخترقت الغيوم للتو لتعلن عن ظهورها. ثم جهزتُ نفسي للعودة إلى قاعة المعرض. لقد

حضرت مؤتمرات كبيرة من قبل، ولكن ليس لفترة طويلة، وتذكرت كيف اتحدت الإضاءة الفلورسنتية والأصوات المتنافرة لتستنزف كل طاقتي. في الداخل، انتظرت في صفٍّ لا نهاية له في مقهى ستاربكس وطلبتُ الشيء نفسه الذي طلبته المرأة التي أمامي، وهو شيءٌ بارد مع جرعة مزدوجة من الإسبريسو والكثير من شراب السكر المُنكَّه. لم يكن من النوع الذي أفضِّله، لكني كنت بحاجة إلى شحن طاقتي.

كان الحشد في القاعة قد تضاءل الآن بعد أن بدأت الجلسات الأولى، وعندما وصلت إلى جناح بيرالتا، شعرت بالسعادة لرؤية عميلٍ واحد فقط هناك، رجلٌ يرتدي سترة صوفية دون أكمام كان نصف ملتفتًا لينظر إلى البضاعة، وعلى وجهه ابتسامةٌ ساخرة. تقدمتُ إلى الجناح ونظرت إلى الأشياء المعروضة. كانت هناك العديد من ربطات العنق، كلها إما تتعلق بمواضيع علمية أو رياضية، ثم كانت هناك أوشحة مخصصة للنساء. مَدَّ السيد ذو السترة يده ولمس إحدى ربطات العنق، ثم انتقل من جانبي وابتعد.

- هل أنتِ معلمة رياضيات أم علوم؟

رفعت رأسي لأنظر إلى بيرالتا. كان طويل القامة لدرجة أنني رأيتُ بقعة صغيرة فاتَهُ أن يحلِقها على طول خط فكِّه السفلي صباح ذلك اليوم.

قلت: «رياضيات»، ثم تراجعتُ خطوةً إلى الوراء وتفحصت بعض الملصقات التي ظهرت على خلفية الجناح السوداء.

قال، وهو يريني أحد تلك الرفوف التي يمكنك تصفحها مثل كتاب ضخم: «ثمة رف هنا، به كل المُلصقات».

- امم.

- أين تُدَرِّسين؟

نظرتُ إليه لبضع ثوانٍ، كما لو كنت أقرر ما إذا كان الأمر يستحق أن آخذ من وقتي للإجابة عن سؤاله، ثم قلت: «في الواقع، أنا بلا عمل حاليًا. إنها قصةٌ طويلة، ولكن في الشهر الماضي تركت ولاية، ووظيفة، وعلاقة، والآن انتقلت إلى مكان قريبٍ من هنا وأتساءل ماذا سأفعل بعد ذلك».

- لا أعرف الكثير، لكني أعلم أنهم دائمًا ما يبحثون تقريبًا عن معلمين لتوظيفهم في ألباني.

- أوه، حقًّا؟

- أخشى أن هذا هو مدى معرفتي بالموضوع.

- حسنًا، هذا مفيد. هل يوجد معلمون من ألباني هنا في هذا المؤتمر؟

- أوه أجل. مجموعةٌ ضخمة.

قلتُ: «شكرًا لك»، بينما انحنيت لأتفحص صندوقًا من الدبابيس.

كنت أعتقد أن بيرالتا ربما سيحاول أن يبيعني شيئًا ما، لكنه كان يلتزم الصمت.

- الحقيقة هي أنني لا أعرف حتى إذا كنت أرغب في الاستمرار في تدريس الرياضيات أو الاستمرار في التدريس على الإطلاق. أحبُّ الرياضيات. أنا جيدة في ذلك، لكني لا أعتقد أنها تمثل شغفًا لي بعد الآن.

- إذن ما هو شغفك؟

نظرتُ إليه، ولم أرَ في عينيه سوى اهتمام بسيط. أجبت: «أعلم أن هذا جنون، لكنني مهووسة رياضيات وَقَعتْ في حب الأدب. أحيانًا أعتقد أنني فهمت حياتي بشكلٍ خاطئ تمامًا».

ابتسم وقال: «أقدم أيضًا سلعًا لمُعلمي اللغة الإنجليزية في المؤتمرات».

- أوه حقًّا؟

- الجناح نفسه، سلع مختلفة.

- أتخيل ذلك.

ارتطمت بي من الخلف امرأة تحمل حقيبتَي تسوق ضخمتين ومكتظتين للغاية لتلقي نظرة عن كُثب على الأوشحة المعروضة. بدأت تضحك. نظرتُ إلى بيرالتا مباشرة في عينيه، بما يكفي لأحفظ لونهما عن ظهر قلب، ثم رفعتُ حاجبيَّ قليلًا وقلت: «أنا آدي».

رد قائلًا: «آلان». وشاهدت عينيه تتحركان، تتفحصان جسدي فجأة، ليس بوضوحٍ تام، ولكنه ليس على نحو غير ملحوظ كذلك. رمش بعينيه سريعًا، ربما مدركًا أنني ضبطته. أخبرته أنني أتطلع إلى رؤيته لاحقًا، ثم مضيت قدمًا.

تجولت على طول أطراف قاعة المعرض حتى وصلت إلى المخرج، وأنا أفكر في رد فعل آلان تجاهي عند جناحه، وكيف بدا غير مؤذٍ وفي الوقت نفسه يغازلني. أعتقد أن جزءًا منه أرادني أن أرى أنه يتفحص جسدي. ما لم أستطع فهمه هو ما إذا كان يريدني أيضًا أن أرى ارتباكه المفاجئ بسبب ذلك. كان الحيوان الذي ذكرني به هو الأرنب، لم يكن ذلك بسبب أنفه الطويل الرفيع وأذنيه فحسب، بل لأنه في المقام الأول تحول من الهدوء إلى التقلب أمام عينيَّ. قلت لنفسي إن الأرانب فريسة، بينما اندمجتُ مع مجموعة كبيرة من المعلمين الذين يتحركون ببطء وهم يشقون طريقهم من القاعة عائدين إلى بهو المركز. لكن الكثير من الفرائس هي أيضًا حيوانات مفترسة. القطط عل سبيل المثال. وبدا لي واضحًا أن بيرالتا قد يكون واحدًا من هؤلاء البشر الذين يجمعون بين الأمرين. فليس في مقدور الجميع أن يكونوا على قمة الوحوش المفترسة في هذا العالم.

***

الفصل الرابع عشر

وقفتُ عند حافة منطقة البار، وأنا أتساءل أين أجلس. أردت أن أكون بطريقةٍ ما مرئية ومعزولة في آنٍ واحد. وإذ بمجموعةٍ صغيرة تنهض من إحدى الطاولات المرتفعة خلف منصة المضيفة الخالية مباشرةً، فذهبتُ وجلست بمفردي. بقيتُ هناك لمدة عشرين دقيقة تقريبًا قبل أن تُنَظَّف الطاولة ويعاد ترتيبها. بعد ذلك، طلبتُ جعة الزنجبيل في كأسٍ قصيرة منخفضة مع مُكعبات الثلج وشريحة ليمون. كنتُ قد أحضرتُ كتابًا معي، وهو نسخة ورقية من رواية «موت عالِم طبيعة» (Death of a Naturalist) للكاتب شيموس هيني Seamus Heaney.[1]

عندما وصل مشروبي، فتحتُ الكتاب على نحوٍ عشوائي، مستقرة على قصيدة العنوان. وظننت أنني ربما قد قرأتها من قبل، لا سيما وأنَّني كنتُ قد التحقتُ بدورةٍ عن الشعر الأيرلندي المعاصر في كلية

---

(1) شيموس جستن هيني: عضو في الأكاديمية الملكية الأيرلندية (13 أبريل 1939 – 30 أغسطس 2013) شاعرٌ أيرلنديٌّ، وكاتبٌ مسرحي ومُترجم. حاز على جائزة نوبل في الأدب في عام 1995. من أشهر أعماله وفاة عالِم طبيعة (1966)، وهو أول مجلد كبير ينشره. اعتُبر هيني واحدًا من المساهمين الأساسيين في الشعر خلال حياته. وصفه الشاعر الأمريكي روبرت لويل بأنه «أهم شاعر أيرلندي منذ ييتس»، وقال الكثير غيره، بما فيهم الأكاديمي جون سذرلاند، أنه كان «أعظم شعراء عصرنا». صرح روبرت بينسكي قائلًا: «إضافة إلى رؤيته الثاقبة وسَمعه المرهف، يمتلك هيني موهبة القاصّ». عقب وفاته في عام 2013، وصفته صحيفة ذا إندبندنت بأنه «أشهر شاعرٍ في العالم على الأرجح».

ماذر. ورغم ذلك، لم تبدُ لي مألوفة، فقرأتها مرتَين. كانت قصيدة عن تلك المرحلة التي يتحول فيها اهتمام الطفل بالعالم الطبيعي فجأة إلى الاشمئزاز. فكرتُ أن شيئًا كهذا ربما قد حدث لي، منذ زمنٍ بعيد، ولكنني بالأحرى اكتشفتُ حقيقة البشر، ووجدتُ ذلك مثيرًا للاشمئزاز. ليس للحيوانات والنباتات حيلةٌ فيما يفعلون. حاولت أن أتذكر رأي والدي في شيموس هيني، وتمكنتُ بطريقةٍ ما من سماع صوته وهو يقول شيئًا من قبيل: «هذا الرجل يعرف كل كلمات الطبيعة». لم أكن متأكدةً إن كان هذا ما قاله حقًّا، أم إنه مجرد شيءٍ يُمكنني تخيُّله ينطقُ به. رفعتُ نظري عن الكتاب، ورأيت الحانة تزدحم، والضجيج يتصاعد مُشكلًا ذلك الصخب عديم اللحن. على الرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة مساءً، فإنه كان من الواضح أن جميع جلسات اليوم قد انتهت وأن الغالبية العظمى من الحضور قد تقاطروا على البار. فتشت الغرفة بحثًا عن شخص يشبه بيرالتا ولكن لم أره.

- هل هذا المقعد محجوز؟

كان هذا رجلًا في مثل عمري، لا يزال يرتدي شارة اسمه، ويحمل جعة فاتحة اللون.

- لا. اجلس رجاءً.

استقرَّ على الكرسي، ممَّا ضيَّق قميصه الأبيض عند الأزرار وهو يجلس: «تقرئين الشعر في مؤتمر للرياضيات والعلوم، أليس كذلك؟».

- وكيف تعرف أنني لستُ هنا لحضور مؤتمر مُربِّي الدواجن؟

- صحيح، لقد نسيت ذلك. أنتِ لا تبدين مثل مربي الدواجن، لكنني لست متأكدًا من أنكِ تبدين مثل معلمة كذلك.

شرعتُ بسردِ قصتي المعتادة، بينما عيناي تَجُولانِ بين الحشودِ التي تغدو وتروح. استمعَ الرجلُ باهتمامٍ بالغ، وهو يَطَّلِعُ عليَّ من خلفِ

نظارته ذات الإطار المعدني. كانت لحيته مشذبة جيدًا، أما جلد رقبته فكان مليئًا بحروق ماكينة الحلاقة. أخبرني أنه مدرس رياضيات في مدرسة ثانوية من فيرمونت، واستطعتُ أن أتخيله على الفور أمام فصله، أشعث ومتعرقًا. لم يكن يرتدي خاتم زواج، لكنني اعتقدت أنني أستطيع رؤية خط باهت حيث يرتديه عادةً. وتساءلت إذا كان مطلقًا حديثًا، أم متزوجًا يتطلع إلى الخيانة. سألتهُ إن كان يعتقد أن طلابه قد تغيروا على مرِّ الأعوام، وذلك فقط لإطالة الحديث قليلًا بحيث أتمكن من مراقبة الحشود.

هتف وهو ينهي جعته ويلقي نظرةً خاطفة حوله بحثًا عن نادلة: «أوه، يا إلهي، لقد تغيروا كثيرًا، ألا تعتقدين ذلك؟».

بينما كان يتحدث، أخذت أراقبُ الغرفة. كان بيرالتا طويل القامة، لذلك أبقيتُ ناظري موجهًا لأعلى، وأنا أتفحص رؤوس الحاضرين. تهادت نادلَةٌ بجوارنا، فطلب أستاذ الرياضيات جعة أخرى، وعرضَ عليَّ أن يطلب لي شيئًا ما. ولمَّا كانت ثمة رشفتان متبقيتان في كأس جعة الزنجبيل خاصتي، أبلغتهُ بأنني لا أريد شيئًا.

كان في مُنتصف قصةٍ عن مُصادرة هاتف أحد الطلاب، عندما شاهدت بيرالتا عند البار. وقد وصل هناك للتو، محاولًا لفت انتباه النادل. وعندما فعل ذلك أخيرًا، أشار إلى أحد صنابير الجعة. ودفع نقدًا، ثم استدار وأسند ظهره إلى البار واحتسى جعته، وهو يتفحص الحشد. اعتقدت أنه من المحتمل أنه يبحث عني وتساءلت إذا كان ينبغي لي أن أقول شيئًا لا يُغتفر لمعلم الرياضيات حتى يرحل. لكن وبينما أراقبه، إذ ببيرالتا يُنهي جعته بسرعة ويعيد الكأس الفارغ إلى البار. كان يرتدي قميصًا أبيض بياقة، مماثلًا للقميص الذي ارتداه سابقًا في جناحه، ولكن هذه المرة كان مدسوسًا في بنطال جينز غامق بدلًا من سروال

البذلة. بدا وكأنه يحمل سُترة جلدية، يحملها تحت ذراعه اليسرى. شرع بالتحرك بخطى ثابتة عبر ساحة البهو الواسع، متجهًا على ما يبدو إما نحو المصاعد أو المدخل الرئيسي.

سألني مدرس الرياضيات سؤالًا للتو، فأجبته: «عذرًا، أنا على وشك أن أكون وقحة للغاية. لقد رأيت للتو شخصًا أعرفه يغادر المكان، وأنا ذاهبة لألحق به. هل ستكون موجودًا هنا لاحقًا؟».

قال وهو ينفخ صدره ويضحك على دعابته: «أول من يدخل الحانة وآخر من يغادر».

بمجرد أن وقفتُ وبدأت بالتحرك، لمحت بيرالتا يخرج من الفندق، وهو يسير بخطى سريعة. أسرعتُ، وأنا أرتدي معطفي، وبينما كنت أنزل الدَّرج العريض المكسو بالسجاد المؤدي إلى المخرج، إذا برجل يسير بسرعة أكبر مني يتجاوزني، ولامست كتفه كتفي وهو يمر بجانبي. وصل إلى الأبواب الدوارة قبلي مباشرةً واندفع يشق طريقه عبرها. سمحت لمجموعةٍ من النساء بأن تتقدمني، ثم مررت بنفسي عبر الأبواب الدوارة وخرجت إلى الليل البارد. انعطفت يمينًا، وبعد مبنى سكني من نهاية الشارع، استطعتُ أن أرى بيرالتا في سترته الجلدية السوداء، يمشي الهوينى الآن، ويداه في جيوبه. شرعتُ في ملاحقته، وأنا أُزرر معطفي.

كنَّا في طريق واسع، تصطف على جانبيه المتاجر والمطاعم، لكن الرصيف كان خاليًا في الغالب، وتمكنت من مراقبته. كان يسير بيننا الرجل الذي كاد يصطدم بي على الدَّرج. كان طويل القامة أيضًا، لكنه يرتدي معطفًا واقيًا من المطر بلونٍ حِنْطِيٍّ فوق بذلة ويحمل مظلة. أمامنا، أبطأ بيرالتا من سرعته فجأة، وانحنى قليلًا ليُلقي نظرةً على شيءٍ ما في النافذة المجاورة لمدخل مغطى بمظلة. كان على الأرجح يقرأ

قوائم الطعام. خففت من وتيرة سيري ثم توقفت، متظاهرة بأن نافذة فارغة لمتجر متعدد الأقسام بائد قد صرفت انتباهي. عندما تطلعت إلى الأعلى، رأيت بيرالتا يتحرك مجددًا، وهنا لاحظت أن الرجل الذي كان بيننا، ذلك الرجل ذو المعطف الواقي من المطر باللون الحنطي والقادم من فندقنا نفسه، قد توقف هو الآخر، وانحنى ليَربِط حذاءه.

واصل ثلاثتنا السير. وبعد خمس دقائق، انعطف بيرالتا يمينًا إلى شارع جانبي، وكذلك فعل الرجل الذي كان بيننا. أصبحت الآن واثقة مئة بالمئة أنني لست الوحيدة التي تلاحق بيرالتا. وانتابتني رعشة من الإثارة. لم قد يكون شخصٌ آخر مهتمًّا بيرالتا؟ هل هو محقق شرطة بملابس مدنية؟ ربما كان عشيقًا، رجلٌ متزوج آخر، يتجهان معًا إلى إحدى الحانات.

كان الشارع الذي سلكناه مصطفًّا بالأشجار ومحتشدًا بحانات ومطاعم ومتاجر أصغر حجمًا وأكثر إثارة للاهتمام. أبطأ بيرالتا سرعته، وكذلك فعل الرجل الذي كان يتبعه. عبرتُ إلى الرصيف المُقابل، معتقدة أنني أستطيع مراقبتهما من موقع أفضل. أسرعتُ الخطى قليلًا لمحاولة إلقاء نظرة جيدة على الغريب من الفندق، لكن كل ما أمكنني رؤيته حقًّا أنه كان يملك شعرًا أشقر داكنًا قصيرًا ومِنكبَين عريضَين. تحتَّم عليه أن يواصل التباطؤ في مشيته، إذ أصبح من الواضح الآن أن بيرالتا يبحث عن مطعم، حيث كان يتوقف باستمرار لقراءة قوائم الطعام. وفي النهاية، اختار بيرالتا مطعمًا، وهو مطعم شواء يُدعى «ريدز» (Red's)، وكان الجزء الداخلي المزدحم للمطعم ظاهرًا خلف نافذة كبيرة مصنوعة من الزجاج. اندفع إلى الداخل عبر بابه الأمامي، ثم سار الغريب بجانب المطعم، وألقى نظرة سريعة عبر النافذة وتوقف قليلًا. توقعتُ أن يتبع فريسته إلى الداخل، لكن بدلًا من ذلك، اتجه بخطى بطيئة نحو معبر المشاة وشقَّ طريقه إلى جانبي من الشارع.

كنت أمام متجر ملابس مُغلق وكان ثمة مقعد على الرصيف، على الأرجح وُضِع بحيث يتمكن الأزواج من الانتظار بينما تتسوق زوجاتهم في عطلاتهن. جلست وأخرجت هاتفي وتفحصته، بينما يعود الغريب أدراجه متجهًا نحوي، وهو يسير ببطء، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مشيته من الأمام. لم تتحرك سوى ساقاه الطويلتان، وبالكاد دارتْ رُدفاه، أما ذراعاه فكانتا تتأرجحان في أقواسٍ صغيرة. تحرك بثقة هائلة، وكان هناك شيءٌ ما يشبه حركة القط في مشيته. عندما اقترب أكثر، مارًّا أسفل مصباح الشارع الذي كان مضاءً للتو، تمكنت من إلقاء نظرة فاحصة. كان شعره مختلفًا، أغمق قليلًا، وكان يرتدي نظارة، لكنَّ الوجه هو نفسه. فكٌّ عريض وعظام وجنتَين مرتفعة. لديه تجاعيد أكثر بقليلٍ ممَّا تذكرتُ، ولكنه لا يزال يمتلك وسامةً تخطف الأنفاس.

إيثان سالتز.

مرَّ بجانبي مسرعًا دون أن ينظر تجاهي، ثم انسلَّ إلى حانة تدعى «لوست آند فاوند» (Lost and Found). تجمدتُ في مقعدي، وعقلي يدور باحتمالاتٍ لا حصر لها. لماذا كان حبيب مارثا السابق من الدراسات العليا يلاحق آلان بيرالتا؟ لا يمكن أن يكون الأمر مَحض صدفة، أليس كذلك؟ أعدتُ هاتفي مرة أخرى إلى جيب سترتي وحاولت التفكير. أجل، لقد كان يُلاحق بيرالتا. كنت متأكدة من ذلك. والآن قد اختبأ في مكانٍ على الجانب الآخر من الشارع، على الأرجح لتناوُل عشاء سريع بينما يتناول بيرالتا العشاء في مكانٍ قريب.

في خضم هذه الأفكار، فُتِح باب الحانة التي دخلها إيثان سالتز مرة أخرى وخرج عائدًا إلى الرصيف. التفتُّ عند سماع الصوت ونظرنا مباشرةً إلى بعضنا بعضًا.

قال وهو يسير نحوي: «اعتقدت أنكِ تبدين مألوفة».

- وأنت أيضًا مألوف بالنسبة لي.

- هل التحقتِ بكلية بيركبيك منذ ما يقرب من مئة عام؟

ابتسم وهو يقول ذلك، كما لو كان يُلقي جملة تدرب عليها مسبقًا.

قلت: «أجل». أومأ برأسه ببطء، فاستطردت: «هل تعيش هنا؟».

كان هناك وميضٌ خافت في عينيه، وعقله يحسب ما سيخبرني به: «في الواقع لا، لكني أحب أن أزور هنا. ماذا عنكِ؟».

ولوهلة فكرتُ في قول الحقيقة، أن أقول ببساطة: «أوه، أنا هنا لأتعقب زوج مارثا آلان بيرالتا. نعتقد أنه قد يكون قاتلًا، لكنك تعرف شيئًا عن ذلك، أليس كذلك؟ لقد كنت تتعقبه أيضًا».

وبدلًا من ذلك، قلت: «أنا الآن معلمة وأحضر مؤتمرًا هنا نوعًا ما. إنني أبحث عن وظيفة».

قال: «هذا مثيرٌ للاهتمام». وأوضحت ابتسامته الذئبية العريضة أنه لم يصدقني. وقف كلانا بهدوء على الرصيف عند الغسق للحظة. كنت أعلم أنه يكذب، وأعتقد أنه كان يعلم أنني أكذب كذلك. وربما لأن موقفنا لم يكن سخيفًا بما يكفي، فُتح باب مطعم شواء ريدز على مصراعيه وصعد آلان بيرالتا إلى الرصيف المقابل لنا، وبدا أنه تناول مشروبًا في البار فقط ولا شيءَ أكثر من ذلك. نظر كلانا إلى آلان ثم نظرنا إلى بعضنا بعضًا، وضحك إيثان.

قلت: «هل هناك شيءٌ مضحك؟».

- أتقولين لي إنكِ لا تعرفين من هذا الذي هناك؟

- الرجلُ عبر الشارع الذي يبدو مثل جي. دي. سالينجر؟

ضحك مرةً أخرى، ومن الواضح أنه يستمتع بوقته: «هذا اللعين بالفعل يشبه جي. دي. سالينجر. أتعلمين، من الواضح أنني اخترتُ

الطالبة الخطأ لمُلاحقتها عندما كنت في بيركبيك. إنني أتذكركِ الآن. أتذكر أنك تدخلتِ في علاقتي مع مارثا راتليف».

- كان هناك سببٌ لفعل ذلك. أنا متأكدة من أنك لست بحاجةٍ إلى أن أذكرك بهذا.

- أعتقد أنك تتدخلين الآن أيضًا.

تغير اتجاه الريح ومرَّ غبار خفيف من المطر عبرنا نحن الاثنين. ومع ذلك، لم يجفل أيٌّ منَّا، وظلت مظلة إيثان مطوية بجانبه.

- بصراحة، ليست لديَّ أي فكرة عمَّا تعنيه؟

- ما اسمكِ مجددًا؟

- لم قد أخبرك بهذا؟

- لأنني أستطيع أن أعرف على أي حال. أعتقد أنني أعرف سبب وجودكِ هنا حقًّا، وكل ما سأقوله لكِ هو أنه يجب عليكِ الاهتمام بشؤونكِ الخاصة.

قام بحركةٍ مفاجئة، ورفع مظلته، واعتقدتُ للحظة أنه سيضربني، لكن سيارة أجرة صفراء توقفت عند الرصيف المجاور لنا. قال بينما يفتح الباب: «هل يمكنني أن أوصلكِ إلى مكانٍ ما؟».

- كلَّا، أنا بخير هنا.

- تسعدني رؤيتكِ مرة أخرى، يا ليلي. لم تتغيَّري على الإطلاق.

قال هذا قبل أن تنطلق سيارة الأجرة بسرعة بعيدًا عن الرصيف.

***

الفصل الخامس عشر

كُتب في نص الرسالة: اتصلي بي عندما تسنح لكِ الفرصة. لديَّ بعض المستجدات.

أرسلتها ليلي في السادسة والنصف، أي قبل ثلاث ساعات تقريبًا. لكن مارثا كانت قد خرجت لتناوُل الطعام بمفردها، ولم تلمس هاتفها في حقيبتها المعلقة على خُطافٍ أسفل حافة البار. وقد أخذت تتفحصه الآن فقط لأنها دفعت الفاتورة للتو.

قال النادل: «هل يتساءلُ زوجكِ عن مكانك؟».

أجابت مارثا: «أوه لا، شيءٌ آخر».

والحقيقة أن أحد الأسباب التي جعلتها لا تتحقق من هاتفها طوال الليل هو أنها كانت تتحدث إلى النادل. كانت في مطعم على مرمى حجرٍ من منزلها، مكان لم يسبق لها زيارته من قبلُ. في وقتٍ سابق من المساء، وجدت مارثا نفسها تتجول في أرجاء منزلها بحالة من الشرود، غير قادرة على اتخاذ قرار بشأن ما ينبغي فعله لاحقًا. وبعد أن قررت تناوُل الطعام، وجدت نفسها تُحدق إلى خزانة مطبخها، متجمدة في مكانها. وهي تتنفس ببطء.

ثم أمسكت بمعطفها وحقيبتها ومفاتيح المنزل، وفي غضون دقائق، أصبحت خارج المنزل في ضوء الغسق، تسير من منزلها إلى الواجهة

البحرية. وبعد أن قطعت نصف ميل تقريبًا، شعرت كما لو أنها تستطيع التنفُّس بشكلٍ كامل. فانعطفت إلى الزاوية وأبطأت خُطاها. لم يكن هناك ما يمكنها فعله الليلة، لا شيء سوى انتظار أنباء ليلي التي لم تكن وافتها بعد بأيِّ نوعٍ من المستجدات. ليس أنها كان من المفترض بها أن تفعل ذلك. فقد سبق وأخبرت ليلي مارثا بألَّا تنتظر أيَّ تقارير، وأنها سترسل إليها رسالة نصيَّة أو تتصل بها فقط إذا كان الأمر مهمًّا. لكن رغم حقيقة قولها ذلك، كانت مارثا لا تزال تنتظر أن تسمع شيئًا، أي شيء. فقد كان الصمت لا يطاق.

رغم قلقها، أو ربما بسببه، أدركت مارثا أنها جائعة. تجاوزت حانة محلية تُدعى «ميوريلز» (Muriel's)، وهو مكان كانت ترتاده مع آلان، ثم توقفت أمام مطعم شرائح لحم لم تذهب إليه من قبل يُدعى «فلاجشيب» (Flagship). ودون تردُّد، دلفت إلى الداخل، فتطلعت إليها مضيفة ترتدي قميصًا أبيض ناصعًا وصَدْرِيَّة سوداء من خلف موقعها.

قالت مارثا: «شخصٌ واحد فقط، لتناول العشاء».

- يمكنني أن أجلسكِ إلى طاولة أو عند البار، إذا كنتِ تفضلين ذلك.

قالت مارثا إنها تفضل طاولة، إذ إنها لا ترغب في التحدث إلى أيِّ شخص، فقادتها إلى غرفة معتمة مجهزة لتبدو مثل مكتبة، وقدمت لها قائمة طعام كبيرة الحجم. كانت ليلة إثنين، وكان المكان هادئًا تمامًا، لم يكن فيه سوى زوجَين على بُعد بضع طاولات، يتناولان شرائحهما بصمت. وعندما اقتربت إحدى النادلات بخفة، قالت مارثا أنها غيَّرت رأيها وربما تُفضل أن تتناول الطعام عند البار. وجهتها النادلة، منزعجة، في الاتجاه الصحيح، وسرعان ما شعرت مارثا بسعادةٍ أكبر بعد أن انزلقت على كرسيٍّ كبير ذي ظهرٍ مرتفع وطلبت كأسًا من النبيذ الأحمر من النادل. بعد أن سكب النبيذ، طلبت شريحة لحم الخاصرة قليلة النُّضج

مع صلصة البيرنيز وطبقًا جانبيًّا من السبانخ بالكريمة. شعرتْ بهدوءٍ أكبر، وهي على ثقةٍ تامة بأن ليلي ستكتشف الحقيقة، مهما كانت تلك الحقيقة. وقد ساعدها النبيذ أيضًا، إذ أغرقتها رشفته الأولى في أجواء البار المظلم الشبيهة بالرحم. تستطيع ليلي تدبر أمرها مهما كان الوضع. وكان هناك شعورٌ آخر، شعور تجد صعوبة في الاعتراف به لنفسها. بغض النظر عن حقيقة آلان، فقد بدأت تتساءل إذا كانت بحاجة إليه في حياتها على الإطلاق. لم يكن الأمر كما لو أنها متيمة بحبه. كلَّا، لقد أحبت رفقته فحسب. فلماذا اعتقدتْ أنهما بحاجة إلى الزواج؟ في الواقع هي لم تفعل. لكنه أراد ذلك، وقد وافقت.

عندما وصلت شريحة اللحم خاصتها، فكرت في والدها، وكم كان سيروق له هذا المطعم، على الرغم من أنه كان سيحتسي الجبسون الجاف مع وجبته. قطعت شريحة اللحم الوردية للغاية، وغمستها في القليل من الصلصة، ثم أخذت قضمةً. كم كانت الحياة غريبة، ففي الليلة التي قد تكتشف فيها ما إذا كان زوجها قاتلًا متسلسلًا، أمكنها الاستمتاع بشيءٍ مذهل كقطعة لحمٍ مع صلصة البيرنيز.

قال النادل: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟».

اعتقدتْ أنه في الأربعين من عمره تقريبًا، أحد أولئك الرجال البدينين الذين جعلوا الوزن الزائد مثيرًا. ولم يضر كونه يمتلك شعرًا رائعًا ولحية رمادية جميلة.

- ممتاز، وأرغب في كأسٍ أخرى من النبيذ عندما تسنح لك الفرصة.

بعد أن انتهت وجبتها، لم ترغب في المغادرة، لذا طلبت كأسًا من البورت، وهي لا تزال تفكر في والدها، الذي يُعد من محبِّي مشروبٍ ما بعد العشاء.

كان والدها ثرثارًا حتى نهاية حياته، وكأنه يعوض أعوامًا من الصمت. على الرغم من أن لديه ابنتين، إلَّا أن شقيقة مارثا كانت في ألاسكا، وبما أنه لم يتزوج مرةً أخرى بعد طلاقه من والدتها، فقد كانت مارثا هي كل ما يملكه حقًّا لأنه استسلم، بسرعةٍ كبيرة، لسرطان البنكرياس. لم يصبح منفتحًا معها فجأة فحسب، بل وجدت نفسها تخبره بأشياء عن حياتها، قبل تشخيص حالته، لم تكن لتفكر أبدًا في أن ترددها بصوتٍ عالٍ على مسامع أيِّ شخص. أخبرته عن إيثان، حبيبها الفظيع عندما كانت في كلية الدراسات العليا، وأخبرته كيف كانت مقتنعة بأن إيف ديكستر ألقت لعنة حبٍّ عليها في المدرسة الثانوية.

قال: «في الحقيقة، أتذكر إيف ديكستر، فقط لأنني كنت أعرف والدتها. كيت ديكستر. لقد تَولَّيتُ تنفيذ وصيتها».

- هل تركتْ كل شيءٍ لإيف؟

- لا أتذكر.

مكتبة ياسمين

- لقد لعنتني حقًّا، كما تعلم.

- هل تصدقين ذلك حقًّا؟

- إنها ألقت عليَّ لعنة أم أن الأمر نجح؟

- كلاهما.

- نعم، أنا أصدق أنها ألقت عليَّ لعنة. لقد قبلتُ حبيبها وأول شيء فعلته هو جعل كل طفل في المدرسة يتجنبني، لكن أعتقد أن ذلك لم يكن كافيًا. فقد تأكدتُ، كما تعلم. لقد رصدتها وسيطة روحية عليَّ.

عَبَسَ والدها، ولكن عيناهُ كانتا تَكشفان عن تسليةٍ خفية.

- هل تعتقد أني حمقاء؟

- كلَّا، أنا أصدقكِ. وأعتقد أن العاهرة الصغيرة إيف ديكستر قد لعنتكِ.

- لكنكَ لا تُصدق أن ذلك أثر على حياتي العاطفية.

- إذا حدث هذا، فذلك لأنكِ آمنت بأنه سيحدث. كلَّا، لا أعتقد حقًّا أن لعنات الحب تعمل. ما أومن به رغم ذلك، هو أننا جميعًا ملعونون، على أي حال. على الأقل في الحب.

- أوه، أبي، كم هذا كئيب!

- «آسف»، لكنه كان يضحك وهو يقول ذلك.

دفعَت مارثا الحساب في مطعم شرائح اللحم، بعد أن قرأت رسالة ليلي مباشرةً. تركت لجوناه النادل إكرامية كبيرة ووعدت بالعودة قريبًا. بينما انتقلت من إضاءة البار الخافتة إلى ضوء المطعم الأصفر، ثم خارجًا إلى الليل الضبابي، كانت لا تزال تشعر وكأنها تعيش في الفقاعة اللاواقعية التي خلقتها تلك الكأس الأولى من النبيذ. وبمجرد خروجها، اتصلت بليلي التي ردَّت على الفور.

- أوه، لقد أثرتِ قلقي.

قالت مارثا: «آسفة. لقد خرجت لتناوُل الطعام ولم أتحقَّق من هاتفي. ما الذي يجري؟».

قالت ليلي ببطء: «حسنًا، هناك تطورات».

- حسنًا.

- لقد انتظرتُ زوجكِ في بار الفندق الليلة. ذهب إلى البار وأخذ مشروبًا ثم غادر. فلحقتُ به. كان يسير في الشارع، يبحث عن مطعم لتناول الطعام، ممَّا بدا عليه، وبدأت ألاحظ أنني لم أكن الوحيدة التي تتعقبه.

- ماذا تعنين؟

- كان هناك شخصٌ آخر، رجل آخر، يتعقبه أيضًا.

- هذا غريب.

- على أي حال، سأدخل في صلب الموضوع. الشخص الذي كان يتعقب زوجك هو إيثان سالتز.

توقفت مارثا عن المشي. وقد ارتبكت للحظة، وتساءلت إن كانت ليلي قد أخطأتْ في الكلام: «إيثان؟ من بيركبيك؟».

- أجل.

- أنا في حيرةٍ من أمري. هل كان يتعقب آلان؟

استطاعت مارثا أن تسمع نبرة صوتها تعلو. لقد كان مجرد سماع اسم إيثان بمنزلة شعور باهتزاز الأرض تحت قدميها.

- لقد كنتُ في حيرة من أمري أيضًا.

- هل أنتِ متأكدة أنه هو؟ هل ألقيتِ نظرةً فاحصة؟

- لقد تحدثت إليه، يا مارثا. كان هو، وكان يعلم أنني هناك لأراقب آلان.

- لكن لماذا؟

- هذا ما كنت أسألُه لنفسي. ولكن الآن بعد أن أتيح لي الوقت للتفكير، أعتقد أن لإيثان علاقة بما كان يحدث.

- ماذا؟

كانت مارثا لا تزال واقفة، وثمة رجل بصُحبة كلبٍ مُقيد يحاول تجاوزها.

قالت ليلي: «هل أنتِ بالخارج تتجولين؟».

- أنا كذلك، ودفعها السؤال إلى الشروع في التحرُّك مرة أخرى.

- هل تريدين الاتصال بي عندما تعودين إلى المنزل؟

- لا، لا. أريد أن أسمع رأيكِ.

- أوه، هذا جنون، لكني سأخبرك. ماذا لو كان إيثان يقتل النساء اللاتي يتعرف عليهن زوجكِ؟ ماذا لو كان يحاول توريط آلان؟

- لم قد يفعل ذلك؟

- هو لا يستهدف آلان، بل يستهدفكِ أنت. إنه يحب لعب الألعاب المخيفة، أليس كذلك؟ إنه مُتلاعب. لأيِّ سبب كان، يريدكِ أن تعتقدي أن زوجكِ قاتل متسلسل. إنها لعبة بالنسبة له.

- آسفة ليلي، أحاول إدراك الأمر هنا. لكن، أعني... كيف عرف من الأساس من هو زوجي؟ أنا فقط... أوه، عفوًا، لم أرك هناك.

- هل أنتِ على ما يرام؟

- إنني أصطدم بالناس على الرصيف.

- دعينا نُغلق الخط، واتصلي بي حين تعودين، حسنًا؟

- حسنًا.

بطريقةٍ ما، عادت إلى المنزل، متجاوزة المنعطفات دون أن تتذكر القيام بذلك. فتحت بابها، ودلفت إلى الداخل، وأشعلت المصباح الأقرب للباب. أخذ جلبرت يموء بصوتٍ عالٍ، ولكن عندما التقطته وحملته إلى وعائه لتريه أن لديه طعامًا بالفعل، تَشَمَّمه واستدار بعيدًا.

تجولتْ في الطابق السفلي، تسحب الستائر وتُشعل المصابيح. وكادت أن تتعثر بجلبرت مرتين، الذي كان تحت قدميها مباشرةً. ظلت تفكر في إيثان سالتز وهو يتعقب آلان في ساراتوجا سبرينجز. ربما كانت ليلي مخطئة. ليس بشأن رؤية إيثان، ولكن بشأن التفكير في أن

إيثان له علاقة بزوجها. لقد اعتادت أن تفكر في إيثان كثيرًا، وفي السرعة التي استهلكها بها. لقد ظهر وسيطر ببساطةٍ على حياتها وعواطفها. لولا ليلي، كانت تتساءل كثيرًا عمًّا كان سيحدث بينهما. ولفترة طويلة كانت تتأرجح بين شعورها بأنها نجت من شيءٍ شرير حقًّا، وشعور آخر يخبرها بأن الحياة تحت سحر إيثان ربما كانت لتصبح على ما يرام. كان سيسيطر عليها، وكان هناك شيءٌ مغرٍ في ذلك، في التخلي عن إرادتها الحرة لشخص آخر.

جلست على حافة كرسي الاسترخاء الخاص بآلان ونظرت إلى هاتفها. كانت على وشك معاودة الاتصال بليلي عندما أدركت أنها لا تزال ترتدي سترتها. نهضت وخلعتها مع حذائها، ثم قررت أن تصعد سريعًا إلى الطابق العلوي وترتدي بنطالًا ذا رباط مطاطي وسترة رياضية. إذا كان عالمها سينقلب بالكامل رأسًا على عقب، فمن الأفضل لها أن تكون مرتاحة.

دخلت غرفة نومها، وضغطت المفتاح المجاور للباب. وقف الرجل الذي يرتدي السترة ذات القلنسوة بينها وبين الفراش الذي تتقاسمه مع زوجها. وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة هادئة تكشف عن أسنانه، وكان يحمل سكينًا إلى جانبه بطريقة عفوية. في ذهن مارثا، كانت قد استدارت بالفعل وشرعت في الركض بعيدًا، وهي تهرع هابطة الدَّرج، مندفعة عبر الباب لتخرج إلى الليل، حيث يمكنها الصراخ طلبًا للمساعدة. لكنها لم تركض. ظلَّت واقفة بلا حراك، وقد شُلَّت ساقاها عن الحركة.

«أوه، انتهى الأمر إذن»، هذا ما فكرت به مارثا، بعفويَّة تقريبًا. تحرك الرجل بسرعة غير بشرية، واخترقت السكين حنجرتها بسرعةٍ لم تمنحها حتى الوقت لتلفظ اسمه.

***

الجزء الثاني

اصغَ إلى حنجرتها

الفصل السادس عشر

كان أول ضحاياه هو جدُّه. وكان إيثان في الحادية عشرة من عمره.

لم يكنُّ لجده كراهيةً بوجهٍ خاص، فعندما كان جدُّه معافى ويعيش في بيته، دائمًا ما سمح له باللعب بمجموعته من الأسلحة العسكرية، بل إنه أهداه صندوقًا مملوءًا بجنود الصلب المعدنية -جنود بريطانيين وألمان وفرنسيين- التي ظلت، لمدة عام تقريبًا، أغلى ممتلكات إيثان على الإطلاق.

لكن جده أصيب بسكتة دماغية -إصابة سيئة، كما قال والده- وكان عليه الآن أن يأتي ويعيش معهم. ولأن غرفة إيثان كانت الغرفة الوحيدة بالمنزل التي تقع في الطابق الأرضي، فقد كان عليه أن ينتقل إلى غرفة شقيقه الأكبر على سرير قابل للسحب مع حَشيَّة مترهلة. لم يكن إيثان غاضبًا من جده لاستيلائه على غرفته، رغم أنه خطر بباله، أنه كلما اقترب أوان رحيل جده، استرد غرفته على نحوٍ أسرع. كلَّا، ما أزعج إيثان حقًّا بشأن إقامة جده في منزله هو أن والدته جعلته يذهب إلى الغرفة ذات الرائحة الكريهة بعد ظُهر كل يوم عندما يعود إلى المنزل من المدرسة ويجلس مع جده لفترةٍ من الوقت.

قال إيثان لوالدته: «إنه لا يفعل أي شيء».

- كلَّا، ولكنه جدُّك، وحتى لو لم يُظهر ذلك، فأنا أراهن بأنه سعيد كما البطلينوس لمجرد وجودكَ هناك بجانبه. أخبره عمَّا درست في المدرسة. فمجرد عدم قدرته على الكلام لا يعني أنه لا يستطيع سماع ما تقوله وفهمه.

لذا كان إيثان يجلس مع جده الذي يرقد هناك فحسب، وقد ارتخت جهةٌ من وجهه أكثر من الأخرى، بينما يسيل اللعاب على شفته السفلى. أحيانًا، كان إيثان يستغل الوقت للبدء بواجباته المدرسية، لكن في أغلب الأحيان كان يتحدث فعليًّا إلى الرجل العجوز، ويخبره عن بعض الدروس، أو مدى كرهه لزميلته في الصف كارين أرميتاج، التي كانت تظن أنها أفضل من الجميع. وفي بعض الأحيان، كان يقرأ عليه بصوتٍ عالٍ. لقد اكتشف إيثان، وهو في عامه الثاني عشر، أنه يحب القراءة بالفعل. كان جزءٌ من ذلك يرجع لاكتشافه سلسلة «صرخة الرعب» (Goosebumps)، المُستعملة التي انتقلت إليه من شقيقه الذي أصبح في الثالثة عشر من عمره ويقرأ لستيفن كينج. لكن الكتب التي وقع إيثان في حبها أكثر من غيرها هي كتب شقيقته القديمة. كانت تمتلك رفَّ كتبٍ مليء بها في غرفة نومها الفردية. كتب لجودي بلوم ولويس دانكان وجميع كتب «زهور في العلية» (Flowers in the Attic). وحتى إنها كانت تمتلك أيضًا بعض الكتب الجريئة جدًّا، مثل «دانتيل» (Lace) للكاتبة شيرلي كونران -كان إيثان يتصفَّحها، وهو يقرأ فقط المواد الجنسية- و«عشيرة دببة الكهف» (Clan of the Cave Bears)، و«حُب بلا نهاية» (Endless Love).

ما علَّمتْه إياه الكتب هو أن هناك عالمًا كاملًا هناك، عالمًا راشدًا، مليئًا بالجنس والموت والخيانة والأكاذيب. كان الأمر أشبه بساحة لعبٍ تتيح لك أن تفعل ما يحلو لك، ممَّا جعله يرغب في تخطي بقية طفولته

مباشرة ليصبح شخصًا راشدًا. لكنه بدلًا من ذلك، كان صبيًّا في الحادية عشرة من عمره، وكان عليه أن يذهب ويجلس بجانب جدِّه المُحتضر ذي الرائحة الكريهة لأن والدته اعتقدت أن ذلك سيجعله سعيدًا كما البطلينوس، وهي إحدى تعبيرات والدته الغريبة. لذا كان إيثان يقرأ له بصوتٍ عالٍ، وبدا من الواضح جدًّا بالنسبة له أن جده لم يفهم كلمة واحدة. لقد كان ميتًا بالفعل عمليًّا. فكر إيثان: لو كنتُ أنا كذلك، لأردت أن يأتي أحدهم إلى هذه الغرفة ويضع حدًّا لمعاناتي. وبمجرد أن راودته هذه الفكرة، أصبحت جزءًا دائمًا من عقله. كان الأمر أشبه بقراءة ذلك المشهد في رواية «دانتيل» حيث يضع الرجل السمكة الذهبية في مساحة المرأة الخاصة ممَّا يروق لها. وكان ذلك جزءًا من عقله الآن أيضًا.

مع مرور الوقت، بدأ إيثان يستمتع بالذهاب إلى غرفة جدِّه بعد المدرسة. كان من المُضحك أن سكوت، شقيقه، لم يكن مضطرًّا إلى فعل ذلك قط، وذلك في الغالب لأنه أصبح الآن في المدرسة الثانوية ولديه الكثير من الواجبات المنزلية. وعلى ما يبدو أن شقيقته فيكي لم تكن مُطالبة بالقيام بزيارات أيضًا، وتساءل إيثان إذا كان لذلك علاقة بحقيقة ما حدث مع شقيقته على نحوٍ خاطئ تمامًا في العام الماضي. لقد كانت تخرُج حتى وقتٍ متأخر طوال الوقت، وعندما تكون في المنزل، كنَّ يصرُخن فحسب هي ووالدته على بعضهن بعضًا. كانت تفوح منها رائحة السجائر والخمر ورذاذ الشعر. وقرر إيثان أن فيكي غبية، وربما حتى أغبى من سكوت، وكان هذا يعني شيئًا ما. فإذا أرادت التسلُّل خارج المنزل وتدخين بعض السجائر والشُّرب حتى الثمالة والتعرف على الأولاد، فلماذا لم تفعل ذلك على نحوٍ أفضل؟ لماذا يُكتشف أمرها؟ لقد كان والد إيثان، الذي يعمل في المدينة، مرهقًا دائمًا عندما يعود إلى

المنزل. وكل ما اكترثَ له هو شُرب الويسكي، ومشاهدة أبرز الأحداث الرياضية، ثم الذهاب إلى النوم. أما عن والدته فقد كانت موجودة في المنزل أكثر، وهذا صحيح، ولكنها كانت دائمًا ما تُدندن لنفسها وهي تتمايل في أرجاء المنزل، وبصراحة، لم يكن الأمر يتطلب عبقريًّا للتسلل بجانبها مباشرة دون أن تلاحظ ذلك حتى. كان إيثان يفعل ذلك طوال الوقت.

أخذ إيثان يفكر في هذه الأمور بينما يجلس بجانب جده. لقد فكر: لو كنت مكان فيكي وحصلت للتو على رخصة القيادة الخاصة بي، فسوف أكون قادرًا على الإفلات بأيِّ شيء. لم تراوده حقًّا أفكار كهذه من قبل، ليس بخصوص ما سيكون عليه الحال إذا كان شخصًا آخر، وتساءل إن كان للأمر علاقة بكل ما يقرأ. لأنه، بصراحة، لم يخطر بباله حتى وقت قريب أن الآخرين لديهم أفكارًا على الإطلاق. كان يحدقُ إلى جده ويحاول تخيُّل الأمر، لقد حاول تخيُّل الكلمات والأفكار تتحرك عبر دماغه. كل ما توصل إليه هو أنه بالتأكيد يريد الموت، وهو يرقد في الفراش غير قادرٍ على الحركة.

وفي شهر أكتوبر، خاضت والدته شجارًا صارخًا مع فيكي لدرجة أن والده عاد إلى المنزل مبكرًا وخرجت فيكي راكضةً من الباب. وسأل إيثان والدته، ووجهها غارق بالدموع، إذا كان بإمكانه تناوُل الطعام في غرفته، فأجابته: «بالطبع يا عزيزي»، وعانقته بطريقةٍ علم إيثان أنها تتعلق بشقيقته أكثر ممَّا تتعلق به. وبمجرد وصوله إلى غرفته ومعه رغيف اللحم المطهوِّ في الميكروويف، تسلق إيثان خارج النافذة وصعد إلى سطح الشرفة. كان السطح شديد الانحدار، ولكن ليس لدرجةٍ تمنع الانزلاق عليه. توجه نحو نافذة شقيقته التي لم تكن تغلقها قط، وفتحها وتسلل إلى غرفتها. أراد إلقاء نظرة على كُتبها، لكنه شعر أيضًا بفضولٍ

حول كل الصراخ الذي كانت تصدره مؤخرًا. أشعل مصباح مكتبها، غير قلق من اكتشاف أمره لأن شقيقته كانت قد وضعت قفلًا من الخارج على باب غرفتها لمنع والديها من الدخول.

فتح درج ملابسها الداخلية، الذي امتلأ بالملابس الداخلية البيضاء المُتسخة في الغالب، لكن في الخلف كان لديها بضعة أشياء من الدانتيل من الماركة التجارية «فيكتوريا سيكريت» (Victoria's Secret). شيءٌ ما في هذا الأمر بدا طريفًا، ثم أدرك إيثان أن اسم أخته فيكتوريا، وكذلك ملابسها الداخلية. وعلى رف كتبها وجد كتابًا ورقيًّا صغير الحجم داكن اللون يُدعى «اذهب واسأل أليس» (Go Ask Alice)، وهو كتابٌ سمع عنه وكان يدور حول المخدرات. وضعه في جيبه الخلفي، ثم ذهب إلى فراش شقيقته غير المرتب. كانت لا تزال تنام مع كلبها المحشُوِّ - دوجي- الذي امتلكته منذ أن كانت صغيرة. والذي يمتلك أذنين متهدلتَين وعينين بلاستيكيتين غريبتين وقد أصبح قديمًا جدًّا لدرجة أنه كان يتفكك وخُيِّط عدة مرات حتى بدا وكأنه ضحية حادثةٍ ما. مرَّر إيثان إصبعه في إحدى الرُّقع المخيطة ومزَّقها أكثر قليلًا، ثم أعاده إلى حيث وجده. ولكن بعد ذلك، خطرت له فكرةٌ أخرى فأخفى دوجي تحت الفراش. كانت هناك أطنان من القمامة في الأسفل، قمصانٌ قديمة كانت شقيقته تنام فيها، وبعض الكتب المدرسية، ومئات من الأرانب المغبرة. غطى الحيوان المحشو بواحدٍ من القمصان المقرفة.

في درج طاولة فراش فيكي الجانبية وجد مذكراتها القديمة، ففتحها متسائلًا إن كانت قد كتبت أيَّ شيء جديد فيها. لكنّها لم تفعل، على الأقلِّ ليس منذ عدة أعوام، وقد قرأ إيثان معظم ما كان هناك، على أي حال. وجد في دُرجها كذلك بعض السدادات القطنية، ونظر إيثان إلى الإرشادات الموجودة على ظهر الصندوق، سعيدًا لأنه لم يكن فتاة. وفيما

عدا ذلك لم يكن هناك في الدُّرج الكثير ممَّا لم يسبق له رؤيته من قبل، فقط زجاجة من شيء يُدعى «ميدول» (Midol).

وقبل أن يغادر، تفحَّص سلة المهملات الخاصة بشقيقته، الملأى بالمناديل المُبللة وأغلفة العلكة، ووجد في أسفلها قطعةً من البلاستيك، نصفها أزرق ونصفها أبيض. كاد إيثان أن يلتقطها لكنه قرر أنها مرتبطة بطريقةٍ ما بالسدادات القطنية، لذا غطاها مرةً أخرى.

وعندما عاد إلى غرفته الخاصة، تناول بعضًا من رغيف اللحم، ثم شرع في قراءة اذهب واسأل أليس. كان الأسبوع التالي جنونيًّا إذ إن فيكي لم تعد إلى المنزل ذات ليلة، واتصل والدا إيثان بالشرطة. ثم وقع المزيد من الشجار والصراخ، وحتى إنه في إحدى المرات تسلل إيثان إلى الأسفل في وقتٍ متأخر من الليل ورأى والدته تحتضن فيكي على الأريكة كما لو كانت فيكي لا تزال طفلةً صغيرة. كانتا تبكيان وتهزان بعضهما بعضًا، وراقب إيثان المشهد من المدخل، وهو أكثر حيرة ممَّا كان عليه بسبب المشاجرات. كل ما يعرفه هو أن ما كان ينظر إليه جعله يشعر بالغثيان.

في هذه الفترة تقريبًا، خطرت له لأول مرة فكرة قتْلِ جدِّه. فكَّر في نفسه، أن ذلك سيريهم. الجميع يشعر بالذُّعر بسبب عدم قدرة فيكي على التحكُّم بنفسها، وفي هذه الأثناء يموت الجد وحيدًا في غرفته. جعلته تلك الفكرة يشعر وكأنه يبتسم في داخله. وأيضًا، إذا مات جدُّه، فسوف يستعيد غرفته الخاصة. خلال الشهر الماضي، استيقظ إيثان مرتين على الأقل في منتصف الليل وسمع أصواتًا تصدر عن سرير سكوت، صوت صرير نوابض السرير، وأنَّات صغيرة. لقد كان أمرًا مثيرًا للاشمئزاز بالنسبة له، وقد أقسم بالفعل إنه لن يفعل ذلك بنفسه أبدًا.

ولكن الشعور الذي سيطر عليه بشكلٍ رئيسي هو رغبته في العودة إلى غرفته الخاصة في الطابق الأول.

كان ذلك إما في عيد الهالووين أو ربما في اليوم الذي يسبقه، حين جلس إيثان في غرفة نومه القديمة يستمع إلى أنفاس جدِّه. شهيق وزفير. شهيق وزفير. مثل آلةٍ ما تزال تعمل بلا هوادة حتى بعد أن انتهى نفعُها. وبينما أخذ إيثان يستمع إلى أنفاس جدِّه، راح يفكر في أشياء أخرى، مثل كيف تعلموا في درس التاريخ أن مليون شخصٍ ماتوا جوعًا في أيرلندا بسبب تعفُّن البطاطس. كان إيثان جيدًا جدًّا في الرياضيات، لذلك كان يحاول باستمرار تخيُّل كيف يبدو مليون شخص. تصوَّرهم متجاورين على تلالٍ متموجة، وهذا ما ساعده على تخيُّلهم. وفي بعض الأحيان، كان يتخيل حبة حلوى الذرة تمثل شخصًا واحدًا، ثم يحاول تخيل ما ستبدو عليه مليون حبة حلوى ذرة. لكن هذا لم يكن مفيدًا على الإطلاق.

أصدر جده ضوضاء شخير نوعًا ما والتفت إليه إيثان. لكن تعبير وجهه لم يتغير. ودون أن يفكر كثيرًا في الأمر، نهض إيثان، وسار نحو جده، وأغلق أنفه. لم يفعل ذلك أي شيء حقًّا، لأن فم الجد كان مفتوحًا دائمًا. بيده الأخرى، أغلق إيثان فم جده وأبقاه هكذا. في البداية لم يحدث شيء، ثم تحرك رأس جده للأمام وللخلف قليلًا وخرج صوت حشرجةٍ غريب من حنجرته. فكر إيثان في أن يدعه وشأنه، لكنه أراد أن يرى ما سيحدث بعد ذلك. وبعد مرور دقيقة أصبح من الواضح أن جده قد فارق الحياة. غادر الغرفة وذهب إلى المرحاض حيث غسل يديه. عاد إلى غرفة جده فقط ليستعيد الكتاب الذي أحضره معه هناك، كتابه الدراسي للُّغة الإنجليزية، وكل ما يتعلق بقواعد النحو. ثم ذهب إلى المطبخ وأخبر والدته أنه سيصعد إلى غرفته ليدرُس.

- لقد زرتَ جدك، صحيح؟

- أجل، فعلت. لقد أخبرته بكل شيءٍ عن يومي.

- شكرًا يا عزيزي.

عندما صعد إلى غرفة شقيقه أغلق إيثان الباب ثم استلقى على سريره. وتساءل كم سيستغرق الأمر من الوقت قبل أن تكتشف والدته وفاة والدها. لقد كان سعيدًا بوفاته لأن ذلك سيعني عودة المنزل إلى حالته التي كان عليها من قبل، لكنه لم يكن متحمسًا لكل الأشياء التي ستحدث أولًا. البكاء والجنازة والأقارب الآخرون. مع ذلك، سيعود كل شيءٍ إلى طبيعته مع الوقت. سيستعيد غرفَته في الطابق الأول. سيحصل سكوت على غرفته الخاصة للاستمتاع بخصوصيته طوال اليوم. لن تكون شقيقته الشخص الأكثر أهمية في العائلة لعدة أيامٍ على الأقل، على الرغم من أنها ربما ستحاول. ماذا عن الجد؟ حاول إيثان فحص مشاعره حيال ما فعله بجده. أمسك بالشعور كما لو كان مكعب روبيك وتفحصه من كل جانب. في البداية قال لنفسه إنه قد أسدى معروفًا لجدِّه، تمامًا كما أخبره والداه أنهما يسديان معروفًا لسباركي عندما صَحِباه إلى زيارته الأخيرة للطبيب البيطري. لكن في النهاية، بعد النظر إلى كل جانب من جوانب المكعب، قرر إيثان أن ذلك لم يكن معروفًا، ولكنه أيضًا لم يكن شيئًا كبيرًا. كل ما فعله هو قتل شخصٍ ما، شخص كان سيموت على أي حال.

كان قد أنهى واجبه في اللغة الإنجليزية وشرع في واجب التاريخ عندما سمع نحيب والدته من الطابق الأول.

بعد الجنازة، وعندما عادت الأمور إلى طبيعتها تمامًا كما توقع، أخرج إيثان مشاعره مرةً أخرى لينظر إليها. وكان لا يشعر بالسوء حيال ما فعله بعد. لقد حزنت والدته للغاية في البداية، ولكن في حفل الاستقبال

بعد الجنازة بدت سعيدة للغاية، تضحك وتحتسي النبيذ مع عمتيه. لقد جمعهم معًا بما فعله، وحاول أن يفهم إن كان ذلك يجعله يشعر بالرضا. لم يكن كذلك بالضبط. لكنه شعر بشيء، ولم يكن متأكدًا من ماهيته.

قبل أن يخلُد إلى النوم في تلك الليلة، مزَّق صفحةً فارغة بعناية من الجزء الخلفي لدفتر اللغة الإنجليزية خاصته. في أعلى الصفحة كتب اسمه، إيثان كونور سالتز. ثم وضع خطًّا تحته. ثم بعد سطرين من اسمه، كتب الرقم 1، وبعد ذلك كتب اسم جده، مارتن كونور باير.

طوى الورقة بحيث أصبحت ربع حجمها الأصلي، ثم أدخلها بين صفحات أحد كتبه المُصورة القديمة، «هناك تمساحٌ تحت سريري» (There's an Alligator Under My Bed).

***

الفصل السابع عشر

كان أول ضحاياه هو جده. وآخرهم مارثا راتليف. وفيما بينهما قتل أربعةً وعشرين شخصًا آخر.

وقد أُدرِجت أسماء جميع هؤلاء الضحايا، إلى جانب مكان ووقت موتهم، على قائمة خبأها إيثان داخل نسخة مُجوفة ذات غلافٍ صلب لمجموعة قصص «جون تشيفر» (John Cheever). وتُعد تلك القائمة إنجاز حياته، ومبعث فخره الأكبر. أحيانًا تراوده أحلام بتسليم نفسه للسلطات وهو في الخامسة والسبعين. ستكون القائمة أطول بكثير حينئذٍ، سيجلبها معه، عندما يخطو داخل مركز الشرطة، أو مقر مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو أي مكان يختاره حينها. سيسلمهم القائمة، بمنزلة سيرته الذاتية، وقصة حياته. حينئذٍ، ستبدأ المقابلات. حواراتٌ لا نهاية لها مع المحققين والمفتشين من مُختلف السلطات القضائية. ناهيك عن الأطباء النفسيين الذين سيصطفون لسماع ما لديه. وسيشرح لهم كم كان من السهل عليه قتل العديد من الناس. سيخبرهم بقواعده. على سبيل المثال، لا ترتكب جريمتك أبدًا بنفس الطريقة مرتين، واجعلها دائمًا تبدو كشيءٍ آخر غير ما كانت عليه. كان هذا هو الشيء المهم. فبفضل التزامه بهذه القاعدة، في هذه المرحلة من حياته –24 جريمة قتل– لم يكن إيثان مطروحًا على قائمة المشتبه بهم لدى أي جهة تحقيق. لقد كان مُجرد نكرة. لم يُلقَ القبض عليه قط، ولم يكن لديه

وجود على الإنترنت. كلَّا، هذا غير صحيح تمامًا. كان لدى إيثان سالتز بعض الوجود على الإنترنت. لقد أُدرج في عددٍ قليل من نعي الصحف، وكان مؤلفًا لعددٍ من المقالات التي حظيت باستقبال جيد، بما في ذلك مقال نُشر قبل ستة عشر عامًا في مجلة نيويورك. إيثان سالتز، كاسم، وكمواطن، لا يزال موجودًا. كان يدفع الضرائب على المعاش السنوي الصغير نسبيًّا الذي حصل عليه من ميراثه، وكان يمتلك صندوق بريد في بوسطن. لكن إيثان سالتز، الإنسان الحقيقي، يعيش حاليًا حياته بصفته روبرت تشارنوك، تاجر أعمال فنية يقيم في فيلادلفيا. لقد كان روبرت تشارنوك الحقيقي يعاني رُهابَ الجراثيم ويعيش منعزلًا، والآن هو يقبع في قاع بركة جليدية في ويلفليت، ماساتشوستس. وكان لروبرت، الشخص الذي أصبح عليه إيثان الآن، شعرٌ أقصر وأغمق من إيثان، ولكنةُ كاليفورنيا المحايدة. وقد أصبح بالفعل ناجحًا نسبيًّا في عالم الفن، حيث باع العديد من القطع الفنية الأصلية بالإضافة إلى العديد من الأعمال المزورة الجيدة جدًّا. لقد كان الانخراط في أنشطةٍ إجرامية أخرى إلى جانب فن القتل يتعارض مع فلسفة إيثان، لكن التزوير كان سهلًا بشكلٍ مدهش، خصوصًا، أو فقط، عندما يتم ذلك على نطاق صغير. لقد حقق ربحًا لا بأس به ببساطة عن طريق اختلاق فنانين من مُنتصف القرن وبَيع أعمالهم الفنية المزيفة مباشرةً من المعرض، لم يكن يفهم لماذا يحاول أي شخص إنتاج نُسخ مزورة لفنانين مشهورين.

الأمر الأكثر إثارة للدهشة -الذي أثار دهشة إيثان على الأقل- بشأن حياته بصفته روبرت تشارنوك، هو أنه كان متزوجًا. كانت زوجته أكبر منه، ولها طفلان من زواجٍ سابق وكلاهما التحق بمدارس ثانوية خاصة. لقد تزوج ريبيكا لأنها غنية، ولأنها تملك منزلًا حجريًّا مميزًا في ميدان ريتنهاوس، ولأنها تقبلته باعتباره بائع تحف غريب الأطوار إلى حدٍّ ما

لم يتحدث قط عن ماضيه. لقد ألمح إلى معاناة في طفولته، وصدقته ريبيكا كليًّا. كما أنها تقبلت شغفه في التجول في أنحاء البلاد بحثًا عن كنوزٍ مخفية في أسواق السلع المُستعملة ومتاجر الخردة. ولم تتذمر قط من رحلاته بعيدًا. بل كان يشك في أنها تستمتع بالوقت الذي تقضيه بمفردها. كل ما كانت تتوقعه ريبيكا من زوجها هو حضور حفل عيد الميلاد السنويِّ للمؤسسة الخيرية التي تديرها، وقضاء أسبوعَين معها من كل شهر فبراير في أيِّ فندق منتجع استوائي قررت أنه لا بدَّ لها من زيارته.

كان أفضل ما في الحصول على زوجة هو أن الرجال الذين ليس لديهم زوجات دائمًا ما يكونون موضع شكٍّ إلى حدٍّ ما. لقد كانت الزوجات بمنزلة حراس البوابات حقًّا، إذ يُخبرن العالم بأن الرجل الذي تزوَّجنه قد فُحص بدقة واجتاز اختبارًا ما. وهذا لا ينجح إلَّا إذا كانت الزوجة المعنية تتمتع بشخصية قوية. وكانت ريبيكا ذات شخصية. في حالتها، كان ذلك يعني أنها تملك المال والنفوذ. وبما أنها اختارت روبرت ليشاركها حياتها، فقد أضفَتْ عليه طبقةً إضافية من المصداقية. لقد كانت هي قِنَاعه.

كان معرض إيثان يديره ويعمل به مساعده القديم كريس صلاح، وهو شخصٌ آخر في حياته، مثل ريبيكا، بدا راضيًا تمامًا عن تركه بمفرده لفتراتٍ طويلة. الربُّ وحده يعلم، ومن يكترث، بما كان يفعله كريس عندما يكون إيثان بعيدًا.

لقد مضى على انتحال إيثان شخصية روبرت تشارنوك ستة أعوام الآن، على الرغم من أنه لا يزال يملك بطاقات ائتمانية باسم إيثان سالتز، وبطاقةً بنكية ورُخصة قيادة مقنعة للغاية لولاية إيلينوي باسم برادلي أندرسون، وهو أحد ضحايا إيثان السابقين. في فيلادلفيا، وبشخصية

روبرت تشارنوك، كان يقود سيارة جاجوار XJ ذات بابين، لكن براد كان يملك كيا فورتي بيضاء يركبها ويركنها في منزل متداعٍ شمال المدينة به مرأبٌ لسيارةٍ واحدة، منزل باسم براد أندرسون. وقد استخدم إيثان هذا المكان لتبديل الهويات وتبديل السيارات.

خلال الأعوام الخمسة الأولى التي عاش فيها إيثان في فيلادلفيا بصفته تاجر أعمال فنيَّة متزوج، قتل تسعة عشر شخصًا في مواقعَ مختلفة، معظمها على طول الساحل الشرقي. أسهل الأشخاص الذين يمكن قتلهم هم أولئك الذين يعيشون على مشارِف المجتمع، مُدمني المخدرات، والبغايا المراهقات، وكل تلك العبارات المُبتذلة من دليل القاتل المتسلسل. وفي بعض الأحيان كان إيثان يتلذذ بهؤلاء الضحايا الضعفاء. كم كان من الصعب، بعد كل شيء، العثور على متشرد فاقد الوعي في مدخل متجرٍ كبير وضربه بالطوب؟ تكمن المشكلة، كما وجد إيثان، في أن هؤلاء الضحايا غالبًا لا يكون لديهم أسماء يمكن التعرُّف عليها. لقد حالفه الحظ ذات مرة، بعد أن دفع مدمنة مخدراتٍ مراهقة من على جسر في مينيا بوليس، ليكتشف اسمها في صحيفة ذلك الأسبوع، لكن في مناسباتٍ أخرى، لم يُبلِّغ حتى عن جرائم القتل التي ارتكبها للصحافة المحلية.

لهذا السبب، بحث إيثان عن ضحايا أعلى قليلًا في الرتبة. أشخاص لديهم أرقام الضمان الاجتماعي وأصدقاء وعائلة. أشخاص ستهتم بهم الشرطة. كانت لديه قواعده الخاصة. بحيث من غير الممكن أن يكون هناك أيُّ رابط بينه وبين الضحية، ولا احتمال أن يظهر اسمه أو حتى وصفه في أيِّ تحقيق على الإطلاق. لقد أخذ إيثان هذه القاعدة على محمل الجد.

ما كان على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة له، أن تظهر جرائم القتل التي يرتكبها على أنها شيءٌ آخر غير ما كانت عليه. لم يكن من الضروري أن تبدو جميعها وكأنها حوادث أو حالات انتحار، على الرغم من أنه صَمَّم الكثير من عمليات القتل التي كانت كذلك بالفعل، ولكن كان من الضروري أن تشير إلى اتجاه آخر غير القتل العشوائي. ولهذا السبب، اختار إيثان ضحاياه في الغالب من المقالات الصحفية. أشخاص بارزون إلى حدٍّ ما يمرون بطلاق مرير. رجال أعمال أثرياء يُحقَّق معهم بتهمة الاحتيال. لقد كان من السهل رصدهم إذا كنت تعرف ما تبحث عنه. في بلدة أوشن سيتي، التقط صحيفةً تُركت على إحدى البارات وقرأ عن رجل، يُدعى دومينيك سالاموني، أُطلِق سراحه مؤخرًا بكفالة بعد انتهاك أمر بعدم التعرُّض صدر في حقه بسبب العنف المنزلي. عثر إيثان على عنوان سالاموني في دليل هاتف وايت بيدجز، وراقب المنزل الصغير المُتداعي المصنوع من الجَصِّ. لو لم يكن إيثان يعلم حقيقة الأمر، لاعتبره غير صالح للسكن، وفي الواحدة بعد مُنتصف الليل، أنزلت سيارة أجرة دومينيك سالاموني الذي دخل من الباب الأمامي. وبعد مرور ساعة، دخل إيثان إلى المنزل عبر الباب الخلفي، وترك عينيه تتكيفان مع الظلام بالداخل، ثم صعد إلى الطابق العُلوي حيث غرفة نوم دومينيك وخنقه باستخدام إحدى ربطات عنق دومينيك الرخيصة.

عاد إلى فيلادلفيا في اليوم التالي. وبعد يومَين، ابتاع نسخة من صحيفة ميريلاند من أحد باعة الصحف القليلين المتبقين في المدينة، وقرأ خبرًا عن مقتل دومينيك سالاموني، التي يُعتقد أنها عملية قتل انتقامية. وقد أشار الخبر إلى احتمال تورُّط زوجة سالاموني السابقة في عصابةٍ إجرامية محليَّة. قص إيثان المقالة وأودعها مُخبأه.

كان كل شيءٍ سهلًا للغاية.

وبصراحة، بدأ الأمر يصبح مملًّا بعض الشيء. قبل عام، مرَّ إيثان بإحدى تقلباته المزاجية الدورية، حيث بدا العالم باهتًا وخاليًا من الألوان. فسجل دخوله إلى فيسبوك، باسم باربرا سميث، وهي شخصية وهمية تمامًا تمكنت بطريقةٍ ما من اكتساب ما يقرب من أربعمئة صديق غبي. كان يستمتع بالدخول إلى فيسبوك والتصفُّح. لقد أذهله كم المعلومات التي يقدمها الناس بكل سرور. عن أين عاشوا، وأين سافروا، وماذا كان يفعل أطفالهم، ومن هم أحباؤهم. غالبًا ما كان يستخدم الفيسبوك كمكان للخيال، وأحيانًا يستخدمه لقراءة لوحاتٍ تذكارية عن الأشخاص الذين قتلهم، كل تلك المشاعر المُبتذلة التي تنكشف بسبب ما فعله. بصراحة، كان هذا هو الشيء الذي يفضل فعله على فيسبوك، على الرغم من أنه كان يلقي نظرة من حين لآخر على أشخاصٍ من ماضيه، وأطفال ذهب معهم إلى المدرسة الثانوية، وأحيانًا حتى شقيقه وشقيقته، وكلاهما خارج حياته تمامًا.

في ذلك اليوم تحديدًا من فصل الربيع -الموسم الأقل تفضيلًا لدى إيثان- خطر له اسم مارثا راتليف. عثر عليها إيثان على الفيسبوك. وقد وجد هناك صورةً لها، كانت لا تزال تشبه فأرًا بنيًّا صغيرًا، ولا تزال تعمل أمينة مكتبة. وكانت نادرًا ما تشارك منشورات. في الواقع، مرَّ عام بين منشورها الأخير وأحدث منشوراتها، لكن المنشور الأخير كان إعلان زواج، مصحوبًا بصورة لها مع رجل أعمال هزيلٍ ورتيب. قضيا شهر العسل في شلالات نياجرا، ولهما صورة وقد ابتلعهما الضباب، وافترض إيثان أن اختيار شلالات نياجرا كان جزئيًّا لأنه مكانٌ مُضحك لقضاء شهر العسل، وذلك لأن الناس، ويا للضحك! اعتادوا على القيام بذلك في الأيام الخوالي.

لقد تخلص إيثان من معظم الغضب في حياته، لكنه شبَّ بداخله الآن. كانت مارثا، في ذلك الوقت حينما كان إيثان سالتز الكاتب، عندما كان الشخص الوحيد الذي قتله هو جدُّه، بالإضافة إلى ذلك الفتى القروي من ولاية فيرمونت في عامه الجامعي الأول، كانت مارثا آنذاك مشروعه الخاص. حدث ذلك عندما كانت هوايته المفضلة هي إغواء الفتيات دمِثَات الخُلق، ثم تفكيكهنَّ ببطءٍ وبشكلٍ كامل، وإفسادهنَّ، وجعلِهن يفعلن أشياء يندمنَ عليها لبقية حياتهنَّ. ومثل كل شيءٍ آخر في حياته، كان الأمر سهلًا للغاية حقًّا. لطالما كان وسيمًا. تلاحقه الأنظار أينما ذهب. أنظارٌ طامعة. وقد أتيحت له الفرصة لاختيار أي فتاة يرغب بها، ولفترةٍ من الزمن، تحديدًا في نهاية المدرسة الثانوية وبداية الجامعة، كان يختار الفتيات الأكثر شعبية والأجمل، واللاتي رغبن به لأنه بدا بمنزلة جائزة. ولكنه اكتشف أن هؤلاء الفتيات كنَّ غير مثيرات للاهتمام بالنسبة له. كنَّ منغمسات في أنفسهن، يستهدفن أهدافًا محددة، ويمِلْن بالفعل إلى القسوة والتطرُّف. ثم اكتشف تلك الفئة من الفتيات اللواتي تعرَّضن للتجاهُل طوال حياتهن، خجولات ومنعزلات، واكتشف أنهنَّ أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة له.

لقد وجد مارثا خلال ذلك الفصل الدراسي الوحيد الذي عمل فيه أستاذًا مساعدًا في كلية بيركبيك، حينما كان لا يزال يستخدم اسمه الحقيقي. كان كاتبًا حينذاك. لقد كان شيئًا يجيده، ولطالما أتقنه، وقد سمح له بالتحقيق علانية وبشكلٍ مفتوح في بعض الجوانب المظلمة من عالمنا الذي نعيش فيه جميعًا. كانت أشهر مقالاته، والتي نُشرت في مجلة نيويورك، فضحًا لطائفةٍ ناشئة ظهرت بين طلاب المدارس الثانوية في ريف تكساس. لقد أنشأها ابن القسِّ المحليِّ، الذي أقنع أكثر من عشرة من زملائه الطلاب بتقديم قرابين حيوانية، والمشاركة

في طقوسِ العربدة، في مزرعةٍ مهجورة ليالي الجمعة، بينما كانت بقية البلدة تشاهد مباراة كرة القدم في المدرسة الثانوية. لقد جعلته هذه القصة يحظى بالكثير من الاهتمام، بالإضافة إلى خيارٍ لفيلم انتهت صلاحيته الآن. لقد كانت كتابتها سهلة. إذ كان يرى الكتابة مجرد تلاعُب، بطريقةٍ ما. يكمن السر في أن تبدو موضوعيًّا، بينما تقود القارئ طوال الوقت إلى الاستنتاج والعواطف التي ترغب في أن يختبرها. لكن إيثان، في تلك المرحلة من حياته، كان يدرك بأنه مُعدٌّ لأمورٍ أعظم، ولم يكن كونه كاتبًا يتيح له تلك السرية التي ينشدُها. لقد قبل وظيفة التدريس للهروب من مدينة نيويورك وإعادة التفكير فيما يود فعله حقًّا بحياته.

كانت مارثا راتليف تمثل فرصةً واعدة له، إذ كان تقديرها لذاتها متدنٍّ لدرجة أنها صدقت فعليًّا بأنها ضحية لعنة حبٍّ من نوعٍ ما. لقد كانت البطة القبيحة التي فقدت كل أملٍ في إقامة علاقة. فقد رصدها جالسة على طاولة في حانةٍ ما، محاطة بمجموعة من الطالبات الأكثر جمالًا، وأغواها دون أن يتحدث إليها كثيرًا حتى. وسارت الأمور على ما يُرام لفترة من الوقت. لقد أقنعها بممارسة علاقة عنيفة وببعض العلاقات المثيرة للاهتمام مع سُكانٍ محليين مخمورين. لم يكن قد رأى في عينيها بعد تلك اللحظة التي استسلمت فيها لخطاياها وبدأت تتمتع بها. ولكن هذا هو سبب كونها مشروعًا. كان لديه الوقت. ثم فجأة من العدم أخبرتْهُ بأنها لا تريد رؤيته بعد الآن. لقد كان أداءً مثيرًا للضحك. لقد درَّبتها صديقةٌ صالحة ما بدا من الواضح أنها قلقةٌ بشأنها. وقد ظهرت تلك الصديقة ليلة الانفصال، ووصلت في الوقت المناسب تمامًا لترافق مارثا إلى منزلها وتُفلتها من قبضته. لم يتذكر اسم صديقتها، لكنه تذكر كيف كانت تبدو، شعر أحمر، وعينان خضراوان غريبتان،

وبشرة بلون حليبٍ منزوع الدسم. لقد أخافته قليلًا. ماذا كان اسمها؟ وظن أنه زهرة من نوعٍ ما.

الأمر المضحك هو أنه تذكر اسم مارثا راتليف ولكنه لم يتذكر كيف كانت تبدو حقًّا. بالطبع، عندما رآها على صفحة الفيسبوك تذكر كل شيء. هناك كانت، الفأرة الصغيرة، التي نجت من لعنة حبٍّ سخيفة، ونجت من علاقة مثيرة للغاية مع إيثان سالتز. ربما كان عليه ألَّا يتركها ترحل بسهولة. نقر على صفحة زوجها الجديد. التي كانت في الواقع صفحة عمل. اتضح أنه يبيع أدوات مُبتكرة للمعلمين في المؤتمرات. كانت هناك صورة له يقف فيها أمام جناح في معرضٍ ما. وفجأةً، خطرت على بال إيثان فكرة، فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمام حقًّا. ستكون خطيرةً بلا شك، أكثر خطورةً من هواياته الحالية، ولكن من ناحيةٍ أخرى، قد تكون أكثر إرضاءً بكثير. كان هناك تقويمٌ للمؤتمرات القادمة على صفحة الفيسبوك الخاصة بآلان بيرالتا -كان الرجل يسافر باستمرار- وشرع إيثان في وضع خطة.

***

الفصل الثامن عشر

كان أول مؤتمر يذهب إليه إيثان -المؤتمر الأول حين كان الغرض منه مُراقبة آلان بيرالتا- مؤتمرًا للرياضيات في وسط مدينة أتلانتا. في يومه الأول هناك، حجَز في فندق قريب باسم براد أندرسون، زار إيثان جناح بيرالتا مرتديًا قميصًا صوفيًّا أرجوانيًّا ذا ياقة عالية مدسوسًا داخل سروال جينز فضفاض للغاية. لقد قال لنفسه إنه سيفعل ذلك مرة واحدة فقط، يقترب بما فيه الكفاية من بيرالتا وربما يتحدث معه حتى. كان الجناح مزدحمًا، وعلى ما يبدو، أخذ بيرالتا يجني أموالًا طائلة، وتباطأ إيثان لفترة كافية ليلاحظ أن بيرالتا، سواء عن قصد أم بغير قصد، يركز على زبائنه الإناث أكثر بكثيرٍ من زبائنه الذكور. لم يكن هناك شيءٌ غير معتاد في ذلك بالطبع، لكن إيثان اعتقد أن هناك شيئًا ما منحرفًا قليلًا في الطريقة التي تُمشِّط بها أعين آلان المعلمات اللاتي يرتدين ملابس غير أنيقة. بدا أن بيرالتا يترصَّد فريسة.

اتضح أنه كان محقًّا بشأن شهية بيرالتا، على الرغم من أن إيثان لم يكن متأكدًا من ذلك حتى منتصف المؤتمر. ظل إيثان يراقب بيرالتا من بعيد طوال الأيام الثلاثة في أتلانتا. لقد كان من السهل القيام بذلك، حيث كان مركز المؤتمرات يعجُّ بالناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضًا. أغلقت قاعة المعارض أبوابها كل ليلة في السادسة، وكان إيثان يجلس على إحدى الأرائك الجلدية الصناعية في الردهة بالقرب من المدخل.

وكان يتظاهر بقراءة برنامج المؤتمر ويُراقب بيرالتا. في الليلة الأولى لم يرصده، لكن في الليلة التالية حصل بيرالتا على طاولةٍ بمفرده في بار الردهة وشاهد إيثان بيرالتا يقترب من امرأةٍ وحيدة تحمل حقيبة مؤتمرات وتشرب المارجريتا بمفردها. تحدثا لمدة عشرين دقيقة تقريبًا، ثم ابتلعت المرأة مجموعة من زميلاتها اجتحنَ المكان. وتلاشى بيرالتا بعدها.

في الليلة الأخيرة من المؤتمر، تسلَّل بيرالتا خارجًا عبر الردهة بعد أن بدَّل بذلته الرخيصة وارتدى الجينز والجاكيت الشتوي، وخرج إلى مساء شهر فبراير المعتدل. تبعه إيثان إلى نادٍ للتعري كان يبعد تقريبًا خمسة وعشرين دقيقة سيرًا على الأقدام، وتردد قليلًا بالخارج، لكنه قرر بعد ذلك الدخول ومعرفة ما كان يحدث. كان المكان هادئًا بالداخل، وعلى الرغم من أن إيثان استخدم بطاقة هوية مزيفة وكان متنكرًا إلى حدٍّ ما كمعلم رياضيات في المدرسة الإعدادية يواجه تحديات في الموضة، إلا أنه كان لا يزال يكره الفحص الذي يتعرض له المرء في نوادي التعرِّي. بالطبع ليس من الراقصات اللاتي كن يطللن فقط من أعمدة التعري ويرين رجالًا ضبابيين يرتدون إما بذلات باهظة الثمن أو رخيصة، ولكن من الحراس الذين يتقاضون رواتب لإلقاء نظرةٍ جيدة على الرجال الذين يدخلون المُنشأة بمفردهم.

اتَّجه إيثان مباشرةً إلى البار الفارغ، وجلس على أحد الكراسي الدوَّارة، وطلب جعة هاينكن مقابل خمسة عشر دولارًا، ثم التفت لمشاهدة ما يحدث. كان المسرح عبارة عن منصة مرتفعة تبرز باتجاه مركز البار. كانت هناك مقاعد حولها، وتوقع أن يرى بيرالتا في أحدها، لكنه لم يكن موجودًا. كان هناك رجلان آخران بمفرديهما فقط ومن ثم زوجين، وكانت أنثى الزوجين هي أكثر أفراد الجمهور صخبًا، حيث

أخذت تصيح مشجعة وتُلوح بالدولارات الورقية أمام الراقصة التي كانت حاليًا امرأة ممتلئة الصدر تفتقد إلى الإيقاع الطبيعي. استغرق الأمر دقيقة قبل أن يرصد إيثان بيرالتا على طاولة مُقابلة للجدار الخلفي، يتحدث إلى إحدى الراقصات المتجولات، ربما يتفاوض على جلسة رقصٍ خاصة خلف الأبواب المغلقة. ولكن الراقصة انسحبت، وانحنى آلان إلى الخلف في الظلال، وهو يحتسي ما يشبه الكولا.

- مرحبًا أيها الوسيم.

كانت تلك هي الراقصة نفسها التي قدمت عرضًا لبيرالتا للتو. كانت صغيرة ونحيفة، لها شعر أحمر مصبوغ وماكياج مُتكتِّل جعل من الصعب تخيُّل مظهرها الحقيقي.

رد إيثان: «على الأرجح أنكِ تُطلقين لقب ‹الوسيم› على جميع الرجال».

- هذا صحيح، لكنك، حقًّا وسيم.
- أوه شكرًا. ما اسمكِ؟
- دِيبي.
- ديبي، أنا هنا فقط لأشرب الجعة ومُشاهدة الراقصات، في الوقت الحالي. متى سيحين دوركِ؟
- لقد رقصتُ للتو، قبل فتاتين، لذلك لن أعود إلى هناك لمدة ساعة على الأقل. ولكن يمكنني أن أمنحك رقصةً خاصة.

فكر إيثان في سؤالها عمَّا تعرفه عن الرجل الذي كانت تتحدث إليه للتو، لكن الأمر لم يكن يستحق المخاطرة. علاوة على ذلك، فما الذي يمكن أن تعرفه سوى أنه رفض رقصةً خاصة، كما كان على وشك أن يفعل هو.

- كلَّا، شكرًا ديبي.

قالت: «حسنًا، إذا غيرتَ رأيك...»، وانطلقت مُتبخترة، وهي تجيل النظر في أرجاء الحانة نصف الفارغة قبل أن تشُقَّ طريقها وراء الكواليس.

شرع إيثان في تقييمِ خياراته. لقد خطر له أن هذه قد تكون نهاية مغامرات آلان بيرالتا الجنسية. لقد أخفق في إقناع معلمة رياضيات وحيدة بقضاء الوقت معه، لذا فهو يستمتع بالمتع البسيطة في نادي روكستار للتعري، في آخر ليلة حريةٍ له من مارثا راتليف. إذا كان الأمر كذلك، فبإمكان إيثان الانتظار حتى يحظى بيرالتا بفاتنته وربما برقصةٍ خاصة أو اثنتين، ويغادر، وبعد ذلك يمكنه العودة في موعد الإغلاق على أمل أن تقرر إحدى الراقصات العودة إلى المنزل بمفردها. رغم ذلك، فقد كره إيثان تلك الخطة، وخاصة لأنه أصبح الآن زبونًا ظاهرًا في نادي روكستار، وفي ليلة عمل ضعيفةٍ أيضًا. أنهى الجعة وغادر.

كانت هناك حانتان جنبًا إلى جنب مباشرةً في الشارع المقابل لنادي التعري. إحداهما بلا نوافذ وكانت تعلن عن تقديمها أباريق جعة رخيصة الثمن وطاولات بلياردو. أما الحانة الأخرى فكانت أقرب إلى مطعم راقٍ. يحمل اسم ماك تشيكن Mac's Chicken، يتباهى بنافذةٍ كبيرة مُزوَّدة بمقاعدَ تطلُّ على الشارع. دخل إيثان، وقيل له أن باستطاعته الجلوس في أي مكانٍ شاء، واختار أحد المقاعد المُجاورة للنافذة الكبيرة. ظهرت النادلة، كانت أجمل بكثيرٍ من أي راقصة رآها في الشارع المقابل. طلب إيثان جعة IPA محليَّة وسلطة دجاج مشوي. وبينما كان على وشك الانتهاء من وجبته، لمح بيرالتا يغادر نادي التعري، ويقف للحظة على الرصيف وكأنه يقرر أيَّ طريقٍ سيسلكه. منح ذلك إيثان وقتًا ليشير إلى نادلته وسرعان ما دفع فاتورته نقدًا. وعندما خرج إلى الشارع، كان لا

يزال يراقب بيرالتا، على الرغم من أنه اتجه إلى شمال المدينة وانعطف عند الزاوية. تبعه إيثان.

بعد عشرين دقيقة تقريبًا من السير، بدا واضحًا لإيثان أن بيرالتا يبحث عن شيءٍ لم يتمكن من إيجاده في نادي روكستار. أخذت الأحياء تزداد وحشة -واجهات متاجر مهجورة أكثر، ومحالٌّ للرهونات ومكاتب صرف شيكات أكثر، ومصابيح شوارع مُعطلة أكثر- وكان بيرالتا يبطئ خطواته، إما بسبب الخوف أو لأنه يبحث عن مكانٍ معين. وكانا على مشارف حديقةٍ ما عندما اقتربت امرأة صغيرة من الاتجاه الآخر وشرعت تتحدث مع بيرالتا. وقف إيثان بالقُرب من محطة حافلات واتكأ على فتحة المظلة هناك، يراقب كليهما. بعد ثلاثين ثانية من المُحادثة تقريبًا، دخلا معًا إلى الحديقة المظلمة عبر قوس حجري. فكر إيثان في أن يتبعهما، لكنه كان يعلم تمامًا ما يفعلانه، لذلك قرر أن يمكث في مكانه. في الحقيقة، لقد ألقى في الواقع نظرةً جيدة على بائعة الهوى. كانت ترتدي تنورة قصيرة وكعبًا عاليًا، ولم يكن ذلك مفاجئًا، لكنها كانت ترتدي سترةً شتوية منتفخة فوقها، ربما فقط لأنها تشعر بالبرد من كونها في الشارع طوال الليل. وكانت صغيرة الحجم، في حجم طفل تقريبًا، ولكن لها الكثير من الشعر الداكن الذي كان إما شعرًا مستعارًا من نوعٍ ما أو رشته بمثبتٍ للشعر على شكل خوذة. حتى إنه ألقى نظرة على وجهها، بما يكفي ليرى أنها تضع مكياجًا لامعًا على وجنتيها.

لقد انتظر.

وبعد عشر دقائق، وربما أقل، خرج بيرالتا من الحديقة بالطريقة نفسها التي دخل بها. أخذ يسير بسرعة أكبر بكثير ممَّا كان عليه من ذي قبل، متجهًا جنوبًا نحو وسط المدينة، مبقيًا رأسه منخفضًا. تراجع إيثان إلى الخلف أكثر داخل مظلة موقف الحافلات بينما مرَّ بيرالتا من

جانبه، لكن هذا لم يكن يهم. إذ لم يلتفت بيرالتا نحوه ولو حتى بنظرة خاطفة.

بقي إيثان حيث كان، وبعد خمس دقائق تقريبًا خرجت بائعة الهوى من الحديقة عائدة إلى الشارع. توقفت سيارةٌ ما فذهبت وتحدثت إلى السائق، ولكن بعد ذلك ابتعدت السيارة مرة أخرى، وبقيت هي بمفردها. كان هذا سهلًا للغاية، فكر إيثان، واتَّجه نحوها.

***

قالت ريبيكا: «أنتَ في مزاج جيد».

- هل أنا كذلك؟ كنتُ أظنُّ أنني دائمًا في مزاجٍ جيد.

أزعج هذا التعليق إيثان قليلًا، فلطالما كره أن يشير الناس إلى تقلبات مزاجه.

كانت ريبيكا، التي ترتدي سترة رمادية داكنة فوق بنطال جينز، وقد رفعت شعرها، تُقطع دجاج البيكاتا، وتتناول قضمات صغيرة. لقد كان طبق دجاج البيكاتا هو الطبق الوحيد الذي تتقنه في الطهي، وكانت كثيرًا ما تعدُّه.

- إنك دائمًا ما تكون في مزاجٍ جيد، ولكنكَ الليلة في مزاجٍ أفضل. هل كانت رحلتك جيدة؟

عاد إيثان من أتلانتا في ساعةٍ متأخرة بعد الظهر، بعد أن قاد السيارة نصف الليل ومعظم النهار. اتصل بـريبيكا عندما أصبح على بُعد ساعة تقريبًا، وذلك قبل أن يبدل السيارة مباشرةً في منزله السري الذي يبعد ساعة في توهيكون، وأخبرها بأنه قادم إلى المنزل. لم يكن يعتقد بأن ريبيكا تحظى بعلاقاتٍ غرامية خلال غيابه، ولكن حتى لو كانت تفعل، فآخر شيء يريده هو أن يضبطها مُتلبسة. لقد كان زواجهما جيدًا كما

هو عليه، ولم يكن لديه سببٌ لإضافة أيٍّ تعقيدات إلى حياتهما الخالية من المتاعب.

- كانت رحلتي على ما يرام. المشكلة هي أن كل مالك متجر خردوات يستطيع الآن الدخول إلى الإنترنت والبحث عن قيمة كل شيءٍ في متجره. لقد أصبح العثور على الكنوز أصعب بكثير.
- رغم ذلك، لا يزال من الممتع البحث عنها أليس كذلك؟
- دائمًا. وقد ابتعتُ بعض اللوحات -تبدو وكأنها لوحات مُقلدة لشاجال رُسمت في السبعينيات- وإذا غيرت الإطارات ووصفتها بأنها فنٌّ شعبي، فمن المؤكد أن بعض أهل فيلادلفيا سوف يدفعون أكثر من اللازم مقابلها.

قالت ريبيكا وهي تتكئ فوق طبقها لتتناول قضمةً صغيرة: «أترى ما أعني؟ مزاجٌ جيد».

تحت الطاولة، ضمَّ إيثان يده اليسرى إلى قبضةٍ مُحكمة، بينما أومأ برأسه موافقًا زوجته.

بعد العشاء تلك الليلة، صعد إيثان إلى مكتبه في الطابق العُلوي من المنزل الحجري البني. ضبط الإضاءة بشكلٍ مثالي، ثم غمره بألحانٍ هادئة. أولًا، فكَّ غلاف اللوحات الثلاث الصغيرة التي ابتاعها فعليًّا من متجرٍ للتحف القديمة يقع خارج جرينسبورو مباشرةً في طريق عودته إلى فيلادلفيا. كانت عبارة عن تقريبَات بدائية لأسلوب شاجال، والتي على الأرجح قد رسمها رسامٌ هاوٍ قبل نصف قرن، ولكن كما قال لريبيكا، كان تغيير الإطار في بعض الأحيان هو كل ما يلزم لإقناع أحد حديثي الثراء المحليِّين بدفع مبالغ زائدة مقابلها. حدق إلى اللوحات

الثلاث الصغيرة لفترة، كانت قد بدأت تحوز إعجابه. وقد صورت خيولًا طافية وشموسًا رهيبة.

بعد إعادة تغليف اللوحات، سكب لنفسه سكوتش وجلس أمام الحاسوب، ليجد على الفور المقالة التي يبحث عنها، تلك التي تُعلِم الجمهور غير المهتم أن بائعة هوى تُدعى كيلي بلدوين قد عُثِر عليها مقتولة في حديقة بيدمونت، وقد تعرَّضت للضرب حتى الموت. وقد ذكرت المقالة أنها تبلغ من العمر 29 عامًا. نهض وتوجَّه إلى خزانة الكتب المُدمجة الخاصة به، وأخرج مجلده «قصص جون تشيفر» الذي حوله إلى مخبأ، وفتحه. كانت بداخله قائمةٌ مكتوبة بخط اليد بأسماء الأشخاص الذين قتلهم، القائمة التي بدأها منذ أعوامٍ عديدة. وأضاف إليها اسم كيلي بالدوين، بما في ذلك تاريخ ومكان مقتلها، ثم ألقى نظرة على الأسماء، ولاحظ كيف تغيَّر خط يده على مر الأعوام. أعاد الكتاب إلى مكانه على الرف، وتساءل إذا كان يتصرف بطيشٍ شديد. كانت هناك خزنة جيدة في مكتبه، محمية برقم سري لا يعلمه سواه، لكن الخزائن يمكن كسرها. بالإضافة إلى ذلك، كانت القائمة سرًّا خاصًا به، لكنها لم تكن لتبقى سرًّا إلى الأبد. فيومًا ما سيعلم العالم بأسره بعدد الأشخاص الذين قتلهم طوال حياته. فإما أن يُقبض عليه في النهاية -ليس أسوأ شيء في العالم إذا كان مسنًّا جدًّا عندما يحدث ذلك- أو سيموت وسيُعثر على القائمة.

كان يشعر بالقلق أحيانًا من أن مخبأه، إصداره الأول من مجموعة تشيفر، كان في الواقع مخبأٌ جيدٌ جدًّا أكثر من اللازم. ماذا لو فارق الحياة ولم يكلف أحد نفسه عناء النظر إلى كُتبه؟ لقد فكر في هذا الأمر من قبل وقال لنفسه إنه سيقوم في النهاية بإعداد نسخة من قائمته

ليضيفها إلى خزنته أيضًا. كان من الأهمية بمكانٍ أن يُشاد يومًا بجرأته المطلقة فيما فعله. فالإرث هو كل ما نتركه وراءنا.

سكب المزيد من الاسكوتش في كأسه. أجل، لقد كان في مزاجٍ جيد تلك الليلة. لم تسر الأمور على ما يرام في أتلانتا فحسب، بل أصبح لديه الآن مشروعٌ للمستقبل المعلوم. لماذا لم يفكر مطلقًا في القيام بذلك من قبل -مُراقبة شخص يسافر من أجل كسب رزقه وقتل الأشخاص الذين يتواصلون معه؟ لقد استوفى الأمر معاييره على نحوٍ مثالي- لا يوجد اتصال بالضحايا، باستثناء قتلهم، وجعل الأمر يبدو وكأنها مسؤوليَّة شخص آخر. في هذه الحالة، جعل الأمر يبدو وكأنه عمل قاتلٍ متسلسل. بالطبع، ساعده في ذلك كون بيرالتا في طريقه بالفعل لأن يصبح قاتلًا متسلسلًا على أي حال. كان من الواضح جدًّا أنه يصطاد النساء في رحلاته، فقط لمضاجعتهن بالطبع، لكنه كان لا يزال يصطاد. وتساءل إيثان إذا كان قد نجح في إقامة علاقةٍ مع أيٍّ من المشاركات الأخريات في المؤتمرات التي يحضرها خلال رحلاته، أم أنه كان يلجأ دائمًا إلى بائعات الهوى. بالطبع، سيكون الأمر أسهل بكثير لو كان يذهب دائمًا إلى بائعاتِ الهوى -أسهل بالنسبة لإيثان على الأقل- ولكن سيكون أقل إثارة بكثير. كان يأمل أن يخوض بيرالتا قصة حب كلاسيكية خارج إطار الزواج في بعض الأحيان، بحيث يتسنى لإيثان قتل شخص يشكل أهمية للعالم أكثر قليلًا.

وعلى الرغم من تحفظاته الداخلية، سمح إيثان لنفسه بالتخيُّل قليلًا، والاستمتاع بالمستقبل بدلًا من البقاء في الماضي. لقد استطاع بالفعل تخيُّل المشهد. كم عدد النساء اللاتي سيقتلهُن قبل أن يُكتشف أمر بيرالتا بسبب جرائم لم يرتكبها على الإطلاق؟ كل ما يعرفه إيثان هو أن اللعبة ربما تكون قد انتهت. ربما يكون الحمض النووي لبيرالتا مسجلًا في

إحدى قواعد البيانات لسببٍ ما (غير مُحتمل ولكن وارد)، ويُلقى القبض عليه بسبب وفاة بائعة الهوى في أتلانتا. لكن إيثان شكك في ذلك. لقد اعتقد أنه سيكون قادرًا على الإفلات بهذه اللعبة لفترةٍ من الوقت حتى يكتشف أحد محققي الشرطة أن بيرالتا كان موجودًا بالمُصادفة في مسرح سلسلة من الجرائم على مستوى البلاد. وربما ستُصنع حلقة تلفزيونية خاصَّة عن ذلك في برنامج «ديت لاين» (Dateline).

ذكر نفسه بالهدوء، والتوقف عن الاستغراق في الأحلام بشأن المستقبل. هذا ما يفعله الناس العاديُّون. صغار الناس. ومع ذلك، لو نجحت خطته حقًّا، فلن يسعده شيء أكثر من التفكير في الفأرة مارثا راتليف، والرعب الذي سينتابها عندما يُكشف أن زوجها كان في الواقع قاتلًا متسلسلًا حصد أكبر عددٍ من الأرواح. في الحقيقة، هذا هو السبب الحقيقي وراء قيامه بكل هذا. من أجل مارثا، المصابة بلعنة الحب. من أجل مارثا، التي أفلتت من قبضته.

***

telegram @yasmeenbook

الفصل التاسع عشر

كانت جرائم بيرالتا، كما بات إيثان يسميها، بعضًا من أفضل التجارب في حياة إيثان. لقد كانت المؤتمرات أماكن سهلة بالنسبة له للاحتفاظ بسريَّة هويته. كان بيرالتا شديد التركيز على مساعيه الجنسية لدرجة أن إيثان لم يقلق أبدًا بشأن اكتشاف أمره. لقد أخذ يراقب بيرالتا من بعيد -وفي بعض الأحيان من كثب إلى حدٍّ ما- ومع مرور الوقت أدرك أن الرجل يتبع نمطًا معينًا. أولًا وقبل كل شيء، كان يغازل المشاركات في المؤتمر، ويتسكع في حانة الفندق، ويبحث عمَّن يضاجعها. وإذا لم تنجح هذه المحاولات -ونادرًا ما كانت تنجح- كان يغادر محيط المؤتمر، ويتوجه إلى حاناتٍ رخيصة في وقتٍ متأخر من الليل بحثًا عن فريسة سهلة، أو يزور نوادي التعرِّي وصالات المساج. من هناك، استمرَّ في خفض سقف توقعاته.

في شيكاجو، بعد شهرين من قتله كيلي بالدوين في أتلانتا، راقب إيثان بيرالتا يقضي ليلة متأخرة في إحدى الحانات يشتري المشروبات ويغازل امرأة من سكان المدينة. جلس إيثان، المتنكر في قميص هوكي وقبعة رأس للبيسبول، إلى طاولة بالقُرب من الخلف بجوار طاولات البلياردو. تبعَهُما خارج الحانة، وراقبهما وهما يترنحان عائدَين إلى فندق بيرالتا، متعانقين، وأردافهما تتلامس. وجد إيثان مكانًا ليكمن فيه عبر الشارع المقابل للفندق، وراقب الأبواب الدوَّارة، على أمل ألا

تقرر المرأة قضاء الليلة معه، مفترضًا بطريقةٍ ما أنها لن تفعل. اتضح أن إيثان كان محقًّا، في تمام الساعة الثالثة صباحًا خرجت المرأة من الفندق، لتدخل تحت دائرة الضوء المُسلط على موقف السيارات الفارغ. قلقًا من أن تكون قد طلبت سيارة تقلها، تحرك إيثان بسرعة، ثم حالفه الحظ عندما بدأت المرأة بالسير. إذ جرَّ المرأة إلى الزقاق الخلفي بجوار الفندق، وأحكم قبضته الخانقة عليها ممَّا أدى إلى إغمائها، وأجهز عليها بطوبة. كان اسمها بيانكا مورانوس، وكان هناك عددٌ لا بأس به من القصص عنها في الصحافة. ظلَّ إيثان يتساءل إذا كان سيجري التعرُّف على بيرالتا. لقد رآهما العديد من رواد الحانة الآخرين معًا. ودخلا الفندق معًا. لا بدَّ أن ملابسها كانت مليئة بحمض بيرالتا النووي. لكن لم يُسفِر ذلك عن شيء.

وجد إيثان نفسه ممزقًا بين الاستمتاع بلعبته الجديدة والتساؤل عن متى سيحدد شخصٌ ما بيرالتا كمشتبه به. لطالما كان يعتقد أن معظم ضباط الشرطة- على عكس ما ترغب البرامج التلفزيونية وروايات المحققين في إقناعك به- ليسوا أذكياء بما فيه الكفاية ولا لديهم دافعٌ قوي تحديدًا لحل الجرائم. في فورت مايرز، تجاوز إيثان كل الحدود وقتل نورا جونسون بينما كان آلان بجوارها مباشرة في السيارة. لقد شاهد عملية الاحتيال بأكملها تتكشف في الحانة، حيث بدا بيرالتا مفتونًا بالنادلة الجميلة التي غازلته بدورها. بعد انتهاء الدوام، تعقب بيرالتا إلى موقف السيارات حيث التقى بالنادلة. التي قادته إلى سيارة متوقفة، ودخلا معًا في المقعد الأمامي. فوجئ إيثان بأنهما لم يجلسا في المقعد الخلفي، وانتظر لحظة قبل أن يقترب من السيارة، ولكن بعد مرور دقائق قليلة، أصبح من الواضح أنهما لن يذهبا إلى أيِّ مكان. ورغم علمه بمدى خطورة الأمر، فإنه كان متحمسًا للفكرة، حيث خلع

ربطة عنقه ثم انزلق ببساطة إلى المقعد الخلفي، وتمكن من لفها حول عنق المرأة بينما كانت يداها أسفل بنطال بيرالتا. لم ينظر بيرالتا في اتجاهه قط، بل اندفع خارج السيارة بينما طلب منه إيثان أن يركض. ولم يكن من المُستغرب أن بيرالتا لم يبلغ عن الحادث قط.

لقد كانت صدمة حقيقيَّة لآلان، عندما سمع أن عاملًا في موقف السيارات قد ألقي القبض عليه بتهمة القتل. وشكَّل إطلاق سراحه المفاجئ في النهاية صدمة أقل. وعلى حدِّ علمه، فإن القضية توقَّفت.

شعر إيثان بالملل قليلًا، فقرر أن يرى إذا كان بإمكانه توجيه أصابع الاتهام نحو بيرالتا بقوةٍ أكبر. في أثناء وجوده في سان دييجو، زار بيرالتا منزل امرأةٍ في الليلة قبل الأخيرة له هناك، وهي امرأة اتضح أنها معالجة تدليك تعمل من منزلها. بناءً على لغة جسد بيرالتا وهو يغادر منزلها، يبدو أنه كان يتوقع أكثر ممَّا حصل عليه. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، قرر إيثان أن يتتبع معالجة التدليك، التي عرف لاحقًا أنها تُدعى ميكائيلا ساجر، كانت لديها لافتة تجارية صغيرة بجوار باب منزلها الأمامي. وقد تتبَّعها إيثان في الليلة التالية إلى حانةٍ ساحلية، حيث طلبت كأسًا من النبيذ وأخرجت رواية «أخرجوا الجثث» (Bring Up the Bodies) بغلافٍ ورقي من حقيبتها القماشية الكبيرة. استحوذ على المقعد المجاور لها وشرع في الحديث معها.

قالت واعتلى وجهها قلقٌ ظاهرٌ: «أنت لست...».

قال إيثان: «لستُ من؟».

- أوه، عفوًا. هذا محرجٌ بعض الشيء، لكني أنتظر شخصًا ما هنا، بعد ساعة تقريبًا، فقط ظننتُ أنك قد تكون هو.

- هل أنتِ في مواعدة إلكترونية؟

قالت: «لستُ كذلك بعد»، ثم أخبرها بأنه يعملُ مديرًا في إحدى المدارس بشمال كاليفورنيا، وأنه هنا ليحضر مؤتمر معلِّمي اللغة الإنجليزية. وعلى ذكر المؤتمر برقت ومضة إدراك في عينيها -لا بدَّ أن بيرالتا أخبرها بحضوره- راقبها إيثان وهي تفكر في أن تروي له تجربتها السيئة مع أحد زبائن التدليك، لكنها تراجعت. احتسيا مشروبَين وتقاسما المقبلات، ثم أخبرها إيثان بأنه من الأفضل أن يرحل قبل وصول موعدها الحقيقي، وأنه في الحقيقة أتى إلى هنا على أمل التنزُّه على الرصيف ليلًا لمشاهدة النجوم. ألقت نظرةً مُحمَّلةً بالذنب حول البار، ثم سألته إذا بإمكانها مرافقته. أما الباقي فكان يسيرًا.

قبل أن يلقيها في الماء، كان قد ثبَّت دبوس جين أوستن الذي سرقه من جناح بيرالتا في بلوزتها. لقد حان الوقت أخيرًا لجعل شخصٍ ما ينتبه.

بعد عودته إلى فيلادلفيا من سان دييجو، انتظر سماع الأخبار، لكن لم يأتِ أيُّ جديد. وفي غضون ذلك الوقت، شتت انتباه إيثان تطوُّر مثير للاهتمام في حياته بصفته روبرت تشارنوك. إذ إن إحدى عميلاته القدامى، جين هيلرمان، ربة منزل ضجرةٌ للغاية في منتصف العمر وزوجةٌ لمستشار مالي، قد وقعت في غرام لوحات فنان كندي غامض من منتصف القرن العشرين يُدعى دونالد كارليل، الذي اشتهر برسمه للمشاهد البحرية الضبابية -ولا شيء آخر عمليًّا- لساحل نوفا سكوشيا. سافر إيثان إلى هاليفاكس على حساب جين ليرى ما إذا كان بإمكانه شراء بعض اللوحات لها. وعلى الرغم من أنه لم يعثر على أيِّ عمل فني متاح، فإنه وجد ابن شقيق كارليل، وهو رسام ألوانٍ مائية يتمتع بموهبة رسم المناظر البحرية بأسلوبٍ يشبه إلى حدٍّ كبير أسلوب عمه الراحل. كان يعرض لوحاته للبيع في اثنين أو ثلاث من صالات العرض السياحية تحت اسمه الخاص، لكن إيثان، بعد أن اكتسب ثقته وابتاع للشاب الذي

يعاني سوء التغذية، بعض الوجبات اللذيذة، أقنعه برسم عدد قليل من اللوحات خصيصًا له. لوحات تُشبه لوحات دونالد كارليل الأصلية، ومُوقعة بتوقيع كارليل المميز المخطط في الزاوية اليمنى السفلى. وقد عاد إلى فيلادلفيا ليجد زبونة حمقاء للغاية، يسعدها دفع مبالغ طائلة مقابل هذه اللوح المُزيفة.

في شهر إبريل، ذهب إيثان إلى دنفر في اليوم الأخير من إحدى مؤتمرات بيرالتا، وبينما كان ينضم إلى الحشد في ندوة معلمي اللغة الإنجليزية في الجنوب الغربي، وهم يشقون طريقهم بصعوبةٍ عبر قاعة المعارض، غلبه الإرهاق من مُجرد التفكير في ملاحقة بيرالتا في جولات زير النساء خاصته عبر المدينة. لقد أراد أن يُلقَى القبض على بيرالتا. أراد قصصًا إخبارية، وأراد أن يعرف أن مارثا راتليف أصبحت مقتنعةً أكثر من أيٍّ وقت مضى بأنها ملعونة حقًّا. ولهذا السبب ذهب إيثان إلى دنفر في الليلة الأخيرة من المؤتمر فقط. لقد أدرك أنه ما لم يحالف بيرالتا الحظ مع أحد رواد المؤتمر -وكانت احتمالية ذلك تُقارب الصفر- فإن معظم عمليات مطارداته النسائية ستقع في الليلة الأخيرة. وهذا ما حدث في دنفر، إذ تتبع إيثان بيرالتا إلى حيٍّ فايف بوينتس، حيث اختفى في حانةٍ ركنية من طابق واحد ذات واجهة من الجصِّ ولافتة نيون حمراء كتب عليها ببساطة «بار».

وعلى مدار ساعتين، انتظر إيثان في النافذة الأمامية لمقهى يقع على الجانب الآخر من الشارع. خرج بيرالتا قُرب موعد الإغلاق برفقة امرأتين، واحدة في كل ذراع. ساروا جميعًا معًا، وبدا بيرالتا مترنحًا بشكلٍ ملحوظ، باتجاه متجر لبيع المشروبات الكحولية يبعد مسافة بنايتَين. شاهد إيثان محادثةً تدور أمام المتجر، ثم سار الثلاثة معًا لمسافة مبنى آخر ليجدوا أنفسهم أمام ماكينة صراف آلي. لا شك أن بيرالتا سحب

الحد الأقصى الذي يسمح به حسابه المصرفي. أخذت الفتاتان المال، ثم دفعتا بيرالتا بعُنف على الأرض وابتعدتا على نحوٍ غير مبال. لم يسبق لإيثان أن رأى بيرالتا بهذا الضعف، وافترض أن الفتاتَين المحتالتين قد وضعتا له مخدرات في مشروبه.

تبع الفتاتين، اللتين توارتا داخل موقف سيارات فارغ. جثم إيثان خلف إحدى السيارات وشاهدهما تقتسمان النقود. غادرت إحدى الفتاتين، بينما بقيتْ الأخرى في الموقف للحظة، أخرجت سيجارة من حقيبتها وأشعلتها. في وقتٍ سابق من ذلك اليوم، كان إيثان قد مرَّ بكومة من الخردوات المجانية في شارع سكني ووضع في جيبه مطري اللحوم الذي كان في صندوق مليءٍ بأدوات مطبخ أخرى. أصبح الآن في جيبه، وهو يخرج من الظلام ويتقدم نحو الفتاة. قفزت قليلًا عندما رأتَه، فتوقف، رفع يديه، وقال: «آسف. لم أقصد إخافتك. أكره أن أطلب، لكن هل يمكنني الحصول على واحدةٍ من سجائرك؟ حتى إنني سأدفع لك ثمنها».

ابتسمت في اتجاهه، وهي تتمايل قليلًا على كعبيها، وتتساءل عن كونه شخصًا آخر يمكنها خداعه. قالت: «إنها نعناع».

- نعناع، يا إلهي! الواحدة من هذه لا تساوي أكثر من دولار واحد.

أخرج إيثان محفظته، يبحث فيها.

ضحكت قائلة: «هل ستدفع لي حقًّا مقابل سيجارة؟».

- بالتأكيد. ولم لا؟ أنا ثري.

- حقًّا؟

- ليس حقًّا. ربما أنا مجرد ثمل.

ضحكت مرةً أخرى وأخرجت علبة السجائر المعبأة. أخذ إيثان واحدة بيده اليسرى بينما يخرج مُطري اللحم من جيب سترته بيمناه. ضربها

على فكها، فسقطت متكومة على الأرض. وجثا بالقُرب منها. كان قد ضربها بالجانب المسنن لمُطري اللحوم، وتدلى جزء من جلد وجنتها. ودون أن يفكر كثيرًا في الأمر، مسح إيثان المُطري من بصمات الأصابع، مستخدمًا تنورة الفتاة الرخيصة، وألقاها إلى الطرف الآخر من الزقاق. ثم ضغط بيده برفقٍ على الدم المتدفق على وجنتها، فتبللت أصابعه. نهض وغادر موقف السيارات، مثبتًا يده إلى جانبه.

عندما عاد إلى ماكينة الصراف الآلي، لم يرَ بيرالتا على الفور، لكنه علم أنه لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا. عاد إيثان في اتجاه متجر المشروبات الكحولية ورأى بيرالتا يتكئ على جانبه الطوبي. اقترب إيثان منه، ووضع يده اليمنى على أسفل ظهره وقال: «مرحبًا يا رجل، هل أنت بخير؟».

نظر إليه بيرالتا بأعينٍ زجاجية خالية من التعبير -أيًا كان ما أعطته إياه الفتاتان فهو قوي جدًّا- وقال: «أعتقد أنني تعرضت للسرقة للتو».

قال إيثان: «يبدو كذلك»، كانت هناك صَفَّارات إنذار في الأفق، فأضاف: «لا تقلق، الشرطة قادمة». ومسح معظم الدماء من يده في قميص بيرالتا.

سار بعيدًا بخطواتٍ سريعة، وتساءل إن كان قد تمادى، لكن بصراحة، لقد بدأ يملُّ تلك اللعبة. وقد أراد أن يرى بيرالتا على الأخبار الوطنية. ولم يتذكر أنه ترك شاهدًا حيًّا في موقف السيارات إلا عندما عاد إلى غرفته في الفندق. لقد كان تصرفًا غبيًّا للغاية من قِبله لدرجةٍ جعلته يضحك ملء شدقيه.

في صباح اليوم التالي، في أثناء رحلة العودة من دنفر إلى فيلادلفيا، شعر بالتوتر في المطار للمرة الأولى منذ فترة طويلة، وكأنه ينتظر بطريقةٍ ما أن يتسبب اسمه في تنبيه موظف الأمن. لقد تصرف باستهتار كبير حقًّا حين لم يجهز على الفتاة في موقف السيارات. بل أنه سمح لها

بالنظر إليه. لم يكن قلقًا بالقدر نفسه بشأن بيرالتا، الذي على الأرجح لم يكن يتذكر الأحداث التي وقعت في الليلة السابقة. لكن إيثان عاد إلى منزله دون مُضايقة من الشرطة، وفي مكتبه تلك الليلة قرر أنه بحاجة إلى إنهاء عمليات قتل بيرالتا عاجلًا وليس آجلًا. لقد أصبح الأمر محفوفًا بالمخاطر. كان المؤتمر التالي الذي من المقرر أن يحضره بيرالتا، وفقًا لموقعه على الإنترنت، يُعقد في ساراتوجا سبرينجز، نيويورك. حسنًا، على الأقل لن يضطر إلى السفر إلى هناك. وكانت منطقة يعرفها عن ظهر قلب. قرر أن يذهب، وعزم على أن تكون آخر مرةٍ يرتكب فيها جريمة من جرائم قتل بيرالتا. بطريقةٍ ما، سيجعل الأمر واضحًا جدًّا حتى إن شرطيًّا من ريف نيويورك قد يكون قادرًا على اكتشاف ذلك. ربما سيدس إحدى بطاقات عمل بيرالتا في جيب الضحية.

ولكن عندما وصل إلى ساراتوجا سبرينجز حدث شيء مثيرٌ للاهتمام. بل ومقلق أيضًا، لكنه كان مثيرًا للاهتمام بشكلٍ أكبر. في ليلته الأولى هناك، والثانية لبيرالتا، اكتشف أنه لم يكن الوحيد الذي يراقب البائع المتجول. لقد راح يلاحق بيرالتا في ساعة العشاء بلا هدف، دون أن يولي الأمر الكثير من الاهتمام. لكن بيرالتا عادةً ما يجد مكانًا لتناوُل العشاء قبل أن يتجه إلى ذلك الجزء من البلدة الذي قد يجد فيه نادٍ للتعري أو بائعة هوى. لذلك، كان من المهم مراقبته منذ البداية. لكن في تلك الليلة، وبينما هو يتسكع على بُعد مبنى واحد خلفه، انتاب إيثان شعور مزعج بأنه مُراقَب، وأن هناك من يتبعه. وفي لحظةٍ ما، انحنى إيثان ليربط حذاءه، فرأى امرأة على بُعد مبنى واحدٍ منه تحدق إلى نافذة خالية. بعد أن اختار بيرالتا مطعمًا أخيرًا، عاد إيثان إلى الجانب الآخر من الشارع وألقى نظرة سريعة على المرأة التي كانت خلفه. كانت تجلس الآن على مقعد في الحديقة، تتظاهر بأنها تنظر إلى هاتفها.

شعرها أحمر، وجسدها نحيف، وثمة سكون رصين يغلفها. توارى في الحانة المجاورة وكان على وشك طلب مشروب عندما خطر له اسم.

ليلي.

كانت صديقة مارثا عندما كان يُدرِّس في ميريلاند.

أخبر النادل أنه لا يزال يفكر وبقي في الحانة للحظة. لا يمكن أن يكون وجود ليلي هنا محض مصادفة. لقد كان يؤمن بالفعل بالمصادفات -فقد حدثت طوال حياته- ولكن ليست هذه الصدفة بالتحديد. تسارعت الأفكار في ذهنه، لتنسج قصةً محتملة. لا بدَّ أن مارثا أصبحت تشك في زوجها. ربما وجدت بقعة الدماء على قميصه. وربما قرأت عن إحدى جرائم القتل التي لم تحل وأدركت أنه كان هناك في ذلك الوقت. وربما كان أحد رجال الشرطة قد ركز بالفعل على بيرالتا وطلب منها تقديم حجة غياب. لم يكن الأمر مهمًّا. فقد اشتبهت مارثا بزوجها. لذلك، فعلت ما فعلته قبل خمسة عشر عامًا عندما تورطت مع رجلٍ مخيف. لقد ركضت إلى صديقتها المفضلة التي أخرجتها من الورطة. هل كانت ليلي هناك لتراقب بيرالتا؟

غمر إيثان فيضٌ من المشاعر المعقدة. وشعر برضًا خفي عندما بدأت خططه تؤتي ثمارها أخيرًا. لقد اكتشفت مارثا أن زوجها قاتل متسلسل مُحتَمل. عادت لعنة الحب التي أصابتها، والآن كانت مسألة وقت فقط قبل أن يُلقى القبض على بيرالتا بسبب إحدى جرائمه. لكن كان هناك شعورٌ آخر انتاب إيثان، شعور مألوف ولكنه نادر. كان غاضبًا. لقد أعادت إليه رؤية ليلي الشعور الذي كان يراوده منذ أعوام عندما أخذت منه مارثا. لقد تذكر ذلك جيدًا. نظرتها المتعجرفة في الحانة حيث انفصلت عنه مارثا للتو. لقد زودتها بالكلمات، ورددتها مارثا. لكن الأمر لم يقتصر على أنها قاطعت مرحه وألعابه، بل تذكَّر أنه شعر بالخوف

منها قليلًا في ذلك الوقت. لقد حاول التحديق إليها ليجعلها تذعن ولم يفلح ذلك، إذ كانت عيناها الخضراوان تنظران مباشرةً إلى عينيه دون أيِّ خوف. وقد وصفها بالوحش، وتذكر ذلك، ودون تردُّد ردت عليه بأنها وحش، وعليه أن يتذكر ذلك.

خرج عائدًا إلى الرصيف، ولم تفاجئه رؤية ليلي لا تزال جالسة على المقعد. التفتت إليه فقال: «اعتقدتُ أنكِ تبدين مألوفة».

لم تعترف بأيِّ شيء بالطبع، متظاهرةً بأنها كانت في ساراتوجا سبرينجز على نحوٍ عشوائي لحضور المؤتمر نفسه الذي تصادف أن يعمل بيرالتا به. في منتصف محادثتهما، ملأه اليقين فجأة بأنه حان الوقت لإنهاء هذا الهراء كله المتعلق بمغامرة بيرالتا. رأى سيارة أجرة مُعلِّقة إشارة فارغة تجوب الشارع. فأوقفها وقفز داخلها.

في الطريق عائدًا إلى فندقه، وإلى سيارته الكيا، كان إيثان يفكر في مارثا. وفي الوقت الذي ابتعد عنها فيه، حدث نفسه بأنه كان من السهل جدًّا التلاعب بها على أي حال، لكن الحقيقة هي أن ليلي قد تفوقت عليه، أمينة المكتبة اللعينة التي بدت وكأنها قد تطير إذا هبَّ نسيم حاد.

كان غاضبًا حينها، وكان غاضبًا الآن.

فكر في قتل ليلي. كان بإمكانه أن يعود أدراجه ويلاحقها إلى حيث تقيم، على الأرجح في فندق المؤتمر. لكن هذا سيكون سهلًا للغاية. كلَّا، لقد خطرت له فكرة أخرى، فكرة ستفقدها توازنها وتُعلمها ألا تقوم بدور نانسي درو مع أصدقائها. كان عليه أن يُرِي ليلي أنها ارتكبت خطأً فادحًا.

وفجأة لم يعد غاضبًا. بل كان سعيدًا كما البطلينوس.

***

الفصل العشرون

لم تعاود مارثا الاتصال بي بعد أن أخبرتها أنني رأيت إيثان سالتز. حاولت الوصول إليها عدة مرات وأرسلت إليها رسالة نصيَّة. لكنني بطريقةٍ ما عرفت في قرارة نفسي أنها فارقت الحياة.

لم أحاول حتى النوم في تلك الليلة. كنت أنتظر أن يصدر هاتفي طنينًا يخبرني أن مارثا بخير، على الرغم من أنني شككتُ في ذلك. بعد الفجر مباشرةً، فتحت المتصفح على هاتفي وبحثت عن آلان بيرالتا ومارثا راتليف، مضيفة بورتسموث، معتقدةً أن شراءهما لمنزل سيكون سجلًّا عامًّا. ظهر العنوان تقريبًا فورًا: 55 طريق بيرتشفيل. كانا قد دفعا 650 ألف دولار مقابل المنزل في العام السابق.

غادرتُ النزل، واستقليتُ سيارتي، وكنت قد حملت العنوان على هاتفي. قدت بأقصى سرعةٍ ممكنة ووصلت إلى بورتسموث بحلول الساعة العاشرة صباحًا، وأنا أقود عبر مركز البلدة وسط شوارعَ مرصوفة بالحصى، وبنايات من القرميد على جانبي الطريق. كان الطقس مشمسًا، لكنها نوع الشمس الضبابية التي تشير إلى احتمالية هطول أمطار في الآونة الأخيرة. بعد أن عبرتُ مركز البلدة، سلكت عدَّة منعطفات على طول الشوارع السكنية، ووجدت في النهاية طريق بيرتشفيل، وهو شارعٌ مشجر قليلًا يضم منازل متواضعة تبدو وكأنها بُنِيت جميعها في الخمسينيات. كان العنوان المنشود في بيرتشفيل

يعود إلى واحدٍ من أرقى المنازل بالشارع، مطلِيًّا حديثًا باللون الأخضر الزيتوني، حيث تَبرُز نباتات النرجس في فنائه الأمامي المُرتب. كانت هناك سيارة سوبارو أوتباك في الممر. تجاوزت المنزل بمسافة نصف بناية تقريبًا وتوقفت تحت شجرة قَيقب كبيرة عند أطراف مقبرةٍ صغيرة.

إذا كنت على وشك العثور على ما اعتقدتُ أنني سأعثر عليه داخل المنزل، فمن المنطقي عدم لفت الانتباه إلى نفسي. مددتُ يدي وفتحت حقيبتي التي كانت تستقر على مقعد سيارتي الخلفي. بداخلها قبعة بيسبول زرقاء دون شعار. على الأقل يمكنني إخفاء شعري الأحمر تحت القبعة. لم يكن هذا تنكرًا بالضبط، لكن إذا تعرف عليَّ أحدهم لاحقًا، فقد يعقد ذلك الأمور قليلًا.

غادرت السيارة وسرت في الشارع بأكبر قدرٍ ممكن من اللامبالاة، متجنبةً البرك على الرصيف. عندما وصلت إلى منزل مارثا وآلان، انعطفت نحو ممرٍّ منزلهما، ثم عبرت الفناء الصغير الذي يؤدي إلى الباب الأمامي. مَلأتني الواجهة الباهتة للمنزل الصغير الجميل برُعبٍ أكبر ممَّا كنت أشعر به. وبطريقةٍ ما علمت ما سأجده خلف جدرانه. طرقت الباب، ثم أدرت المقبض. لم يكن مقفلًا، لذا دفعت الباب وصحت: «يو هـــو»، داخل المنزل بينما كنت أدخل. أغلقتُ الباب خلفي.

كنت في غرفة معيشةٍ مُعتمة، ولا تزال الستائر مُسدلة، وكان الدَّرج على يميني. سار قطٌّ بثقل على الدَّرج، وتوقف عند أسفله وبدأ يموء.

قلت، وأنا أجثو وأمد يديَّ: «مرحبًا. أين والدتك؟».

صحتُ مرحبًا مرة أخرى داخل المنزل، ثم أصغيت السمع. وأخذ القط يشمُّ أناملي وهو يحك نفسه الآن بأحد كاحليَّ. نهضت، وقررت أن ألقي نظرة على الطابق العلوي أولًا.

في أعلى الدَّرج كان هناك ممرٌّ واسع مفروشٌ بالسجاجيد، وثلاثة أبواب تنبثق منه من جانبٍ واحد، وواحد على الجانب الآخر. بابٌ واحد فقط كان مفتوحًا، الباب الموجود على اليمين، وبالحكم على موقعه في المنزل، بدا منطقيًّا أنه باب غرفة النوم الرئيسية. تقدمت خطوة نحوه، وتمنيت فجأة لو أنني أحضرت مسدسي، أو حتى مسدسي الصاعق. لم أعتقد أن هناك أحدًا خلف الباب، على الأقل لا أحد على قيد الحياة، لكني لم أكن متأكدة. أسدلتُ كُمَّ سترتي لأغطي يدي حتى لا أترك أي بصماتٍ على المقبض، ثم دفعت الباب.

استطعت شم رائحة الدماء قبل أن يعتاد بصري على الغرفة بما يكفي لرؤيتها. كانت الستائر مفتوحة، بحيث تسلَّل الضوء من الخارج ليضيء مارثا وهي ممددة على الأرض. وقد غمرت دماؤها السجادة، مُشكِّلةً إطارًا حولها بدقة هندسية تقريبًا.

نظرتُ حولي، وأنا أتحرك بحذر. كان هناك رذاذٌ من الدماء على الأرضية الخشبية الصلبة وحتى على بعض أجزاء الجدار البيج بجانب الباب. لقد نزفت مارثا من شريانٍ رئيسي. لم يبدُ أن هناك شيئًا آخر في الغرفة في غير مكانه. لا يعني ذلك أنني كنت أعرف شكل الغرفة من قبل، لكنها كانت مُنظمة، والفراش مُرتب، ولا توجد ملابس على الأرض.

لم تكن هناك أي علامات تدلُّ على وجود عراك.

غمرتني موجة وهنٍ، فأغمضت عينيَّ للحظة. وعندما فتحتهما، لم يكن شيءٌ قد تغير في الغرفة. وكانت مارثا لا تزال جثة هامدة. وعندما استدرت للمغادرة، لاحظت وجود مطبوعة داخل إطار على الحائط المجاور للباب، وهي عبارة عن رسمٍ بالقلم الجاف والحبر يعلن عن مهرجان بيركشاير الأدبي. كان الرسم مألوفًا بالنسبة لي، ثم تذكرت أنه عملٌ فنيٌّ علَّقتْه مارثا فيما مضى في غرفة نومها في المَهجع عندما كنَّا

طلابًا معًا. وتساءلتُ إن كان قاتل مارثا قد رأى الرسم أيضًا، وما إذا كان قد تذكَّره كما تذكرته.

عندما عدتُ إلى الطابق السفلي بحثت عن القط لكني لم أره، ثم استرقتُ النظر عبر شريطِ الزجاج المَشطوف الموجود بجانب الباب الأمامي للتأكُّد من عدم وجود شهود عيان في الجوار. أسدلت أكمام سترتي على يديَّ مرة أخرى وخرجت من المنزل، سرتُ بخطواتٍ سريعة عائدة إلى الطريق نحو سيارتي.

قدتُ السيارة لبعض الوقت دون وجهةٍ مُحددة، ثم دخلت إلى موقف سيارات فارغ تابعٍ لمطعم محار لم يفتتح بعد لهذا الموسم. أطفأتُ المحرك وفكرت في مارثا، استغرقت لحظة لاستيعاب حقيقة أنها لم تعد على قيد الحياة. ارتجفت يداي، ففركتهما بساقيَّ على الرغم من عدم تعرقهما.

جلست في السيارة لمدة عشر دقائق، أُحدق من خلال الزجاج الأمامي فحسب. كان لديَّ العديد من القرارات التي يجب اتخاذها. أحد القرارات كان ما إذا كنت سأتصل بالشرطة لأبلغ عن جثةٍ في 55 شارع بيرتشفيل. سيُجنب ذلك آلان العودة إلى المنزل واكتشاف جثة زوجته، ولكن من ناحيةٍ أخرى، قد يضرُّ بالتحقيق، خاصةً إذا اتصلتُ بشكلٍ مجهول، وهو ما كنت سأفعله. كان الاحتمال الآخر هو التوجُّه ببساطة إلى الشرطة وإبلاغهم بكل ما أعرف، لكنني لم أكن ميَّالة لذلك، جزئيًّا لأن ما كنت أفكر فيه لا يزال يبدو لي سخيفًا للغاية، بحيث كان من الصعب تخيُّل أن تصدق الشرطة قصتي. قررتُ عدم الاتصال، لا باسمي ولا مجهولة. لن يفيد ذلك مارثا، ولن يساعدني في العثور على قاتلِها.

استغرق قراري التالي وقتًا أطول قليلًا لاتخاذه. فمنذ أكثر من عام، جاءني هنري كيمبل طلبًا للمساعدة عندما تورَّط مع جوان والين

جريف وريتشارد سيدون. لقد ساعدته، ولكن بعد أن كاد يَلقى حتفه. لم أكن أرغب حقًّا في توريط هنري في شيءٍ خطير -أعتقد أنه عانى بما يكفي بسببي- لكنني كنت أعلم أنه سيساعدني أيًّا كان ما سأطلبه منه، وأنه سيحافظ على سريَّة أي شيء نكتشفه معًا. كان من الصعب شرح علاقتنا، حتى لنفسي، لكنها كانت تحالفًا. ربما كان الأمر بالنسبة لهنري مرتبطًا بالحب. وربما بالنسبة لي أيضًا. لكن الأهم من ذلك هو أننا وثقنا ببعضنا بعضًا. وكان يعرف عني أشياء لا يعرفها أيُّ شخصٍ آخر في العالم.

قبل أن أغادر موقف السيارات، كنت قد اتخذتُ قراري. قدتُ السيارة لمدة ساعتين إلى أرلينجتون، وهي ضاحية بجوار كامبريدج، وأوقفت سيارتي خارج مبنى المكاتب الذي يعمل فيه هنري الآن. فكرت في أن أطرق بابه فحسب لكنني قررت الاتصال بدلًا من ذلك. أجاب على الفور: «مرحبًا».

- هل أنت في مكتبك؟
- أجل.
- أنا بالخارج هل تمانع إذا صعدت؟
- كلَّا، على الإطلاق. عندما تصلين إلى الباب، اضغطي على الزر المجاور لاسمي وسأفتح لكِ.

عندما دلفت إلى مكتبه، صادفتنا بادرة محرجة قليلًا تضمَّنت قُبلة على الخد ونصف عناق. قال، متراجعًا إلى الخلف: «كلُّ شيءٍ على ما يرام؟».

تبادلنا النظرات. لم يتغير تقريبًا منذ آخر مرة رأيته فيها، كان شعره البني أقصر، وعيناه أكثر تعبًا قليلًا، لكنه كان يرتدي زيه المعتاد وهو

عبارة عن سترة صوفية على بنطال جينز قديم. لقد أشار إلى أسلوبه ذات مرة بأنه «شاعرٌ ماجن».

قلت: «أنا بخير. لكن أعتقد أن لديَّ مهمة من أجلك، إذا كنت مهتمًا».

انتقلنا إلى جانبين منفصلين من مكتبه البيج. وكانت هناك أضواء فلورسنتيَّة مُدمجة في السقف المُعلَّق. كنت أنظر حولي، فقال هنري: «مكتبٌ جديد. لقد انفجر المكتب الأخير وأنا فيه».

- أتذكر. هذا المكتب الجديد...

- ربما يحتاج إلى بعض الطلاء الجديد.

- أجل.

قلت، غير مستعدة لبدء العمل بعد: «تسرني رؤيتك شخصيًّا».

ربما لم أرغب في قول الكلمات عن صديقتي مارثا بصوتٍ عالٍ. كنت أعلم أن الأمر لن يُحدِث أيَّ فرق، لكنني لم أكن مستعدة بعد.

- شكرًا لك على كل الرسائل. لقد أشعرتني وكأنني أعيش في وقتٍ مختلف وأفضل.

- قد نكون آخر من يكتب الرسائل على كوكب الأرض.

- قد نكون كذلك.

- كيف حال ديفيد وشارون؟

- لقد سقطتْ والدتي وكسرت وركها منذ ما يقرب من ستة أشهر -ربما كتبتُ لك هذا بالفعل- وهي الآن أفضل بكثير لكنها ربما مُدمنة على الحبوب. ديفيد كما هو تقريبًا. لقد كنت أقرأ له قصائد آن سيكستون. إنه يتحدث عنكَ.

رأيت حمرة خفيفة تعبر وجنتيه. كان معجبًا بوالدي كثيرًا، على الرغم من لقائه به في عدَّة مناسبات. قال: «ما رأيه في آن سيكستون؟».

- يقول إنها تبقيه منتبهًا، وهي أعلى إشادة يمنحها لأحدهم. و.. أوه، لقد قابلها مرةً واحدة، لكن هذا ليس مفاجئًا، لأنه قابل الجميع.

- هل قرأتِ له قصائدي الفكاهية؟

ضحكتُ وقلت له إنني لم أفعل، على الأقل ليس بعد. لقد كان هنري في يوم من الأيام شاعرًا طموحًا، لكنه الآن يكتب القصائد الفكاهية فقط. وقد تضمَّنت معظم رسائله واحدة على الأقل.

- أنا سعيدٌ لأنكم جميعًا بخير. لقد انتابني هذا الشعور الرهيب عندما رننتِ الجرس بأنكِ ستخبرينني أن أحدهم قد مات.

- لقد مات أحدهم، لا أحد تعرفه، لكن هذا هو السبب في وجودي هنا.

- حسنًا.

- كان اسمها مارثا راتليف. هل لديكَ وقتٌ لسماع القصة كاملة؟

رأيته يتردد للحظة، ثم قال: «نعم، أخبريني كل شيء. أنا متفرغٌ تمامًا».

أخبرته بكل شيء. كيف أتت مارثا إليَّ بشكوكٍ حول تورُّط زوجها المحتمل فيما يصل إلى خمس جرائم قتل عبر البلاد. وكيف حققنا معًا في تلك الوفيات، ووجدنا بعض الأدلة التي تشير إلى أن بيرالتا كان على الأرجح المسؤول، ولكن ليس هناك ما يكفي من الأدلة للتأكُّد. ثم كيف ذهبتُ إلى مؤتمر في ساراتوجا سبرينجز لأراقب آلان على الأقل، أتبعه، لأرى إذا كان بإمكاني معرفة أي شيء.

- هل اعتقدتِ أنك ستنظرين إليه وتعرفين الحقيقة؟

- قليلًا، أعلم أنني حمقاء.

- إذن ماذا اعتقدتِ؟

- دعني أخبرك قصة أخرى أولًا. عندما قابلت مارثا لأول مرة، كانت قد بدأتْ بمواعدة أحد الأساتذة المساعدين في كليتنا. كان رجلًا وسيمًا للغاية، وكان واضحًا بالنسبة لي، ولكن ليس على الفور بالنسبة لمارثا، أنه شخصٌ سيئ. لقد زجَّ بها في أنشطةٍ جنسية متنوعة لم تكن مرتاحةً لها. وقد أصبحت بالنسبة له مشروعًا، شخصًا يمكنه التلاعُب به وتغييره. كان الأمر برمته لعبة بالنسبة له. لقد كان معتلًّا اجتماعيًّا أو ربما مجرد شخصٍ سادِيٍّ. وقد ساعدتُها على الخروج من العلاقة.

- وأنتِ تخبرينني عن هذا الرجل الآن...

- لأنه كان هناك في المؤتمر في ساراتوجا. ولأنه كان يتعقب آلان أيضًا. والآن كونتُ نظرية.

- حسنًا.

- أعلم أن الأمر يبدو سخيفًا، لكنني أعتقد أنه يقتل النساء.

قال مرة أخرى: «حسنًا»، لكن هذه المرة بنبرة تشكُّكٍ في صوته.

- اصغَ إليَّ. إنه لا يختارهن. بيرالتا يذهب في رحلاتٍ ويخون مارثا. مع امرأة يلتقطها من حانةٍ ما، أو بائعة هوى، أو راقصة تعرٍّ من ملهى. يختار بيرالتا الضحايا. بينما يقتلهن الرجل الآخر.

- بسبب مارثا؟

- بسبب مارثا.

- والآن قتلها. لماذا لم يبدأ بذلك فحسب؟

- لديَّ إحساس مؤلم بأنني السبب في هذا.

- كيف يكون ذلك بسببك؟

- لم يقتصر الأمر على رؤيتي له وهو يلاحق بيرالتا، بل لاحظني أيضًا. وتبادلنا أطراف الحديث.

- يا إلهي!

- صحيح.

- كيف كان ذلك؟

- كان الأمر محرجًا. لم يعترف أيٌّ منَّا بالسبب الحقيقي لوجوده هناك، لكن كلانا كان يعلم. لقد بدا مستمتعًا، بل سعيدًا تقريبًا. بعد محادثتنا، لا بدَّ أنه توجه مباشرة إلى بورتسموث وقتل مارثا. أعتقد أنه فعل ذلك كنوعٍ من التحدي لي.

- ما الذي جعله يعتقد أنكِ لن تُسلِّميه للشرطة؟

- لا أعرف. ربما الغرور. ليس لديَّ أي دليل. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنه من المحتمل أنه لم يعد يستخدم اسمه القديم، وربما قد اختفى.

- لماذا تعتقدين ذلك؟

- لأنني كنت مستيقظة طوال الليل أحاول العثور عليه عبر الإنترنت. وجدتُ أشياء من خمسة عشر عامًا خَلتْ، ولكن لا شيء جديد. ولهذا السبب أنا هنا أتحدث معك.

- هل تريدين منِّي أن أعثر عليه؟

- أجل. أريدك أن تعثر عليه، وبعدها سأفعل كل شيء آخر.

- ما اسمه؟

***

الفصل الحادي والعشرون

بعد يومين كنت أقف خارج صالون تصفيف الشعر فيكس آند فاينس Fix and Finesse في كريسكيل، بولاية نيوجيرسي، محاوِلةً اكتشاف أفضل طريقة للتقرب من شقيقة إيثان سالتز.

بعد مغادرة مكتب هنري، قُدت عائدة إلى شيبوج وأمضيتُ بضع ساعات أستمع إلى رواياتٍ متناقضة عمَّا حدث في أثناء غيابي. ادَّعى والدي أنه لم يأكل سوى السلمون وسلطة الكيل طوال فترة غيابي، بينما قالت أمي إنها ذهبت إلى المطعم مرتين لإحضار برجر جبن لوالدي. لم تبدُ أيٌّ من الحكايتين معقولة بالنسبة لي. بعد أن أَوتْ والدتي إلى فراشها ليلًا وبعد أن غلب النعاس والدي أمام التلفاز، تحدثت مع هنري عبر الهاتف لأستمع إلى ما عَلِمه عن إيثان سالتز. كان الرجل شبحًا. لا يوجد عنوانٌ حالي. لا سجلٌّ جنائي. لا تسجيلُ سيارة. كان هناك عددٌ من المقالات لا تزال متاحة منذ أن كان إيثان سالتز صحفيًّا، معظمها مقالات طويلة مع عناوين جذابة. لقد قدَّم لمحةً عن امرأة تزوجت السائق المخمور الذي قتل زوجها الأول. وكانت هناك مقالةٌ عن مجموعة من المراهقين الوثنيِّين في تكساس صُنفت ضِمن مختارات في «أفضل المقالات الأمريكية» لذلك العام. كما أجرى مُقابلة مع طالب من هارفارد ادَّعى كسبه لأكثر من مليون دولار من إدارة عمليات المُراهنة الرياضية من غرفته في المَهجع. لكن بعد ذلك، في وقتٍ ما من عام 2005، لم يعد

هناك المزيد من المقالات. لقد توقَّف عن الكتابة، أو على الأقل عن النشر. وبدا أنه غيَّر اسمه.

كان هنري قد عثر على الصورتين نفسيهما لإيثان سالتز اللتين وجدتُهما على الإنترنت. إحداهما صورة شخصيَّة استخدمها في مقالاته -إيثان يبدو تمامًا كما أتذكره- والأخرى لقطةٌ جماعية من مجلة خريجي كلية كامدن، حيث يقف إيثان في الصفِّ الخلفي في واحدةٍ من تلك الصور الجماعية التي تجمع جميع خريجي كليةٍ واحدة لالتقاط صورة.

كانت المعلومات التي توصل إليها هنري والتي تدعو للتفاؤل أكثر من غيرها هي أسماء ومواقع شقيق إيثان وشقيقته. كان سكوت سالتز يُدرِّس الفنون الأدبية في كليَّةٍ أهلية في كيب كود، بينما تعمل فيكتوريا أندروتشي، التي لقبُها سالتز قبل الزواج، مُصففة شعر في كريسكيل، نيوجيرسي. وقد فارق الوالدان سالتز الحياة، واحدًا تلو الآخر، في غضون شهر واحد في عام 2012. وذُكر إيثان في نعيِ كلٍّ منهما، باعتباره أحد الباقيين على قيد الحياة.

لو كان لأحد أن يعلم مصير سالتز الآن، لكانوا أفراد عائلته. حصل هنري على أرقام هواتف العمل لكلٍّ من أشقائه، لكننا اتفقنا على أن فرصنا في الحصول على معلوماتٍ ستكون أفضل بكثير إذا التقيناهما وجهًا لوجه. كان هو الآن في كيب يتجه نحو شقيقه، وأنا في كريسكيل أمام صالون فيكتوريا أندروتشي.

كنت قد اتصلت بالفعل وسألت إن كانت تعمل اليوم وتأكدتُ من وجودها. لكن دخول الصالون ببساطة وسؤالها إن كان لديها وقتٌ للتحدث -أو الوقت لقص شعري- لن يجدي نفعًا. حتى إن وافقت على الحديث، قد لا تجرؤ على البَوح داخل الصالون في وجود آخرين حولها. أردتُ أن أنفرد بها، لذلك قررتُ الانتظار.

تجاوزت الساعة الثالثة بقليل، وكان الصالون مفتوحًا حتى السادسة مساءً، لكن لم يعني ذلك بالضرورة أن فيكي ستبقى حتى موعد الإغلاق. إذا لم يكن لديها مواعيد، فربما تغادر مبكرًا. وعلى بُعد متجرين من صالون «فيكس آند فاينس» كان هناك متجر مخبوزات بدا أنه مقهى أيضًا. في الخارج كانت ثمة طاولتان من الحديد الزهر، لكلٍّ منهما كرسيان، وجميعها مشغول حاليًا. لقد كان يومًا جميلًا، حيث الشمس التي لا تزال مرتفعة تغمر ذلك الجانب من الشارع بضوءِ الأصيل. عبَرتُ الشارع ودخلت إلى المخبز، ابتعت لاتيه إيرل جراي Earl Grey وكانولي طازجًا. وجلستُ داخل المحل مباشرةً عند النافذة الزجاجية التي تواجه المحل، وراقبتُ الطاولات بالخارج. راقبتُ سيدتَين تتبادلان الأحاديث، وأمامهن أطباقٌ وأكوابٌ فارغة. كانت إحداهما تضع الكثير من المكياج، وترتدي معطفًا من ماركة بربري ربما تجاوز ثمنه الألفَي دولار. وكانت الأخرى ترتدي ملابس رياضية وتتولَّى زمام الحديث، بينما حاولت سيدة البربري قمع التثاؤب وظلَّت تتفقد ساعتها خلسة. في النهاية، توقفت المتحدثة طويلًا بما يكفي لتُصرح صديقتها برغبتها في الانصراف. نهضتا ورحلتا أخيرًا. خرجتُ وجلست على طاولتهما المتسخة.

كانت بقعة مثالية. إذ استطعت رؤية النساء اللواتي يذهبن ويأتين من الصالون. كنت قد رأيت صورة لفيكتوريا على الموقع الإلكتروني، وما لم تكن قد غيرت تسريحة شعرها، فلديها شعر أشقر طويل بخصلات. وكان وجهها، المُتَغَضِّن والمدبوغ بشكلٍ مبالغ فيه، يشبه وجه إيثان بشكلٍ لا لبس فيه. عظام وجنتَين عاليتان، عينان فاتحتان، وفكٌّ مربع. اعتقدت أنني سأتمكن من التعرف عليها.

ارتشفتُ مشروبي وتناولت الكانولي ببطء. تمنيت لو أنني أحضرتُ كتابًا. لكنني فعلت ما يفعله الجميع في هذا العالم عندما يضطرُّون

إلى قتل الوقت، ونظرتُ إلى هاتفي، وأنا أبحث عن أسماء عشوائية من ماضيَّ، وأتفقد، كما أفعل أحيانًا، ما إذا كان قد كُتب أيٌّ جديد عن والدي. ظهر اسمه في مراجعات كتب أخرى، وأحيانًا حتى في الدراسات الأكاديمية، لكن من الشائع هذه الأيام رؤية اسمه تتصدره عبارة على غرار «ديفيد كينتنر، الطفل الرهيب الأقدم في الأدب». وجدتُ اليوم مقالةً جديدة، قائمة بأفضل عشرة كتب على موقع «الجارديان» (Guardian)، وصُنفت رواية والدي «اليسار على اليمين» واحدة من أفضل عشر كتب عن الأسلوب. سجلتُ الأمر في ذهني لأخبره به لاحقًا، كنت أعرف أنه على الرغم من تصنعه عدم الاهتمام، إلَّا أنه سيسعد بذلك.

وبحلول الساعة الخامسة، كانت الشمس قد غربت أسفل مبنى سيرز القديم في الشارع المُقابل، وأصبح الجو باردًا فجأة. زررتُ سترتي ومكثت حيث أنا، أراقب مدخل الصالون الأمامي بعناية. خطر ببالي أنه ربما كان هناك مدخلٌ خلفيٌّ أيضًا، لكن لم يكن هناك ما يمكنني فعله حيال ذلك إن كان هناك واحد. كان الوقت قد تجاوز السادسة بقليل عندما خرجت امرأة ذات شعر أشقر طويل إلى الرصيف، وتوقفت لتشعل سيجارة. نهضت بسرعة من مقعدي وسرت نحوها. كانت تواجه مشكلة مع قداحة السجائر، لكنها تمكنتْ أخيرًا من إشعال سيجارتها عندما اقتربتُ منها بما يكفي للتحدُّث.

قلت: «هل أنتِ فيكي؟».

تطلعت إلى الأعلى بارتياب وقالت: «ربما».

- مرحبًا، آسفة لأنني أفاجئكِ هكذا. اسمي آدي لوجان. أنا متأكدة أنكِ لم تسمعي بي من قبل، لكنني كنت أواعد شقيقك إيثان.

قالت: «أوه»، ولم أستطع أن أفهم تعبير وجهها تمامًا. وأضافت: «هنيئًا لكِ».

قلت بصوتٍ مشوب بقدرٍ من اليأس: «لقد حدث ذلك منذ أمد بعيد، عشرين عامًا تقريبًا»، واستطردت: «وأنا أرغب حقًّا في التحدث إليه. هل تساعديني في ذلك؟».

انفتح الباب خلفنا فأفسحنا الطريق لامرأة يفوح منها عبق العطر، التي قالت، وهي تعبر الطريق: «أراكِ غدًا، فيك».

قالت فيكي: «دعينا ننتقل إلى الشارع قليلًا».

تبعتُها وهي تسير، ثم توقفت تحت مظلة واجهة متجر مهجور. كانت قد أنهت نصف سيجارتها. قالت بنبرة رافضة جافة: «لم أسمع من إيثان منذ أكثر من عشرة أعوام. ليس لديَّ رقم هاتفه أو عنوانه أو أيُّ شيء. لم يحضر جنازة والدي ولا والدتي. لم يكن أمرًا مفاجئًا، وبصراحة لم يرغب أحد بوجوده هناك. على حد علمنا، قد يكون ميتًا، واغفري لي قَولي هذا، لكن ربما يكون ذلك أفضل».

قلت: «ماذا فعل؟».

- كنتِ تعرفينه، أليس كذلك؟ ما رأيكِ به؟

- لقد تواعدنا لفترةٍ قصيرة. كان لطيفًا معي.

أخذت فيكي نفسًا طويلًا للغاية من سيجارتها، حتى كاد خدها أن ينكمش، وقالت: «إذن أنتِ الوحيدة. آسفة لا أستطيع المساعدة، لكني لا أعرف مكانه ولا أريد معرفته. إنه مجرد بذرة شريرة. جعلنا جميعًا تعساء، وأظن أنه سيجعلكِ تعيسة إذا تمكنتِ من العثور عليه. يجب أن أذهب، عزيزتي. آسفة».

قلتُ، والكلمات تخرج من فمي تلقائيًّا: «لديَّ طفل، وأنا متأكدة أنه طفله».

كنت أعلم أنه إذا لم أقل شيئًا دراميًّا فسأفقدها. ومع ذلك، لم تتفاعل على الفور، باستثناء إبراز شفتها السفلى كما لو كانت تفكر فيما قلتُه للتو.

- طفلكِ بخير؟

- إنها فتاة، اسمها ليلي وهي رائعة.

قالت فيكي: «إذن لا تُعرِّفيها أبدًا على ذلك الشرير اللعين الذي هو والدها، والآن يجب أن أذهب حقًّا. أتمنى لكِ حظًّا سعيدًا».

انطلقت في الشارع، ملقية سيجارتها بعيدًا، واتجهت يسارًا بحيث توارتْ عن الأنظار. انتقلتُ بسرعة إلى سيارتي الخاصة، منزلقة في مقعد السائق وأشعلت المحرك. لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت سأبقى في مكاني أم أتبع فيكي في الشارع الجانبي، ولكن بينما كنت أفكر فيما أفعل، رصدتُ شاحنةً بيضاء صغيرة تتحرك عبر تقاطُع الطرق، وشاهدت شعر فيكي الأشقر عبر النافذة الجانبية. تبعتُها، رغبةً مني في رؤية مكان سكنها.

لم نكد نسير ميلًا حتى انحرفت بسيارتها إلى مدخل منزل صغير متواضع في شارع يضم منازل شبيهة. تجاوزتها بسيارتي، ملتقطة الرقم على صندوق البريد. رقم خمسة وثلاثين، وكان اسم الشارع أفينيو تينافلي. وجدتُ حديقةً صغيرة ذات قطعة أرض خالية وجلست في سيارتي لبعض الوقت. وضعت العنوان في هاتفي ووجدت إعلانًا على موقعٍ عقاري يقول إن كارولين سالتز باعت المنزل لفيكتوريا أندروتشي مقابل دولار واحد في عام 2012، ممَّا يعني أن هذا المنزل على الأرجح هو منزل طفولة إيثان سالتز.

كان الظلام قد حلَّ الآن، فخرجت من السيارة مرتدية السترة الصوفية ذات القلنسوة التي أحضرتها، وسرت عائدة إلى شارع تينافلي باتجاه منزل فيكي. كانت هناك سيارة ثانية الآن في الممر، وهي سيارة دودج متهالكة تحمل ملصقًا مضادًّا للصدمات كتب عليه نيويورك يانكيز. كان المنزل نفسه مضاءً جيدًا بواسطة مصباح الشارع، وكان الطابق الأول

من الطوب البرتقالي، والثاني مطليًّا باللون الأبيض، أو على الأرجح كانت ألواحًا من الفينيل. انتهى الممر في مرأبٍ يتسع لسيارة واحدة، وكانت هناك تقريبًا قدمان من الفراغ بين المرأب والسياج الشجريِّ الكثيف الذي يفصل العقار عن جاره. تحركتُ بحذر حول المرأب في الظلام، وخدشني أحد الأغصان الشائكة من الشجيرات في وجنتي، وخرجت إلى حديقةٍ مستطيلة صغيرة مُسيَّجة من ثلاثة جوانب. كان الظلام أشد كثافة في الحديقة ممَّا كان عليه أمام المنزل، لكنني واصلت الاختباء خلف كومةٍ خشبية رطبة تطل على نافذتَين كبيرتَين في الجزء الخلفي من المنزل. استطعتُ رؤية غرفة معيشةٍ صغيرة تُهَيمن عليها أريكةٌ مقطعية كبيرة، وحظيتُ برؤيةٍ جزئية لمطبخ مضاء بشكلٍ مبالغ فيه من خلال باب زجاجي منزلق. كان ذلك في المطبخ حيث استطعت رؤية مؤخرة رأس فيكي. وهي تتحدث وتلوح بيديها بعنف لامرأة شقراء أخرى تبدو في منتصف العشرينات على الأقل. ارتسم تعبير بالمرارة على وجه المرأة الأخرى، التي ربما تكون ابنة فيكي رغم مدى التقارب التي بدت عليه أعمارهن. كانت تشرب من زجاجة مياه كبيرة ذات لون أخضر مائل للصفرة. استفاضتا بالحديث ثم اختفتا من المطبخ باتجاه مقدمة المنزل. وبعد خمس دقائق، ظهرت المرأة الأصغر سنًّا مرة أخرى مرتدية سترة جينز هذه المرة، واستعادت زجاجة الماء الخاصة بها. ثم أطفأت الأضواء في المطبخ. تراجعتُ بمحاذاة جانب المرأب، ليخدش السياج نفسه وجنتي الأخرى، وألقيتُ نظرة في اللحظة المناسبة لأرى فيكي وابنتها المُحتملة تبتعدان في الشاحنة البيضاء.

عدت إلى الفناء الخلفي وذهبت على الفور إلى الباب الخلفي. لأجده مقفلًا. وجدت حاجزًا للقبو على أطراف المنزل وفتحته. أصدر صريرًا كما لو أنه لم يستخدم منذ أعوام. سرت للأسفل على الدرجات الخرسانية

المصبوبة عبر شبكة من شباك العنكبوت القديمة. كان الباب الموجود في الأسفل مفتوحًا أيضًا ودخلت إلى قبوٍ مظلم. وباستخدام مصباح هاتفي، وجدت الدَّرج المؤدي إلى الطابق الأول من المنزل.

صحتُ بتحيةٍ سريعة داخل المنزل للتأكد من عدم وجود أحد هناك. وبعد عدم تلقِّي إجابة، انتقلت إلى غرفة المعيشة. لو كان هذا هو منزل طفولة إيثان سالتز، فربما سأجد هناك شيئًا قد يكون مفيدًا. وربما ستكون هناك حتى بعض الدلائل على أن فيكي كانت على اتصال بشقيقها، على الرغم من أن ذلك كان مبالغًا فيه.

تحركت بسرعة عبر المنزل، مركزةً على أدراج المكتب والخزائن التي يمكن استخدامها للتخزين. لم أجد أيَّ شيء مثيرًا للاهتمام في الطابق الأول وشققت طريقي صاعدة الدَّرج. كان أحد المصابيح المعلقة قد تُرِك مضاء، فنظرت إلى مجموعة من الصور العائلية التي تزين الجدار بجوار الدَّرج. كانت معظم الصور لفيكي مع من تأكد لي الآن أنها ابنتها. وأظهرت إحدى الصور فيكي وهي تحمل رضيعًا، وبدت فيها أنها تبلغ من العمر ستة عشر عامًا على الأكثر. كانت هناك صورة زفاف واحدة على الحائط تبدو وكأنها تعود إلى أواخر الستينيات. إذ غلب على لوحة الألوان العامة لضيوف حفل الزفاف المجتمعين في اللقطة اللونان البني والأصفر. أحاط الزوجين، اللذَين افترضتُ أنهما والدا إيثان سالتز، أقارب أكبر سنًّا. ولم يبد أحدهم سعيدًا بشكلٍ خاص. تساءلتُ عمَّا إذا كان أحدٌ في تلك الصورة على قيد الحياة، وخطر ببالي أنني كنت قد نظرتُ إلى صورة زفاف والديَّ الخاصة، التي تعود إلى نفس العقد تقريبًا، وعلَّق والدي قائلًا إن جميع صور الزفاف ليست سوى صورٍ لأموات. -قلتُ له: «يمكنك قول ذلك عن كل صورة»- واصلتُ صعود الدَّرج، وأنا أنظر إلى

جميع الصور. وما لم أُفوِّت واحدة، لم تكن هناك صور لإيثان، سواء وهو طفل أو بالغ.

لم تكن هناك أضواء مضاءة في أيٍّ من غرف الطابق العلوي، لذلك استخدمت هاتفي مرةً أخرى. تجاوزت غرفتي النوم اللتَين يبدو أنهما تخصان الأم وابنتها ووجدت نفسي في غرفة كانت جزئيًّا عبارة عن منطقة تخزين وربما أيضًا غرفة ضيوف. غطى الجدرانَ ورقُ حائط ذو نمطٍ هندسي مُتعرج من اللون البني الفاتح والبرتقالي الداكن. وكان هناك سرير قابل للطي عند الجدار البعيد، بينما غطت الأرض صناديق قديمة كتب عليها بقلم تحديد أسود بشكلٍ مفيد. **أغراض عيد الميلاد. فيكتوريا - المدرسة الابتدائية. الضرائب 1999-2009.** وما إلى ذلك. لم يُكتب على أيٍّ من الصناديق أي شيء عن إيثان. مع ذلك، واصلت البحث في الأكوام، مرهفة السمع إلى صوت سيارةٍ تتراجع إلى الممر. إذا كانتا قد خرجتا لتناول العشاء، فسأكون على ما يرام. أما إذا كانتا تلتقطان وجبةً جاهزة، فسأكون في ورطةٍ كبيرة.

بمجرد أن أقنعت نفسي بأن فيكتوريا قد مَحت جميع تذكارات إيثان من منزلها، نقلتُ ملصقَين للسفر مُؤطَّرَين كانا يستندان إلى مكتبةٍ صغيرة ورأيت ثلاثة ألبومات سنوية لمدرسة كريسكيل الثانوية محشورة بين روايات ستيفن كينج القديمة ورواياتٍ رومانسية. انتزعتُ الكتاب السنوي لعام 2000، الأحدث بين الثلاثة، وقلَّبت صفحات صور الخريجين بسرعة حتى عثرت على إيثان سالتز، يطلُّ من الصورة أنيقًا ووسيمًا للغاية. بحثت في الصفحات ووجدتُ بعض التوقيعات هنا وهناك، بما في ذلك توقيعين تضمَّنا تلك العبارة الخالدة، «أتمنى لو أننا عرفنا بعضنا بعضًا بشكلٍ أفضل». لكن إحدى الفتيات في السنة الأخيرة، والتي تُدعى أليس جيلكريست، كانت قد كتبت فقرة طويلة

لإيثان، استهلَّتها بعبارة «**إلى السيد سالتز الموهوب...**». أردتُ قراءتها كاملة لكنني بدأت أشعر بالتوتر الشديد من احتمال ضبطي في المنزل. أعدت الملصقات مرةً أخرى على رفِّ الكتب وغادرت من الطريق الذي جئت منه، آخذةً معي الكتاب السنوي.

***

الفصل الثاني والعشرون

بعد العشاء ذهبت إلى غرفة نومي وفتحت النافذة، لا يزال الهواء دافئًا في هذا الوقت من السنة. كان بإمكاني سماع جوقة أجراس، تصدحُ بها ضفادع الربيع بالقُرب من البركة المستنقعيَّة على أطراف ممتلكاتنا، وهي علامة أكيدة على أن الشتاء قد انتهى. اتصلتُ بهنري، الذي التقط السماعة بعد رنَّة واحدة.

قلت: «هل حالفكَ الحظ؟».

- في العثور على إيثان؟ ليس بعد. لكنني حصلت على بعض المعلومات من شقيقه. وأنتِ؟

- لم أعثر عليه أيضًا. ليس لديه أيُّ اتصال مع شقيقته، كما أنها وصفته بأنه شريرٌ لعين.

- حسنًا، هذا إلى حدٍّ كبير ما اكتشفته أيضًا.

- أخبرني المزيد.

- ذهبت إلى مكتب شقيقه في الكلية وسألته مباشرةً عن إيثان. أخبرته أن أحدهم كلَّفني بتحديد مكانه، لكني لا أستطيع الكشف عن اسم العميل. لم يبدُ متفاجئًا، بالضبط، بالتأكيد لم يتفاجأ لأنني لم أتمكن من العثور عليه، لكنه بدا مضطربًا. مضطربًا عاطفيًّا. كانت ساعات عمله قد بدأت، لذلك خططنا للقاء في حانته عند الساعة الرابعة.

- ماذا تقصد بحانته؟

- الحانة التي يرتادها سكوت سالتز. إنها حانةٌ سيئة السمعة يُطلق عليها اسم بولبن Bullpen، وهي من الحانات الرخيصة. إنه مدمن كحول أو على الأقل يعمل جاهدًا ليصبح كذلك. في الواقع، لدينا الكثير من القواسم المشتركة. لا أصف نفسي بالمدمن، لكن هناك أمورٌ أخرى مشتركة.

- مثل ماذا؟

- لقد أراد أن يصبح كاتبًا، وفي وقتٍ ما كان يُدرِّس اللغة الإنجليزية للمرحلة الثانوية، لكن الأمر كان صعبًا للغاية وشعر كما لو أنه لم يكن لديه الوقت قط للقيام بعمله الخاص. لذا حصل على وظيفة في كلية أهليَّة على أمل أن يكون لديه المزيد من الوقت للكتابة هناك، ولكن...

- إنه يملأ وقته الإضافي بالشرب.

- لم يقل ذلك بالضبط، لكن هذا ما حدث. لقد كان رجلًا حزينًا.

- متى كانت آخر مرة رأى فيها إيثان؟

- قال إن ذلك كان منذ اثني عشر عامًا تقريبًا، إذ ظهر بشكلٍ عشوائي في عيد الميلاد. كان هذا في كريسكيل عندما كان والداه لا يزالان على قيد الحياة. وقال إن الشخص الوحيد الذي بدا سعيدًا برؤيته هي والدته.

- ماذا كان يفعل حينها، هل أخبرك بذلك؟

- تقصدين بالنسبة للعمل؟ لم يكن سكوت يعلم. لقد كان على علمٍ واضح بمسيرة إيثان الصحفية، وأخبرني كم جعله ذلك يشعر

بالغيرة. سكوت هو شقيق إيثان الأكبر، ولطالما تحدث عن رغبته في أن يكبر ليصبح كاتبًا.

- إذن، بدا الأمر وكأنه إهانة شخصية لسكوت عندما أصبح شقيقه كاتبًا أيضًا؟

- أعتقد أن هذا هو ما كان يقصده. أو ربما كلُّ ما يتعلق بشقيقه يثير قلقه. لقد أخبرني بشكلٍ أساسي أنه يعتبر إيثان محض شر.

- هل استخدم تلك الكلمة؟

- لقد فعل. مثل فيكي، أليس كذلك؟

- أجل. هل أخبرك لماذا يعتقد أنه شرير؟

- لقد واجه صعوبة في وصف ذلك، لكنه قال إنه حتى عندما كان إيثان طفلًا صغيرًا، كان أحيانًا يحدق إلى بقية أفراد عائلته فحسب كما لو أنهم معروضات في حديقة حيوانات. يعتقد سكوت أنه وُلِد شريرًا. لقد واصلت الضغط عليه للحصول على أمثلةٍ محددة لأشياء قام بها، لكنه قال إنه كان ببساطة يُقوِّض جميعَ مَن حوله بهدوءٍ ودهاء. كانت لديه قصة واحدة مع ذلك. في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية كانت لدى سكوت صديقة. لقد دونتُ اسمها. ها هو، سامانثا بيري. قال سكوت إنه كان مغرمًا بها، وبدا من الواضح للغاية أنه لا يزال يحبها بالفعل. خلال سنته الأخيرة، ذهب سكوت إلى كاليفورنيا خلال عطلة الربيع لزيارة أبناء عمومته. أراد إيثان الذهاب أيضًا، لكن والديه أخبراه أنها رحلة خاصة لسكوت فقط. وبينما كان سكوت بعيدًا في هذه الرحلة، بدا أن سامانثا قد ثملت للغاية في إحدى الحفلات المنزلية وانتهى بها الأمر بمضاجعة شابَّين. لقد كانت فضيحة كبيرة حينما عاد إذ تحطم قلبه وهجر سامانثا، على الرغم من ادعائها أنها لا تتذكر

الحفل حقًّا واعتقادها أنها تعرَّضت للاغتصاب. إنه يأسف لذلك الآن، لكنه كان مراهقًا في ذلك الوقت وكانت ردة فعله المتسرعة هي إلقاء اللوم على حبيبته.

إذن، ما دفع سكوت لإخباري بهذه القصة هو أنه سمع بعد عدة أشهر أن إيثان كان في الحفلة نفسها التي حدث فيها الأمر، وهو أمرٌ غريب لأن إيثان كان أصغر سنًّا ولم يكن صديقًا للطلاب الأكبر سنًّا. وبعد ذلك سمع أيضًا أن إيثان كان يتسكع مع سامانثا في أثناء وجوده في كاليفورنيا. قال إنه عندما سمع بذلك، عرف، بما لا يدع مجالًا للشك، أن إيثان رتَّب الأمر برُمته بطريقةٍ ما. لم يكن يعرف كيف فعل ذلك، لكنه كان يعلم أنه فعلها. ربما هو من خدَّرها ووضعها في تلك الغرفة. ربما أخبر الشُّبان في الحفلة أن هناك فتاةً فاقدة الوعي يمكنهم استغلالها. وقال سكوت شيئًا آخر. قال إنه عندما عاد من كاليفورنيا، توقع أن يكون إيثان ما زال غاضبًا لعدم السماح له بالذهاب، لكن سكوت يتذكر أن إيثان كان في مزاج جيدٍ جدًّا عند عودته. في ذلك الوقت، لم يفكر في الأمر كثيرًا، لكنه أدرك فيما بعد أن شقيقه كان سعيدًا بإيجاده طريقة لتدمير حياة سكوت.

- يبدو أنه دمَّر حياته بالفعل.

- قبل أن أغادر سألته إذا كان يريد أن يحاول العثور على سامانثا بيري، حبيبته القديمة. لكنه أخبرني أنها تُوفِّيت بجرعة مخدراتٍ زائدة قبل أعوام.

قلتُ وأنا أعبر الغرفة وأغلق النافذة في وجه البَرْد: «أمرٌ مُحزن».

- الشيء المفيد الوحيد الآخر الذي ربما اكتشفته هو أن إيثان درس تخصُّص الكتابة بالجامعة، أو شيءٌ من هذا القبيل، ولكنه تخصص فرعيًّا في تاريخ الفن. قال سكوت إن إيثان لطالما كان

مفتونًا بالجمال، وبالنظر إلى الأشياء. وليس مجرد النظر فحسب بل التقييم. يتذكر سكوت أن شقيقه كان يتحدث عن عالم الفن باعتباره عملية احتيالٍ مذهلة، وأن الفن لا قيمة له إلَّا بما يكون الناس على استعدادٍ لدفعه مقابله. وقال إنه لن يفاجئه إذا كان ذلك ما يفعله شقيقه الآن، شيءٌ يتعلق بالفن.

- هاه. يتوافق هذا نوعًا ما مع شيءٍ اكتشفته.

أخبرته عن يومي، وعن حديثي القصير مع فيكي، وعن اقتحامي لمنزلهم. ثم أخرجتُ الدفتر السنوي الذي سرقتُه وفتحته على الصفحة التي وجدت عليها تلك الكتابة المثيرة للاهتمام والتي كتبتْها أليس جيلكريست. قرأتها بصوتٍ عالٍ على مسامعه.

«إلى السيد سالتز الموهوب، أتطلع إلى متابعة مغامراتك على برنامج «أخطر المطلوبين في أمريكا» (America's Most Wanted) ورؤية وجهك محاطًا بدائرة في تلك الصورة الجماعية لنادي الفن على الصفحات اللامعة لإحدى مجلات الجريمة الحقيقيَّة الرخيصة. سأكون الوجه المُلطَّخ بجانبك والذي لا يتذكره أحد. لكن لا، بجديَّة، أتمنى لك حياةً مليئةً بالسرقة والتزوير الناجحين. ليتنا لم نتعرف على بعضنا بعضًا كثيرًا. مع حُبي، الراوي المجهول. XO».

- واو، هناك الكثير لنحلله هنا.

- سآخذ صورةً لها وأرسلها إليك، لكن من الواضح أننا بحاجةٍ إلى التحدث معها.

- أتعتقدين أنها إشارة إلى «السيد ريبلي الموهوب»؟[1]

- أفترض أنها كذلك. حتى لو لم يقرأ الكتاب، فثمة فيلمٍ صدر في ذلك الوقت.

- أتذكر الفيلم. وكيف وقعت بالراوي المجهول؟ هذا مثيرٌ للاهتمام. بالمناسبة، كيف تعرفين من صاحب الكتابة إذا لم يوقعها؟

- لقد رسمتْ واحدة من فقاعات القصص المصورة تلك تخرج من صورتها. سألتقطُ لها صورة وأرسلها إليك. ثم سنحتاج إلى العثور على أليس جيلكريست. دعنا نأمل أنها لا تزال على قيد الحياة.

بعد إنهاء مكالمتي مع هنري، بحثتُ عن أليس جيلكريست على جوجل ووجدتها على الفور. كانت فنانة وشمٍ تعيش في كوينز، كما أنها تبيع أعمالها الفنية على موقع إتسي. كان لديها موقعها الإلكتروني الخاص الذي أكَّد أنها تخرجت من مدرسة كريسكيل الثانوية في العام نفسه الذي تخرج فيه إيثان سالتز. أرسلتُ إليها رسالة إلكترونية أسألها فيها إذا كان بإمكاني رؤيتها في اليوم التالي، دون تحديد السبب الدقيق لرغبتي في اللقاء. عدتُ إلى الطابق السفلي وانضممت إلى والدي في غرفة المعيشة. أحضرت لنا كوبَين طويلَين من الويسكي والماء، واستقررتُ مقابل والدي على الأريكة الأقل راحة. تحرك شيءٌ ما في

(1) السيد ريبلي الموهوب هي رواية إثارة نفسية صدرت عام 1955 من تأليف باتريشيا هايسميث. قدمت هذه الرواية شخصية توم ريبلي، الذي يعود في أربع روايات لاحقة تُعرف مجتمعة باسم ريبلياد. تم تحويله عدَّة مرات إلى فيلم، بما في ذلك فيلم عام 1999 من بطولة مات ديمون، وجود لو، والذي يحمل الاسم نفسه.

الظل الذي يلقي به الرف الطويل، فجفلت. كانت القطة أبريل وهي تندفع خارج الغرفة.

قلت: «لم أكن أعلم أنها جاءت إلى هنا».

مكتبة ياسمين

- مَن؟

- القطة.

- هل كانت تلك قطة؟ كنت أراهن على راكون، وقلقتُ من أن يكون منزل مونك قد لاقى في النهاية مصير جري جاردنز[1] نفسه.

- كلَّا، إنها قطة شبه برية أسميتها أبريل. إنها تأتي وتذهب كما تشاء، لكنها تتجنب شارون في الغالب.

- فتاةٌ ذكية.

قلت: «أبي».

رد قائلًا: «ابنتي».

- إذا أرسل إليك أحدهم رسالة تبدأ بـ «السيد كينتنر الموهوب»، فبماذا ستفكر؟

- سأفكر بأنه يعتقد أنني موهوب. ثم سأواصل القراءة باهتمامٍ متزايد.

---

(1) جري جاردنز كان عقارًا تاريخيًّا في إيست هامبتون، نيويورك، وكان مملوكًا سابقًا لعائلة بوفيه الثرية، بما في ذلك خالة وأخت زوجة الرئيس الأمريكي السابق جاكلين كينيدي أوناسيس.

في السبعينيات، أصبح العقار موضع اهتمام وسائل الإعلام بعد اكتشاف أن امرأتَين مُسنتَين منعزلتَين تعيشان هناك، إديث بوفيه بيل وابنتها إيدي بيل، كانتا تعيشان في حالةٍ من القذارة والإهمال لسنوات، مع المنزل في حالة خراب مليء بالقطط والراكون وغيرها من الحيوانات.

- لكنك لن تفكر في أيٍّ إشارة معينة إذا خاطبك شخصٌ ما باسم السيد كينتنر الموهوب؟

رفع والدي شرابه إلى شفتيه، ثم أنزله دون أن يرتشف، وقال: «أوه، تقصدين بات هايسميث».

- هذا ما كنتُ أفكر به.

- لم يخطر ذلك ببالي على الفور، لكن الآن بعد أن ذكرت ذلك. لطالما أحببت كتبها، أليس كذلك؟

- بعض كتبها.

- هل لدينا أيٌّ منها هنا؟

- بالتأكيد، على الأرجح.

نهضت وذهبت إلى أحد الرفوف المدمجة المصطفة على الجدار الجنوبي للغرفة. كان لدينا أول كتابين لـ هايسميث، «صرخة البومة» (The Cry of the Owl) و «السيد ريبلي الموهوب» (The Talented Mr. Ripley)، وكليهما طبعات بريطانية. أخرجتُ كتاب «ريبلي» وألقيت نظرةً على واجهة الكتاب. دار نشر كريسيت، 1957. كان غلاف الكتاب رسمًا جميلًا جدًّا لمدينةٍ ساحلية إيطالية حيث تدور معظم أحداث القصة. أحضرت الكتاب إلى والدي.

قال: «هل هذا لي؟».

- أشكُّ في أنه يخص أمي.

بدأ أبي يتصفح الكتاب بينما واصلت التفكير في الكتابة الموجودة في الدفتر السنوي من صديقة إيثان سالتز. كما قلت لهنري، ربما كان إشارة إلى الكتاب أو الفيلم. بالتأكيد يبدو أن بقية ما كتبته أليس جيلكريست في الكتاب السنوي لإيثان سالتز يتوافق مع الإشارة، حيث

ذكرت أنها تتطلع إلى رؤيته على برنامج «أخطر المطلوبين في أمريكا»، وتتمنى له حياةً ناجحة من السرقة والتزوير. كان واضحًا أنها كوَّنت فكرة جيدة جدًّا عن نوع الشخص الذي كان عليه سالتز.

بما أن والدي يبدو الآن منغمسًا في كتابه، أخذت أقلب في مجموعة آن سيكستون التي كانت لا تزال موجودة على طاولة القهوة. وجدت قصيدة بعنوان «إنه ظُهرٌ ربيعي»، وقرأتُ سطورها الأولى: «كل الأشياء هنا بالأصفر والأخضر. أنصِت إلى حنجرتها...» وضعت إصبعي على هذا السطر وفكرتُ أكثر. رغم قدرة الناس على الكلام وإخبارك فعليًّا بما يفكرون فيه، إلا أنني ما زلتُ أجد صعوبة في فهمهم. عندما أنظر إلى حيوان، حتى لو شيء غامض مثل قطة، أشعر وكأنني أفهم الطريقة الأساسية التي يرون بها العالم، مكان يتأرجح بين الخطر والراحة، مكان الجوع. يبدو البشر، بشر العالم اليوم، غرباء بالنسبة لي. لكنني اعتقدتُ أنني أعرف إيثان سالتز قليلًا، وأنني فهمته عندما التقيت به لأول مرة. كانت تدفعه القسوة، بل وأيضًا الرغبة. وبالرغم من أنني اعتقدت أنه يبذل جهدًا كبيرًا لإخفائه، فإنه كان هناك بعض الغضب أيضًا. رأيت ذلك فيه الليلة التي انتزعت فيها مارثا راتليف من بين يديه. ولكن إذا كان إيثان يراقب بيرالتا بالفعل، ويقتل النساء اللواتي اتصل بهِنَّ، فهو صبورٌ أيضًا ومستعد للعب لعبةٍ طويلة ليأخذ بثأره. ممَّا يعني أنه كان يسيطر على عواطفه، على الأقل حتى التقينا في ساراتوجا سبرينجز. لأنَّه بمجرد حدوث ذلك، قاد سيارته مباشرةً إلى بورتسموث وقتل مارثا. هل كان الغضب هو ما دفعه لفعل ذلك؟ لا أعتقد ذلك. أعتقد أنه فقد الاهتمام بمارثا، لذا عندما رآني تخلَّى عنها، بطريقةٍ ستلفت انتباهي. لقد أراد اللعب. معي.

فكرت فيما أعرفه عن إيثان أيضًا. لم يكن مجرد القتل هو ما يريده. بل قتل شخصٍ ما والإفلات بفعلته. كان هدفه النهائي الأساسي هو خداع الناس، والشعور بالتفوُّق عليهم. وبدا من المنطقي أن تكون شخصيته البديلة، الشخص الوهمي الذي أصبح عليه، هو أيضًا شخصٌ يشعر بالتفوق على من حوله. مهما كان الاسم الذي يستخدمه، ومهما كانت الحياة التي يتظاهر بأنه يحياها، فلن تكون حياةً صغيرة. لم يكن عامل مستودع يعيش في شقة قبوٍ في بلدة صغيرة. كلَّا، ربما كان يعمل في نوعٍ من المهن الفنية. ربما هو شخص يعمل في صناعة السينما أو التلفزيون. ربما فنان، مثل أليس جيلكريست. ربما كان لا يزال يكتب، ولكن تحت اسمٍ مستعار. لكن أيًّا كان ما يفعله، فمن المهم أن يكون ناجحًا فيه.

قبل أن أذهب إلى الفراش تلك الليلة، قضيت بعض الوقت الإضافي على حاسوبي النقال، دون معرفة ما أبحث عنه حقًّا، لكنني جربت بعض عمليات البحث على أي حال. أولًا، استخدمت مُولِّد الجِناس الناقص[1] على اسم إيثان سالتز لأرى إذا كان سينتج اسمًا مستعارًا محتملًا ربما يستخدمه، لكن اتضح أن إيثان سالتز اسمٌ لا يصلح للجِناس. بعد ذلك، قمت بالعديد من عمليات البحث مثل «اسم مستعار لكاتب سيناريو هوليوودي» و«فنان مجرم» و«فضيحة عالم الفن»، وتوصلت إلى مجموعةٍ كبيرة من القصص، الحقيقيَّة وغير الحقيقيَّة، تتكشف أمامي. حولت القصص إلى صور وبحثت عن وجه إيثان، لكن لم يكن هناك شيء. لقد كان في هذه الآلة الغريبة في مكانٍ ما، هذا كل ما أعرفه، لكنني لم أعرف أين سأجده.

(1) مولد الجناس هو أداة حاسوبية تقوم بإعادة ترتيب حروف كلمة أو عبارة لإنتاج كلمات أو عبارات جديدة. بمعنى آخر، هو برنامج يأخذ مجموعة من الحروف ويعيد ترتيبها بجميع الطرق الممكنة لتكوين كلمات مختلفة.

وحالما أصبحت على وشك الاستسلام، اتصل هنري.

قال: «لقد ظهرت للتو مقالة في صحيفة «جلوب» (Globe) عن مارثا راتليف».

- عن مقتلها؟

- أجل، منذ ساعاتٍ قليلة. يبدو أن طريقة الوفاة مشابهة لجريمة قتل لم تُحل في منطقة بورتسموث منذ أكثر من عام. امرأة وحيدة، شُقَّت حنجرتها في أثناء اقتحامٍ منزليٍّ.

- هذا منطقي. لم أكن أفعل شيئًا سوى التفكير بإيثان سالتز. إنه يحب خداع الناس. أعتقد أنه بمجرد أن اكتشف رغبته في قتل مارثا راتليف، ذهب ليتحقق من وجود قضايا قريبة منها لم تُحل. فإذ به يجد واحدة وينسخُها. لقد فعل كل هذا فيما يقارب الأربع ساعات بالطبع. لكنني أعتقد أن خداع الناس -التلاعُب بشكلٍ عام- هو أكثر أهمية بالنسبة له من عمليات القتل.

قال هنري: «أستطيع أن أرى ذلك. أو ربما كان هو الشخص الذي قتل تلك المرأة الأخرى».

- كلُّ هذا ممكن، على ما أعتقد.

وبينما كنَّا نتحدث، راجعتُ رسائل البريد الإلكتروني الخاصة بي ورأيت أن أليس جيلكريست قد اتصلت بي قائلة إنها ستكون سعيدة بلقائي في اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة صباحًا.

***

الفصل الثالث والعشرون

وصلتُ إلى كوينز في الساعة العاشرة والنصف ووجدت مكانًا لركن السيارة على بُعد نصف بناية من واجهة المتجر حيث تعمل أليس جيلكريست. كان الاستوديو يُدعى فليدجلينج إنك Fledgling Ink، وقد درست موقعهم الإلكتروني قليلًا قبل مغادرة شيبوج ذلك الصباح. لم يكن لديَّ أيُّ اهتمامٍ حقيقي بالوشم، لكنني تصفحت التصاميم وقررتُ أنها تروق لي.

كنت سألتقي أليس في مقهى بجوار المحل. تبادلنا بعض الرسائل الإلكترونية، وأخبرتها أنني لست عميلة، وأنني مهتمة بمعرفة المزيد عن إيثان سالتز. وصلتني رسالة إلكترونية منها فورًا تقول فيها: «يا إلهي، هذا اسمٌ من الماضي. ماذا فعل؟».

أخبرتُها أنني أبحث فقط عن معلومات من شأنها أن تساعدني في العثور عليه. فأخبرتني أنها لا تملك أدنى فكرة، لكنها ستكون سعيدةً بلقائي.

عندما دخلتُ المقهى الصغير المُكتظ، رصدت أليس على الفور. كان شعرها مصبوغًا باللون الأبيض ومقصوصًا حتى الكتفين، وتضع حلقة في أنفها، وكانت ترتدي ملابس فضفاضة. كنت أنظر إلى أعلى رأسها لأنها كانت منحنية فوق دفتر الرسم، لكن لا بدَّ أنها شعرت بي أنظر إليها، لأنها رفعت رأسها، وكان وجهها مستويًا عريضًا، ولديها بشرةٌ

ناعمة لامعة، وعينان بنيتان فاتحتان. سألتها إذا كانت تحتاج إلى قهوة أخرى فأجابت: «كلّا، أنا بخير»، فأحضرتُ لنفسي شايًا وانضممت إليها.

قلت: «أشكركِ لمقابلتي».

- يقع محلي في الجوار مباشرة، لذلك لم أتكبد الكثير من العناء. أعرف أنني سألتكِ عبر البريد الإلكتروني، لكن ماذا فعل؟

- إيثان؟

- أجل.

ابتسمت كاشفة عن أسنانٍ مستقيمة تمامًا. كان هناك شيءٌ مزعج في مظهرها، لكنني لم أستطع تحديده.

- لا أعرف ما الذي فعله. كل ما أعرفه هو أنه من الصعب جدًّا العثور عليه.

كنت قد عرفت نفسي لأليس على أنني آدي لوجان، صحفيَّة، بعد أن أرسلت بريدي الإلكتروني من خلال حسابي البديل في جيميل Gmail، أخبرتها أيضًا أن أحد أصدقائي طلب مني أن أجد إيثان كخدمة شخصية.

قالت أليس: «لقد افترضت فقط أنه وقع في مشكلةٍ قانونيةٍ ما».

- قد يكون كذلك، على حدِّ علمي. متى كانت آخر مرة رأيتِه فيها؟

- بعد مرور خمسة أعوام تقريبًا على تخرجنا من المدرسة الثانوية، وكانت مصادفة. إذ كنَّا في المعرض ذاته في نيويورك. لا أتذكر حتى أين كان ذلك، لكنه كان هناك، وبدا تمامًا كما كان في المدرسة. قاتلٌ متسلسل أنيق.

- هل كنتما أصدقاء في المدرسة الثانوية؟

- كنَّا كذلك. نوعًا ما. لقد اعتقدتُ أنه مضحك.

- كيف تعرفتما بعضكما بعضًا؟

فكرت للحظة، وهي تحتسي رشفة من الكابتشينو الخاص بها: «كنَّا معًا في نادي الفن، لكن هذا ليس المكان الذي التقينا فيه. بل هو المكان حيث أصبحنا أصدقاء. لقد اتضح أن المعلم الذي أسس نادي الفن سيتركنا بمفردنا في الغرفة ويدعنا نفعل ما يحلو لنا. لم تكن هناك أيُّ أنشطة أو أي شيء، باستثناء المرة الوحيدة التي ذهبنا فيها جميعًا إلى نيويورك لزيارة متحف الفن الحديث. أعتقد أن هذا هو السبب في أن معظمنا اشتركوا في المقام الأول، بسبب تلك الرحلة، ولأن نادي الفن كان شيئًا يمكن وضعه في طلبات التحاقنا بالجامعة. لقد تقاربنا نوعًا ما خلال الرحلة إلى نيويورك، أعتقد. أعني، لم نتقرَّب، لكننا تحدثنا. كنَّا ننظر إلى كل هذه القطع الفنية الحديثة، وكان يتحدث عن مدى روعتها، وكيف أن عالم الفن هو أكبر عملية احتيالٍ في العالم كله، وأن حلمه هو كسب ثروة من بيع الفن المزيف. وقلت له: «أتمنى لك التوفيق في ذلك». أعني، كان مليئًا بالهراء، لكنه كان مسليًا للغاية. لقد أخبرني مرة أنه من المعتلين اجتماعيًّا».

- هل فعل ذلك؟

- أجل، لكن ليس في تلك الرحلة، أعتقد. كان ذلك عندما عرفنا بعضنا بعضًا بشكلٍ أفضل. كان هناك أسبوعان أصبحنا فيهما أفضل الأصدقاء تقريبًا، لا نفترق، ثم انتهى الأمر هكذا. أو تلاشى. أو ما شئتِ تسميته.

- من منكما أنهى الصداقة؟

- أعتقد كان هو، بصراحة. في أحد الأيام بدا أنه فقد الاهتمام بي. وأعتقد أنني تألمت، لكنها كانت المدرسة الثانوية اللعينة. لم نكن متزوجَين أو أي شيء.

- هل تتذكرين ما كتبتِ في الدفتر السنوي الخاص به؟

قالت وهي تبدو مندهشة: «أوه!».

- هذا ما جعلني أعرف أنك كنتِ صديقةً له، من خلال كتابتكِ في الدفتر السنوي الخاص به.

ارتفع حاجباها قليلًا وهي تحاول التذكر، ثم رأيت الذكريات تعبر ملامح وجهها. قالت: «إنني أتذكر نوعًا ما. لقد وقَّعتُه في المقام الأول فقط لأنها كانت مزحة. أعني أن إيثان لم يكن من النوع الذي يتجوَّل ليحصل على توقيع أصدقائه على كتابه السنوي. لم يكن لديه أصدقاء حقًّا. وحتى عندما وقَّعته، لم نكن قريبَين للغاية. أعتقد أنني صادفته بعد أن حصلنا جميعًا على كتبنا السنوية وكان يحمل كتابه وأصرَرْتُ على أن أوقعه. أعتقد أنني كتبت شيئًا عن رؤيتي له يومًا ما على شاشة التلفاز عندما يصبح هدفًا للمطاردة. شيئًا من هذا القبيل».

لم أكن قد أحضرت الدفتر السنوي معي، لكنني نسختُ صورة الكتابة، وسلمتها نسخة الآن. ضحكت وهي تقرؤها.

- كنت حمقاء متكبرة صغيرة.

- لماذا دعوته بالسيد سالتز الموهوب؟

- أوه، من فيلم مات ديمون ذاك عن الرجل الذي يقتل صديقه ويستولي على حياته. لقد شاهده كلانا –ليس معًا، أعتقد– لكن إيثان أخبرني كم أحبَّه، وكيف أنه ربما يفعل شيئًا كهذا بنفسه يومًا ما. لطالما قال أشياء من هذا القبيل. بطريقةٍ مازحة مثل: «إذا لم أدفن أحدهم حيًّا بحلول الثلاثين من عمري، فسأصاب بخيبة أملٍ شديدة». هذا النوع من الأشياء.

كانت لا تزال تنظر إلى النسخة المصورة عندما قالت: «لهذا السبب ألقيتُ تلك المزحة هنا حول صورة نادي الفن. بعد أن التقطت، قال إنه بعد خمسين عامًا ستكون الصورة في وسط كتابٍ ما عن حياته

الإجرامية المروعة، ووجهه محاط بدائرة، وسأكون مجرد طالبة مجهولة بجانبه. من الواضح أنني اعتقدت أن الأمر مضحك، لأنني تذكرت أنه قال ذلك. لكنكِ هنا الآن، ربما لأنه مختلٌّ حقيقي ولم يكن يمزح فعليًّا في ذلك الوقت.

- لا أعرف بشأن ذلك. يبدو أنه اختفى، ممَّا يجعلني أعتقد أنه ربما يعيش تحت اسمٍ مستعار. هل سبق أن تحدثتما عن ذلك من قبل؟

- تقصدين بخلاف ما قاله عن قتل صديق والاستيلاء على حياته؟

- نعم. مثلًا، هل سبق له ذكر الاسم الذي سيستخدمه كاسمٍ مستعار؟ هل سبق أن أطلق أي مزحة بخصوص ذلك؟

أدارت القلم في يدها وهي تفكر. ألقيت نظرة إلى دفتر رسوماتها الذي لا يزال مفتوحًا ورأيت أنها كانت ترسم رسومات سريعة لبومات.

- ليس حقًّا. لا شيء يتبادر إلى ذهني.

- لماذا وقعتِ كتاب التخرج باسم الراوي المجهول؟

- أجل، كنت أتساءل عن ذلك بدوري. أعتقد من قبيل التظاهر. كنت معجبة بـ «ريبيكا» عندما كنت في المدرسة الثانوية، كتاب «ريبيكا» (Rebecca)، ولم يكن للراوي اسم. لذا ربما كان هذا كل ما في الأمر. آسفة لأنني لست أكثر فائدة. لطالما كنتُ فضولية بشأن ما حدث لإيثان. لقد كانت علاقة أفلاطونية قصيرة، لكنها خلفت أثرًا.

- هل كانت أفلاطونية لسببٍ ما؟ أعني، هل تساءلتِ يومًا ما إذا كانت العلاقة ستتحول إلى رومانسية؟

حدقتْ إلى بقايا قهوتها وقالت: «أتذكر أنني فكرت أنه من الغريب عدم محاولته التقرب مني جسديًّا، فقط لأنه كان فتًى مراهقًا، لكنه

أخبرني ذات مرة أنه إذا أقام علاقة معي فسيتعين عليه قتلي. كما ذكرت آنفًا، كان هذا نوع الأشياء التي اعتاد قولها دائمًا. أيضًا لم أفكر فيه أبدًا بهذه الطريقة».

أنهيتُ شايي، وأنا أفكر في الأسئلة الأخرى التي لديَّ. على الرغم من أن أليس لا تعرف مكان إيثان، إلَّا أنها قد تساعد في التوصُّل إلى الاسم الذي قد يختاره كاسمٍ مستعار.

- قلتِ إنكما أحببتما فيلم «السيد ريبلي الموهوب». هل كان لديه أفلام أو كتبٌ مُفضلة أخرى تتذكرينها؟

- من الغريب أنني أتذكر نوعًا ما أنه كان يتمتع بذوقٍ بسيط. إذ كان فيلمه المفضل هو «يوم عطلة فيريس بيلر» (Ferris Bueller's Day Off).

- ماذا عن الكتب؟

فكرت أليس. ثم قالت: «آسفة، لا أستطيع أن أتذكر أننا تحدثنا عن الكتب على الإطلاق».

- مشاهير أحبَّهم؟ شخصيات تاريخية؟ إذا كان قد غير اسمه، فربما غيره إلى شيءٍ له معنى بالنسبة له.

هزت أليس رأسها وقالت: «آسفة، كل ما أتذكره أنه أحبَّ فيلم فيريس بيلر وأنه أحبَّ الحديث عن نفسه».

نهضتُ، وأنا أشكرها وارتديت معطفي، ثم أدركتُ ما كان غريبًا في مظهرها.

قلت: «مهلًا. ليس لديكِ أيُّ وشوم».

ابتسمت إليَّ وقالت: «من حيث تسعكِ الرؤية».

- صحيح. من حيث تسعني الرؤية.

- في الواقع، أنتِ محقَّة. لا يوجد لديَّ أيٌّ منها على الإطلاق.
- هذا غريبٌ، على الأرجح، بالنسبة لفنانة وشم. ألا تعتقدين ذلك؟
- ربما، من الواضح أنني لستُ ضدَّ الوشوم، أظنُّ أنني أعاني مشكلات الالتزام فحسب.

***

عندما عدت إلى شيبوج، فتحتُ حاسوبي وبحثت عن فيلم عطلة فيريس بيلر، وهو فيلم لم أشاهده من قبل على الرغم من معرفتي ببعض التفاصيل عنه. استطعت تخيُّل بعض المشاهد، فيريس في موكب في مدينةٍ ما، ومعلم يردد أسماء طلابه برتابة. حتى بمعرفة هذا القدر فقط، بدا لي أنه اختيارٌ غريب ليكون فيلم إيثان سالتز المفضل على مرِّ العصور. بدا فيلم «الرجل الموهوب ريبلي» أكثر منطقية، لكنني بقيت على صفحة فيريس بيلر. لأنه لم يكن لديَّ شيء أفضل لأفعله، فتحت دفتر ملاحظاتي ودونت أسماء جميع الشخصيات من فيلم فيريس بيلر، ثم بحثت بشكلٍ منهجيٍّ عن جميع الأسماء، مضيفًا كلمات مثل «فنان» أو «مزور» أو «محتال». كان احتمالًا بعيدًا في أفضل الأحوال، ولكن هناك شيء واحد تعلَّمته بشكلٍ قاطع عن إيثان من محادثة هنري مع شقيقه وهو أنه كان مفتونًا بالفن، وخاصةً تجارة الفن. لم يكن من الصعب تخيُّل أن تلك الاهتمامات قد استمرت حتى مرحلة البلوغ.

لم يبرز شيء فعليٌّ أمامي عبر الإنترنت. لم تكن هناك أيُّ معارض لـسلون بيترسون متورطة في فضائح تزوير، ولا أي شخصيات سَيِّئة السُّمْعَة في عالم الفن تدعى كاميرون بيلر. عدتُ إلى صفحة IMDb وقرأت الحقائق الممتعة المرتبطة بالفيلم. كانت إحدى تلك الحقائق هي أن شخصية تشارلي شين -والذي يبدو أنه مدمن مخدرات في مركز الشرطة ويغازل جيني أخت فيريس- قد مُنِح اسمًا في سيناريو

التصوير، على الرغم من أنه لم يُذكر في الفيلم. وكان هذا الاسم هو جارث فولبيك.

أدخلت «جارث فولبيك» و «فنان» في محرك البحث وكان أول عنصر ظهر هو قائمة من معرض تشارنوك في فيلادلفيا. وفنان يدعى جارث فولبيك يعرض لوحتَين تجريديَّتَين للبيع. شعرت بشيءٍ في صدري عندما نقرت على الرابط. إذ قادني ذلك إلى موقع معرض تشارنوك، وهو موقع بسيطٌ جدًّا، ولكن بطريقة جعلتني أعتقد أن المعرض لم يكن بحاجة إلى موقع إلكتروني عوضًا عن كونه معرضًا لا يمكنه تحمل تكاليف موقع جيد. فبالإضافة إلى بعض الصفحات التي تعرض القطع الفنية المتاحة، كانت هناك فقط الصفحة الرئيسية التي تقدم اسم المعرض وعنوانه. لم تكن هناك ساعات عمل، إذ إن مشاهدة المعروضات متاحة فقط عن طريق موعدٍ مُسبق. ولم تكن هناك صورة لصاحبِ المعرض، روبرت تشارنوك.

بحثت تحت هذا الاسم ولم أجد أي صور تظهر في أجزاء أخرى من الموقع باستثناء صورةٍ جماعية واحدة من حفل لجمع التبرعات فيلادلفيا. كان الرجل الذي أشير إليه بصفته روبرت تشارنوك ينظر بعيدًا عن الكاميرا. كان لديه شعرٌ داكن قصير ومنكبَين عريضَين. لم أكن متأكدة، ولكن من المحتمل أن يكون إيثان سالتز.

بحثت عن الفنان المدعو جارث فولبيك، ولم أجد إلا القليل جدًّا من المعلومات عنه، وكانت معظم الإشارات إليه مرتبطة بمعرض تشارنوك. بدا الأمر برمته مريبًا، في الواقع، لم يبدُ كذلك، شعرت وكأنني ربما عثرت على إيثان سالتز. اتصلتُ بهنري فأجاب على الفور. أخبرته بما اكتشفته، فقال إنه سيبدأ التحقيق فورًا. استطعت أن أدرك من صوته أنه متحمس لهذا الاحتمال بقدري.

كان الوقت بعد الظهر، والطقس لا يزال جيدًا، فقررت الخروج في نزهة التفكير. عندما كنت طفلة صغيرة اعتدتُ أن أطلق عليهم نزهات أحلام اليقظة، مدركة أنه إذا ذهبتُ إلى الغابة وبدأت بالتجول، فسرعان ما سيشرد ذهني أيضًا، وسأدخل في خيالاتٍ نهارية غريبة، عادةً ما يكون سيناريو حيث أستطيع التحدُّث إلى الحيوانات ويخبروني بأسرارهم جميعًا. لقد تخليتُ عن هذا الحلم الطفولي بالذات، لكني كنت أعلم أنني أفكر بأفضل شكلٍ في أثناء النزهات، لذا وجدت والدتي وأخبرتُها أنني سأسير إلى المدينة، وسألتها عمَّا إذا كانت تحتاج إلى أيِّ شيء. وأخبرتني إننا بحاجة إلى مزيدٍ من الجرانولا التي يبيعونها في متجر كاروت سيد Carrot Seed.

يمكن الوصول إلى مركز شيبوج من منزل مونك إما عبر الغابة أو عبر طريق وودبري. كان المسار عبر غابة بريجهام أسرع، لكنني قررتُ أن أسلك الطريق، وأجعل نفسي أكثر وضوحًا وليس العكس. تفتحتْ أزهار النرجس والتوليب في الحدائق الأمامية للمنازل على طريق وودبري، بالإضافة إلى رقعة عشوائية من الزعفران البري. وبدأتْ بعض الأشجار تتزيَّن بأوراقها ذات اللون الأخضر الناعم الذي لا يظهر إلا في فصل الربيع.

حالما وصلت البلدة، ذهبتُ مباشرة إلى متجر كاروت سيد، وهو متجر البقالة العضوي المحلي، لأبتاع الجرانولا، وأخذت أيضًا شايًا ساخنًا لم أكن بحاجة إليه حقًّا. جلست على المقعد خارج المتجر، وهناك أدركتُ أنني لم أُحضر هاتفي النقال معي. نادرًا ما أفعل ذلك عندما أكون خارجًا أمشي، لكن هذه المرة كان ذلك يعني أنه إذا أراد هنري الاتصال بي، فلن يتمكن من الوصول إليَّ على الفور. جعلني مجرد التفكير في ذلك أشعر بغرابة، وكأنني أصبحتُ على نحوٍ غير

مريح جزءًا من العالم الحديث. ارتشفت الشاي، وحيدة مع أفكاري، لكن ليس لفترة طويلة. بما أنني نشأت في شيبوج، فإن قدومي إلى مركز البلدة يعني أنني سألتقي بشخصٍ أعرفه وسيتعين عليَّ التحدث إليه، وقد عانيتُ من الأمرَين في تلك الظهيرة. الأول مع معلمتي القديمة للرياضيات، السيدة كوريجان، التي أخبرتني، للمرة الثانية، كيف أن مدارس شيبوج الإقليمية ربما ستضطر إلى الاندماج مع نظام مدارس واشنطن، قالت: «لم يعد أحد ينجب أطفالًا»، واعتقدتُ أني رأيت عينيها مُسبَّلتَين في حزنٍ تجاه رحمي الفارغ. كما تحدثت أيضًا لفترةٍ وجيزة مع إحدى صديقات والدتي، جيني آدمز، التي كانت قد ابتاعت للتو كتابًا جديدًا للويز بيني من متجر ستونز ثرو. على مدار العام الماضي، بدأت جيني تنحني، بحيث تقوَّس جسدها للداخل كروبيان مطهوٍّ أكثر من اللازم. توقفت عند مقعدي، وتحدثنا، ورأسها مائلٌ نحوي بطريقة ذكَّرتني بالسُّلحفاة، وبينما كانت جيني تتحدث، بصوتٍ متهدِّج جراء التقدم في العمر، راودتني ذكرى طفولة نابضة بالحياة لرؤيتها تخرج عارية من حوض السِّباحة في إحدى الحفلات العديدة التي كانت تقام في منزل مونك، وكان والدي هناك ليستقبلها بمنشفةٍ ومشروب.

بعد أن أنهيتُ شايي، بدأت السير عائدةً إلى المنزل، مغادرةً البلدة عبر شارع ريفر، مرورًا بالمناطق العامة. كنت أدرك أن نزهتي التفكيرية لم يتمخَّض عنها أيُّ تفكيرٍ جدِّي، لكن ما تمخَّض عنها كان شيئًا آخر. شعور شائك بالقلق. لم أكن أصدق أن الناس يعرفون متى يُراقبون بقدر ما كنت أصدق لعنات الحب، لكن هذا ما كنت أشعر به في تلك اللحظة، قلقًا ملموسًا، ويقينًا بأنَّ هناك عيونًا تراقبني. عندما وصلت إلى طريق وودبري، كانت الغيوم قد غطَّت السماء وأصبح الجو باردًا فجأة. سارعت في المشي، وبقيتُ على اليسار كما تعلمت. مرَّت بي سيارتان

في الاتجاه المعاكس، ثم ساد الطريق الهدوء لبعض الوقت. سمعت سيارة تقترب من الخلف فالتصقت بالحافة الضيقة التي تفصل الطريق عن جدارٍ حجريٍّ قديم وعن الغابة الكثيفة. لا بدَّ أني سمعت شيئًا ما في محرك السيارة، لأنني علمت أنها كانت تبطئ، واستدرتُ في اللحظة نفسها التي اقتربت فيها سيارة سيدان بيضاء لامعة بشكلٍ خطير مني، وأنزل السائق نافذته.

وبسرعةٍ مذهلة، فتح إيثان سالتز الباب وانطلق خارجًا، وهو يحمل مسدسًا قُرب خصره. اجتاحني شعورٌ ما، موجةٌ من عدم التصديق بأن كل شيء على وشك الانتهاء، لكن عندئذ قال إيثان: «يمكنني أن أطلق عليكِ النار الآن أو يمكنكِ الدخول إلى صندوق السيارة. لديكِ خمس ثوانٍ لاتخاذ القرار».

- صندوق السيارة.

أمسك كتفي بيده اليسرى ودفعني إلى مؤخرة السيارة. كان صندوق السيارة مفتوحًا قليلًا بالفعل، فاستخدم قدمه ليفتحه بالكامل. شعرت بغباءٍ شديد من كونه أمسك بي بهذه الطريقة، لكن الأمر بدا حتميًّا أيضًا. ربما أردتُ حدوث ذلك.

***

الفصل الثالث

حتى الأشجار تعرفُ ذلك

الفصل الرابع والعشرون

استغرقه الأمر بضعة أيام للعثور على ليلي كينتنر. كانت قد عادت لتقطن مرةً أخرى في منزل والديها في شيبوج، كونيتيكت. كانت والدتها، شارون هندرسون، نحَّاتة، لكنها ليست جيدة جدًّا، كما اعتقد إيثان، أما والدها ديفيد كينتنر، الروائي الإنجليزي، الذي كان، بشكلٍ مفاجئ، لا يزال على قيد الحياة.

ما جعله يستغرق الكثير من الوقت للعثور عليها هو أن ليلي تمتلك منزلًا في وينسلو، ماساتشوستس، موطن كلية وينسلو، آخر مكان يبدو أنها عملت فيه. لقد سافر إلى هناك أولًا، مضيعًا يومًا في مراقبة الكوخ الصغير المكسوِّ بالقوباء بالقرب من بركة، ليكتشف فقط أنه قد أُجِّر على ما يبدو إلى زوجين مسنين يمتلكان كلبَين من نوع ويبت. كان إيثان على درايةٍ تامة بخطورة القيام بمثل هذا الأمر، لكنه دخل إلى متجر CVS الواقع في مركز بلدة وينسلو، وابتاع إحدى مجلات المشاهير، بالإضافة إلى ظرفٍ مبطن، وعاد إلى الكوخ متظاهرًا بأنه عامل توصيل يحمل طردًا إلى ليلي كينتنر. عرض الزوجان المُسنان ببساطة المعلومات التي تفيد بأن ليلي كينتنر قد عادت إلى كونيتيكت لتعتني بوالدَيها، بينما راح أحد الكلبَين الويبت يتشمم بنطال إيثان بضراوة.

غادر وينسلو وشقَّ طريقه إلى شيبوج، مبتهجًا بهذه المطاردة الجديدة. كان يعلم أن الأمر خطير -كان كل شيءٍ خطيرًا منذ اللحظة التي غرز فيها سكينًا في حنجرة مارثا راتليف- لكنه علم أيضًا أنه بحاجة إلى الوصول إلى ليلي قبل أن تصل إليه. ستكون قد علمت الآن أن مارثا قد ماتت، وبالتأكيد ستعرف من فعلها. هل ستركضُ مباشرةً إلى الشرطة باسم إيثان سالتز؟ كان الشخص الطبيعي ليفعل ذلك. لكنه لم يعتقد بطريقةٍ ما أن ليلي طبيعية تمامًا. ظن أنها قد تحاول العثور عليه بنفسها. ورغم أنه شكَّ في قدرتها على فعل ذلك -فقد اختفى إيثان سالتز تمامًا عن وجه الأرض- فإنه لم يكن متأكدًا تمامًا.

عندما وصل إلى مُقاطعة ليتشفيلد، توقف أولًا في بلدة تدعى واشنطن، ووقف بسيارته في وسط المدينة ليحصل على فنجان قهوةٍ ويتصل بزوجته.

أجابت، كما تفعل دائمًا، كما لو أنه قد قاطعها في أثناء قراءتها لكتابٍ جيد.

قال إيثان: «عزيزتي».

- أوه، هذه علامةٌ سيئة. هل هذا بخصوص حفلة العشاء؟

- إنني أمنحك فقط تنبيهًا محتملًا بأنني قد لا أتمكن من ذلك. لقد وجدتُ هذا الأبله القديم في مين الذي يدَّعي أنه يمتلك رسمًا أصليًا لـ«ويث» لكنه يستمر في تأجيل عرضه لي. إذا كان الأمر حقيقيًا، فأنا أفكر في قتله بسبب هذا. كيف تشعرين حيال ذلك؟

صمتت ريبيكا للحظة، لكنه شعر بأنها تبتسم. كان من الواضح أنه تزوجها من أجل مالها ومن أجل المنزل في فيلادلفيا، لكن لم يكن يضير أن تستمتع بمزحاته السوداوية من حينٍ لآخر. وأخيرًا قالت، «كنتُ أرتعد خوفًا من هذه الحفلة بالفعل، وكان الأمر الوحيد الذي يبعث

الأمل في نفسي هو أن نستطيع أنت وأنا السخرية من فظاعتها! خلال جلسة تحليلنا اللّاحقة. كم من الوقت ستستغرق لقتل هذا الرجل وسرِقَة لوحته؟».

- أخطط الآن للعودة وحضور الحفلة، لكن أردتُ أن أحذرك مسبقًا أن هناك احتمالًا ضئيلًا جدًّا لأن أضطر إلى الإلغاء. سأبذل قصارى جهدي حقًّا، لكنها لوحة لويس ويث.

- كلَّا، أفهمك تمامًا.

- ماذا تفعلين الآن؟

- في الواقع، أفرز الأحذية، وأنتظر مكالمة من ستيفاني بخصوص المنزل الواقع في جريت بارينجتون. أين أنت الآن؟

- أنا أحدِّق إلى ساحل ولاية مين وأفكر كم ستكرهين المكان هنا.

بعد إنهاء المكالمة، تنزه إيثان. كان يتجول في موقف سياراتٍ صغير خلف صيدلية البلدة، ثم اختار سيارة، لم تكن في موقف السيارات بل كانت متوقفة خلف مبنى سكني مُتاخِم لموقف السيارات. كانت سيارة لينكولن قديمة الطراز، مركونة في مكانٍ ضيق. كانت السيارة بيضاء، لكن غطى سطحها الخارجي طبقة رقيقة من الأوساخ والغبار، بدا وكأنها لم تُستخدم منذ سنوات. انحنى بين مؤخرة السيارة وبناية الشقق الطوبية، وأخرج مفك براغي من حقيبته الجلدية، ثم نزع لوحة الترخيص. لم يكن يعرف كم من الوقت سيبقى في شيبوج ولن يضره الحصول على لوحات كونيتيكت.

لم يستغرق وقتًا طويلًا للعثور على منزل كينتنر. كان المنزل بعيدًا عن الطريق، وكان عبارة عن مزرعة قديمة ملحق بها عدة مبانٍ خارجية، ولم يبطئ إيثان حتى في أثناء مروره. وبدلًا من ذلك، أوقف سيارته في مركز بلدة شيبوج الصغيرة وفكر في الخيارات المتاحة أمامه. كانت

خطته الآن تقتضي اختطاف ليلي إذا أُتيحت له الفرصة. لو استطاع أن يُطلق عليها سهم تخدير، ثم يُلقي بها في صندوق سيارته، لاصطحبها إلى منزله في توهيكون، حيث ثمة غرفة في انتظاره. لم يكن الأمر مستحيلًا، لكن فرص حدوث خطأ ما كانت مرتفعة. بَيد أنه، لو استطاع أن ينجح، فذلك يعني أنه سيتحدث معها، ويمحو كل تلك العجرفة عن وجهها، ويدعها تعرف بأنها قد خسرت. مجرد التفكير في الاحتمال جعل جسده يكاد يشتعل من الرغبة. سيكون من اللطيف التحدث مع شخصٍ ما عن إنجازاته، حتى مع شخص سيرحل عن العالم قريبًا. كان يعلم أنه نوعٌ من الغرور، ولو كان هناك من يستحق أن يغترَّ، لكان هو.

مرَّت مراهقتان بجوار سيارته تثرثران مع بعضهما بعضًا دون أن ترياه جالسًا هناك، لكنه قرَّر أنه إذا كان سيبقى في مركز شيبوج، فلا ينبغي أن يجلس في سيارته فحسب ويجذب الانتباه. جذب قبعة البيسبول القاسية التي كان يرتديها أكثر على رأسه، وخرج، ليبحث حوله عن متجر يتصفَّح فيه دون هدفٍ محدد. كان هناك متجر للكتب يُدعى «ستونز ثرو»، لكن الناس يلاحظون المتصفحين دون هدفٍ في متاجر الكتب. وعلى الأرجح كان يعجُّ بنساء شيبوج الوحيدات اللاتي يأملن العثور على رجلٍ يتصفح أحدث كتب لمارجريت أتوود حتى يتمكنَ من بدء محادثة. إن أفضل المتاجر للتصفُّح فيها دون هدف إذا كنت لا تريد أن يلاحظك أحد هي الصيدليات. كان كل من يتسوق في الصيدلية مغمورًا في فقاعته الصغيرة من القلق الفرديِّ، متمنيًا فقط الخروج من هناك بأسرع وقت ممكن. فلا أحد يريد أن يصادِف جاره وهو يحمل أنبوبة كريم البواسير.

سار مسافة بنايتَين عندما رصد امرأةً ذات شعر أحمر تدخل ما بدا أنه متجر بقالة صغير. لم يرها سوى لثانيةٍ واحدة، لكن شيئًا ما بدأ يضطرب في صدره. كان لون شعرها لا لبس فيه.

عاد إلى سيارته، واستدار للخلف وأوقفها في الجهة المقابلة لمتجر كاروت سيد. إذا كانت تتسوق، فعلى الأرجح لن تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة، وربما ستخرج وتعود إلى سيارتها على الفور. كان سيلحق بها، إذا استطاع، ويتجاوزها، ليُجبرها على الوقوف على جانب الطريق. وعلى المقعد المجاور له، يرقد مسدسه المهدئ وصاعق مغطَّيَين بــقميصٍ مَطويٍّ. وأخذ يراجع في عقله النتائج الجيدة والسيئة. قد تكتشفه على الفور عندما تخرج من محل البقالة. بَيد أنها لن تكون قادرة حقًّا على فعل أيِّ شيءٍ حيال ذلك، لكن ذلك سيضعها على أهبة الاستعداد. وإذا لم تكتشفه وتمكَّن من إبعادها عن الطريق، فقد تمرُّ سيارة أخرى جوارها. لو حدث ذلك، لسلَّط بندقيته على وجه السائق ليرى إلى متى سيصمد. لكن ماذا لو كانت ليلي تحمل سلاحها الخاص، مسدسٌ حقيقيٌّ؟ حسنًا، لقد كان يملك واحدًا من هؤلاء أيضًا، في دُرج سيارته، وإذا عجز عن اختطاف ليلي فسيقتلها ويترك جثتها على جانب الطريق. ثم سيغادر كونيتيكت ويتخلص من السيارة. لن يكون هناك سوى أسبابٍ ضئيلة للغاية لربط إيثان سالتز بليلي كينتنر، ولكن لن يكون هناك سببٌ على الإطلاق لربط روبرت تشارنوك بليلي، أو حتى بمارثا أو بكليَّة بيركبيك.

وبينما راح يراجع الإيجابيات والسلبيات، إذ بليلي -كانت بالفعل هي- تخرج من المتجر. وبدلًا من أن تتجه إلى سيارتها، جلست على مقعد على الرصيف. لم يكن معها كيس بقالة، بل مجرد قهوة سريعة نَزعت غطاءها. انخفض إيثان في مقعده، وأمال رأسه حتى يتمكن من الاستمرار في مراقبتها. كانت ترتدي بنطالًا أخضر ومعطفًا واقيًا من المطر. وقد جلستْ هناك لفترة من الوقت، وجاء شخصان على الأقل وتحدثا معها. خطر بباله أنه ربما يكون أذكى ما يمكن فعله هو مغادرة مركز شيبوج والانتظار

عند المدخل المؤدي إلى ممرِّها، بحيث يسده. لكنه أراد أن يراقبها لفترةٍ أطول. لقد حالفه الحظ على نحوٍ هائل في أن يرصدها بعيدًا عن منزلها، وربما سيكون هناك المزيد من الحظِّ في طريقه.

مرت عشرون دقيقة. لم يُلقِ المارة نظرة ثانية على إيثان، لكن إحدى المسنات أخذت تحدِّق إليه قليلًا بينما تجرُّ قدمها في الشارع مستعينةً بعصا. حدق إليها بدوره، حتى أشاحت بنظرها بعيدًا. استحضر عقله، كما فعل دائمًا، صورة مفاجئة. في هذه الصورة ينتزع العصا من يدَي المرأة الملتويتَين ويدفع طرفها المطاطي إلى أسفل حنجرتها، ويثبتها على الأرض حتى تختنق. انتشرت الصورة في داخله مثل جرعة من الويسكي، فاستعاد هدوءه مجددًا، وهو يفكر في ليلي وكم من الوقت ستجلس على هذا المقعد اللعين.

عندما نهضت في النهاية، ظن أنها قد تنعطف إلى يمينها -حيث توجد معظم أماكن وقوف السيارات في البلدة- ولكنها بدلًا من ذلك بدأت في السير بعيدًا عن البلدة، وقطعت شارعًا جانبيًّا. فقد إيثان أثرها. فخرج من السيارة وعبر شارع مين، ثم انعطف إلى الشارع الجانبي الذي سلكته ليلي. كانت في المقدمة تسير بهِمَّة. كان شارعًا قصيرًا، واستطاع إيثان أن يرى أنه ينتهي بالطريق الذي سلكه للوصول إلى مركز البلدة بعد المرور بمنزل كينتنر. لقد كانت تسير إلى المنزل.

مشى بسرعة عائدًا إلى سيارته الكيا، متعجبًا مجددًا من حظه. وتمنَّى جزءٌ منه لو يدهسها بسيارته في الشارع فحسب، ويحولها إلى ضحيةٍ لحادث سير عابر. لكن لا، لقد أراد قضاء بعض الوقت معها في توهيكون قبل أن يقتلها. لقد شعر أنه يستحق ذلك، مثل شراء لوحةٍ لا يستطيع تحمل تكلفتها كمكافأةٍ خاصة.

***

الفصل الخامس والعشرون

راودتني ذِكرى خافتة لمسيرةٍ ليليَّة باردة ضبابية، إذ كانت ساقاي كالهُلام، وثمة ذراع قويَّة تحيط بخصري. ثم كان هناك منزلٌ تفوح منه رائحة فاسدة متعفنة، ودَرجٌ يفضي إلى أسفل، وبعدها وجدت نفسي على نوعٍ من الأسرَّة النقَّالة، وغرق كل شيء في الظلام مجددًا.

عندما استيقظتُ وفتحت عينيَّ وجدت نفسي مضطجعة على جانبي، أحدق إلى حائط مطلي باللون البني. كان جسدي يؤلمني، وشعرت وكأنَّ فمي مغطى بطبقةٍ من الغراء. لم أكن أعرف أين أنا، ولكنني تذكرت من أخذني إلى هناك. وقد تفاجأتُ بأنني على قيد الحياة.

جعل تحريك رأسي معدتي تتأرجح وارتفعت عصارتها إلى مؤخرة حلقي. بقيت ساكنة لفترةٍ أطول قليلًا، حتى زال هذا الشعور. رمشتُ بسرعة لأن عينيَّ كانتا جافتين، ثم حاولت القيام بحركاتٍ خفيفة بأطرافي، لتقييم حالتي. كنت لا أزال أرتدي الثياب نفسها التي ارتديتُها في أثناء نزهتي: بنطالي الأخضر المصنوع من القطيفة المُضلعة وسترتي الأيرلندية البيضاء، بالإضافة إلى معطفي الواقي من الريح، وقد انزلق سحَّابه حتى حنجرتي تقريبًا. استطعتُ أن أشعر بأسنانه المعدنية تحكُّ عنقي. حركت أصابع قدميَّ وقدميَّ، فتأكدت من أنني لا زلتُ أرتدي حذائي. لكن كان هناك إحساس آخر، شيء باردٌ حادٌّ يحيط بكاحلي الأيمن، ممَّا يعني أنني على الأرجح مقيدة إلى السرير أو إلى

الحائط. أخذت شهيقًا وزفيرًا عميقَين، ثم أدرت رأسي أكثر قليلًا. كان الشعور بالغثيان قد زال تقريبًا، وأدركتُ الآن مدى الألم الذي أشعر به في رأسي وعنقي. مددتُ جسدي، مستمعةً إلى طقطقةِ ظهري، ثم انقلبتُ على ظهري، والأصفاد حول كاحليَّ تمزق جلدي.

- أنتِ مستيقظة.

جاء الصوت من على بُعد أقدام قليلةٍ، فجفلت، إذ كنت أظن نفسي وحيدة في هذه الغرفة المجهولة. أدرت رأسي لألقي نظرة على إيثان، جالسًا على كرسيٍّ خشبيٍّ على بُعد خمسة أقدام تقريبًا. دارت الغرفة أكثر، فأغمضتُ عينيَّ بإحكام.

قال إيثان: «هناك دلوٌ أسفلك مباشرةً إذا كنتِ بحاجة إلى التقيؤ، أو ما عليكِ سوى المضي قدمًا والتقيؤ على نفسكِ. لا يعنيني الأمر».

فتحت عينيَّ وبقيت الغرفة ساكنة. كان إيثان يجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ويرتدي بنطال جينز داكنًا وسترةً سوداء ذات قلنسوة. وكان يحمل في يده اليمنى كوبًا من القهوة السريعة يرتكز على ركبته. بينما يستقر كوبٌ آخر من القهوة أسفل قدميه.

- كيف تشعرين؟

قالها كما لو كنَّا أصدقاء قدامى، أو كنت قد أفرطت في الشرب في منزله الليلة السابقة وانهرتُ في غرفة الضيوف.

- بالغثيان.

- أجل، حسنًا، لقد أطلقت عليكِ سهمًا مخدرًا. أتتذكرين ذلك؟

- أجل.

- يدهشني أنها لم تقتلك، أعني تلك الجرعة. ولكن يسعدني أنكِ لا زلتِ معنا. تسرني رؤيتك مجددًا يا ليلي.

أغمضت عينيَّ، متسائلةً إن كان عليَّ أن أبقيها هكذا فحسب. لم أشعر بالاستعداد بشكلٍ خاص لمحادثة وديَّة مع إيثان. لكن شيئًا ما أخبرني أنها فرصة، فقلت: «هل تلك القهوة لي؟»، ثم فتحت عينيَّ مجددًا.

نظر إلى القهوة على الأرض قائلًا: «هذه؟ نعم، إذا كنتِ مستعدة لذلك».

- هل لديك أقراص أدفيل أيضًا؟

- أخشى أنه ليس لديَّ. بناءً على المدة التي سأبقيكِ فيها هنا، ربما يمكنني الحصول على بعضٍ منها في المرة القادمة التي أغادر فيها.

- سيكون هذا رائعًا.

- هل أنتِ مستعدة لتناول القهوة الآن؟

انحنى وأحاط الكوب بيده. كان واحدًا من تلك الأكواب الموحدة التي توزعها المقاهي اليونانية المُزينة بكلمات «تسعدنا خدمتك».

قلت: «دعني أرى»، وأدليتُ ساقيَّ عن طرف السرير، جلست منتصبة، ودارت الغرفة. رصدتُ الدلو على الأرض فالتقطته. محاولة التقيؤ قليلًا، لكن لم يخرج شيء. ومع ذلك، تمسكتُ به وأمعنت النظر في الغرفة التي كنَّا فيها. كان قبوًا مكتمل التشطيب، وبدا أن أحدًا لم يقطن فيه منذ عقد على الأقل. وقد استوطنت رقع سوداء من العفن أحد الجُدران، بينما غطَّت شبكةٌ من بقع الرطوبة السقف المُعلق. لكن الكهرباء كانت تعمل، إذ غمر مصباحان ذوا إضاءة فلورسنتيَّة الغرفة بضوء أبيض مزعج. تمسكت بالدلو -كان في الحقيقة سلة مهملات معدنية صغيرة- وتساءلت إذا كان إلقاؤه على إيثان ستكون فكرةً جيدة. لكن إذا كنت سأخرج من هذا المأزق، فلن يكون ذلك من خلال القتال.

قال إيثان وهو يدير رأسه: «أعتقد أنه كانَ كهفٌ رجاليٌّ من نوعٍ ما».

فارتبكتُ للحظة قبل أن أدرك أنه يتحدث عن القبو. نظرتُ إلى حيث نظر ورأيت منطقة بار مدعومة بمرآة ضخمة، محفور عليها شعار فيلادلفيا إيجلز.

- هل تستطيعين تخيُّل أن تكوني زوجًا يعيش في الضواحي ويضطر إلى خلق مساحة تحت الأرض للهروب من زوجته وأطفاله؟

- هل تستطيع تخيل أن تكون قاتلًا متسلسلًا؟

أضاء وجه إيثان وكأنني قد أخبرته للتو كم يبدو وسيمًا بالنسبة لعمره. وقال: «أوه، كنت أعلم أن هناك سببًا لإبقائكِ على قيد الحياة».

- لمن هذا المنزل؟

- إنه لي. أنا أملكه، على الرغم من أن الاسم الموجود على سند الملكية هو براد أندرسون. لا توجد منازل أخرى في الجوار، ليس على بُعد نصف ميل على الأقل. إنني أخبركِ بهذا فقط حتى لا تفكري بالهرب أو الصراخ بأعلى صوتك هنا. أنتِ تحت رحمتي. كلما أدركتِ ذلك عاجلًا، كنَّا على وفاق أفضل.

نظرت إلى السلسلة المُكبلة بساقيَّ. كان من الصعب تحديد طولها من هذه الزاوية، لكن بدا أنها تقارب الخمسة أقدام وكانت مثبتة بنوعٍ من الدعامات المثبتة في الأرض. وبجانب الدعامة كانت هناك مِبْوَلَة.

قال إيثان: «هل تريدين قضاء حاجتكِ؟ يمكنني المغادرة للحظة إذا أردتِ ذلك».

- أنا بخير. إلى متى تخطط لإبقائي هنا؟

- لا أعرف. لم يسبق أن اختطفتُ أحدًا من قبل، ولا أعرف كم من الوقت سيبقى هذا الأمر مثيرًا للاهتمام.

قوستُ ظهري وأدرت رأسي، فطقطق عنقي وانتشرت خيوطٌ من الألم في جسدي. كنت بحاجة إلى وقت لأفكر، لكنني قررت بالفعل أنه إذا كان إيثان سالتز سيبقيني على قيد الحياة من أجل التحدث معي، فعليَّ أن أفعل ما يشاء وأتحدث إليه بدوري. وقررت أن أقول الحقيقة، عن كل شيء باستثناء هنري كيمبل. فلم يكن هناك من سببٍ لإقحامه في هذا.

- إذن كنتُ محقة. لقد تتبعتَ آلان بيرالتا من مؤتمرٍ إلى آخر، وقتلتَ النساء اللاتي تواصلن معه؟

قال وهو يصنع علامات اقتباس بيديه: «تواصلن معه!» وأردف: «الرجل صيادٌ بحدِّ ذاته».

- لكنه ليس قاتلًا.

- هذا أمر مشكوكٌ به.

- ولماذا فعلتَ هذا؟ لتنتقم من مارثا راتليف؟

كان يبتسم، على نحوٍ غريب كما اعتقدت، كابتسامة سياسيٍّ وسط مناظرة تلفزيونية، وقال: «كيف تورطتِ في الأمر؟ هل جاءتكِ مارثا تطلب المساعدة مجددًا؟».

- قالت إنها اعتقدت أن زوجها قد يكون قاتلًا متسلسلًا، وأنها وجدت دماء على أحد قمصانه...

- أوه، هل وجدتْ ذلك؟

- هل أنتَ من وضعها هناك؟

- لقد فعلتُ ذلك. بصراحة، كنتُ بدأت أشعر بالضجر من لعبة بيرالتا. أعني، كم مؤتمرًا لمعلِّمي المدارس الثانوية يستطيع رجل

واحد تحمُّله؟ اعتقدتُ أن دبوس جين أوستن قد يُسرِّع الأمور قليلًا.

- لقد اكتشفنا ذلك.

- لقد أجريتما بحثًا، مثل طالبتَي مكتبة صغيرتَين مُجِدَّتَين. ووجدتما سلسلةً طويلة من النساء القتيلات.

- بشكلٍ أساسي.

عبرت ملامح إيثان نظرة تفوُّق متعجرفة. فأخبرت نفسي أن أواصل قول الحقيقة، رغم ذلك. لهذا السبب أبقاني على قيد الحياة، راغبًا في سماع انتصاراته. متعطشًا للتصديق على أفعاله.

- لماذا لم تتصل بالشرطة؟

- لم تكن متأكدةً تمامًا أنه هو، وعرفت أنها إذا اتصلت بالشرطة واكتشف الأمر -وهو ما كان سيفعله- فقد يعني ذلك نهاية زواجهما. لم تكن تريد أن تفقد ذلك.

- كان خائنًا متسلسلًا، أتعلمين؟ يغازل النساء في المؤتمرات، ويلجأ إلى بائعاتِ الهوى، كل ذلك وغيره.

- أعرف.

- إذن اتصلت بكِ مارثا راتليف لتنقذيها، كما فعلت من قبل عندما كانت تواعدني؟

- أهكذا ترى الأمر؟

أنهى إيثان آخر رشفةٍ من قهوته ووضع الكوب على الأرض، ثم التقط قهوتي وقال: «هل أنتِ مستعدة لهذا الآن؟».

- بالتأكيد.

نهض وأحضرها إليَّ، مقتربًا بدرجة كافية بحيث أتمكن من الإمساك به، ولكمه، ومحاولة الانقضاض عليه إذا أردت ذلك. تناولت القهوة، كان الكوب فاترًا، واستقرَّ إيثان مرة أخرى على كرسيه، وعقد ساقَيه مرة أخرى. فتحت الغطاء البلاستيكي وأخذت رشفة، كان مذاقها جيدًا، على الرغم من أنني كنت أفضِّل الشاي.

- أهي جيدة؟
- ليست سيئة. عادة ما أُفضل الشاي، لكن القهوة جيدة أيضًا.
- آه، لاحظت.

نظر إلى ساعته، ثم أنزل ساقه عن الأخرى وعاد ووضع ساقًا فوق الأخرى. ودلَّك جانب عنقه كما لو كان يعاني من تصلب عضلي هناك.

قال: «عمَّ كنَّا نتحدث؟».

- سألتكَ إذا كنت تعتقد أنني أنقذت مارثا من علاقتها بك في كليَّة بيركبيك.
- أوه صحيح. أجل، بالطبع فعلتِ. لقد أمليتِ عليها ما ستقوله ثم ظهرتِ تلك الليلة في الحانة وصحبتِها معكِ إلى المنزل. تتذكرين كل ذلك، أليس كذلك؟
- أجل.
- ماذا كنتِ تعتقدين أنني أفعل لصديقتكِ؟
- عرفت ما كنت تفعل. كنت تتلاعب بها، وتحثُّها على المشاركة في ألعاب جنسية لا ترغب فيها، تؤذيها. لا أدري ما كنت تخطط له بعد ذلك.
- لقد أعجبها الأمر، كما تعلمين.
- نعم، أنا متأكدة من أن هذا ما أقنعت نفسك به.

ضحك إيثان، ليس على نحوٍ مسرحي، بل ضحكة صادقة. وكان لضحكته خَنْفَرَة تكاد تكون غير محسوسة في النهاية، قال: «كلَّا، أنتِ محقة. لم يعجبها بالضبط، لكنها كانت ستتمادى لو أتيحت لي الفرصة. وأنت أخذتِ ذلك مني. أخذتِها مني».

- أشعر بالحيرة، إيثان. لقد كانت تعني لك الكثير لدرجة أنكَ انتظرت خمسة عشر عامًا ثم دبرت خطة معقدة ليبدو وكأن زوجها قاتلًا متسلسلًا، كل هذا لماذا... للانتقام؟

بدا إيثان وكأنه يفكر، وزم شفتيه بقوةٍ معًا، وتساءلتُ إن كنتُ أخطأت باستخدام اسمه. أخيرًا، قال: «هل تريدين أن تعرفي كم شخصًا قتلتُ في حياتي؟».

- بالتأكيد.

- أربعة وعشرين.

- هذا رقمٌ كبير.

- نعم ولا. أعني، ربما لاقى أربعة وعشرون شخصًا حَتفَهُم للتو خلال الساعة الماضية بسقوطهم عن الدَّرج. لكن، نعم، ارتكبت أربعًا وعشرين جريمة قتل منفصلة وأفلتت بكل واحدةٍ منها. أعتقدُ أن هذا مثيرٌ للإعجاب.

- إذن، فالأمر أشبه برياضةٍ بالنسبة لك. لعبة على الأحرى.

أنزل ساقه عن الأخرى وانحنى قليلًا للأمام قائلًا: «هذا هو الأمر. لهذا أفعل ذلك. هل لديكِ أي فكرة كم تبدو الحياة العادية مضجرة لشخصٍ مثلي؟ في الواقع، أعتقد أنكِ قد تعرفين. لكن عندما يكتبون كتبًا عني، وسيفعلون، أنا متأكدٌ من أنهم سيحاولون العثور على شيءٍ ما في طفولتي، شيءٌ سار على نحوٍ خاطئ، لكن لا شيء في طفولتي جعلني

على هذا النحو. لقد شعرتُ بالضجر فحسب، واكتشفت مدى سهولة اللعب مع الناس وتدمير حياتهم، وفي النهاية اكتشفتُ مدى سهولة إزهاق الأرواح».

- من كان أول ضحاياك؟

اتَّكأ إلى الخلف قليلًا واعتقدتُ أنه بدا غير مرتاحٍ للمرة الأولى، كما لو أنه لا يريد أن يخبرني. ثم قال: «قتلت جدِّي. لقد كان مريضًا بالفعل، تقريبًا يحتضر، فخنقته. كنت في الحادية عشر من عمري».

- ربما تكون قد أسديته معروفًا.

- بالتأكيد أسديته معروفًا. وأسديت نفسي معروفًا. لأنني استعدتُ غرفتي الخاصة. لقد كان يقطن معنا وكان يقيم في غرفة نومي. لذا، جدي... هو الأول على قائمتي.

- هل احتفظتَ بالفعل بقائمة، إلى جانب تلك التي في رأسك؟

- لقد فعلت، كل اسم ومكان وتاريخ. وقد أخفيتها في مكانٍ سيعثر عليه بعد وفاتي، وعندها سيدركون.

- ستكون بمنزلة إيميلي ديكنسون القتلة المتسلسلين.

ضحك، ضحكته الصادقة، مرةً أخرى. وقال: «أنا معجب بكِ يا ليلي. لم أكن معجبًا بك على الإطلاق عندما التقينا لأول مرة، ولكن الآن الأمر مختلف».

- لأنك الآن تقيدني بالسلاسل في القبو.

- نعم، هذا صحيح.

ساد الصمت بيننا للحظة، واستطعت السماع والشعور بمعدتي فارغة. قلت: «إيثان، أنا جائعة».

- عندما أعود، سأحضر بعض الطعام. هذا ما تريدين سماعه، أليس كذلك؟ أنني لن أقتلك على الفور. وأنني سأتركك هنا وسيكون لديك فرصة للخروج.

- أفترض ذلك.

- يجب أن أذهب قريبًا. فعلى سبيل المثال، أحتاج إلى تغيير ملابسي ومواصلة حياتي الأُخرى. هل تفهمين؟

- لقد تساءلت عن ذلك. لم أستطع العثور عليك في أيِّ مكان وتخيلت أنك تستخدم اسمًا مختلفًا الآن.

- لم أعد إيثان سالتز منذ ستة أعوام تقريبًا.

- ومن تكون الآن؟

تردد هُنَيهةً، ثم قال: «اسمي روبرت تشارنوك. أدير معرضًا في فيلادلفيا. أنا متزوج. ولا تمانع زوجتي غيابي نصف الوقت».

- زوجتك؟

- هل فاجأكِ ذلك؟

- ليس حقًّا. لطالما بدوتَ لي من النوع الذي يحتاج إلى امرأةٍ في حياته. إنني فقط متفاجئة من كونكَ متزوجًا.

- هي من أصرَّت على الزواج، لكنني وجدتُ الأمر يروق لي. ثمة شعور بالراحة في معرفة أنني سأجد شخصًا أتشارك معه العشاء دائمًا.

- وهي لا تعرف أيَّ شيء عن إيثان سالتز؟

- كلَّا، ولِمَ ينبغِ لها أن تعرف؟ ثم إن إيثان سالتز لا يفعل الكثير هذه الأيام. كل ما تعرفه زوجتي أنها متزوجة من مالك معرضٍ فنيٍّ ناجح، لا يحب الحديث عن ماضيه. بالمناسبة، شهادة ميلادي

بصفتي تشارنوك حقيقيَّة، وكذلك شهادة زواجي. كنت لأقلق من اكتشاف أمري، لكن الناس العاديين ليسوا أذكياء إلى هذا الحد. عندما يُقدَّم لهم شخصٌ ما في حفل كوكتيل، فإنهم ببساطة يفترضون أن الاسم الذي قيل لهم هو الاسم الحقيقي.

- وهي لا تشكُّ في أيِّ شيء؟

- لا، لا شيء. أعني، ربما تتساءل عمَّا أفعل عندما أخرج في رحلاتي الاستكشافية الفنية، لكنني بصراحة لست متأكدًا من أنها تكترث كثيرًا فلديها حياتها الخاصة لتعيشها.

- إذن هل تحضر مؤتمرات تدريب المعلمين بصفتك روبرت تشارنوك، صاحب المعرض؟

- أوه، لديَّ أسماء أخرى كذلك. أحدهم هو براد أندرسون. إنه يحضر المؤتمرات. كما أنه يمتلك هذا المنزل القذر الذي نحن فيه الآن. ولديه رخصة قيادة مقنعةٌ للغاية. لا وجود لشهادة ميلاد، لكن لا يمكنك الحصول على كلِّ شيء.

هززت كتفيَّ، محاولة أن أبدو غير منبهرة، وقررت التوقف عن طرح الأسئلة حول مدى ذكائه. منذ أن أخبرني أنه سيحضر لي الطعام، أصبحت جائعةً أكثر من أيِّ وقت مضى، لكنني أردت أن أبقيه يتحدث. فقلت: «لم تُجب عن سؤالي السابق قط. قتْل كل هؤلاء النساء وإلصاق الأمر بآلان بيرالتا... هل فعلت كل ذلك للانتقام من مارثا راتليف فحسب؟».

- لا، ليس حقًّا. لقد انزعجت عندما أبعدتِ مارثا عني، لكنها درجة الانزعاج نفسها التي أشعر بها عندما يخطئ مطعمٌ باهظ الثمن في طهي شريحة اللحم خاصتي. كلَّا، الحقيقة هي أنني رصدت مارثا على الفيسبوك تتباهى بالزواج ومن ثم رأيت أن زوجها

يعمل بائعًا متجولًا، وقد خطرت لي الفكرة فحسب. لم تسأليني كيف أفلتُّ بكل تلك الجرائم. وهو شيء أصبحت ماهرًا فيه.

- أخبرني يا إيثان، كيف استطعت الإفلات بكل تلك الجرائم؟

ارتفعت إحدى زوايا فمه، وهو يستمع إلى نبرتي، ثم قال: «لقد أخفيتُها في صورة شيءٍ آخر. جعلتها تبدو كأنها حادثة أو قتل شخص في خضمِ طلاقٍ مرير، وتركت الأمر يظهر وكأنَّ فاعله شخص آخر. كان استخدام بيرالتا مجرد وسيلة لتضخيم أرقامي. اعتقدتُ أن بوسعي ملاحقته وقتل الأشخاص الذين يتواصلون معه، وفي نهاية المطاف سيُلقى القبض عليه بسبب الجرائم. ومن شأن ذلك أن يقضي على حياة مارثا أيضًا، عصفورين بحجر واحد...

لكن اتضح أن بيرالتا كان يصادف النوع الأسهل من الضحايا بالفعل. بغايا الشوارع، نساء ثملات في الحانات. كان الأمر سهلًا للغاية، وأنا لا أنفكُّ أنتظر رؤية وجه بيرالتا القبيح على غلاف صحيفة «يو إس إيه توداي» (USA Today) لكن لا شيء.

ثم وجدت نفسي في ساراتوجا سبرينجز، ضجرٌ تمامًا، لأرى من؟ ليلي كينتنر متنكرة -ربما؟- في هيئة معلمة مُنحلة، وعلمتُ أنكِ هناك لمراقبة بيرالتا. كان الأمر أروع من أن يصدق».

- ولماذا كان رائعًا؟

أدار رأسه للخلف يفكر، وقال: «لأن بيرالتا مثيرٌ للضجر، ومارثا مثيرةٌ للضجر، وأنا لا أعرفكِ حقًّا، لكنني لا أعتقد أنكِ مثيرة للضجر».

- لذا ذهبت وقتلت مارثا؟

- أردت أن أجعلكِ تدفعين ثمن دسَّ أنفكِ في شؤوني مرة أخرى. لطالما اعتقدت أنه كان ينبغي أن أقتل مارثا بعد أن انتزعتِها مني

سابقًا في الكلية. على الرغم من أن الأمر كان سيصبح محفوفًا بالمخاطر، كنت لأصبح مشتبهًا به بالتأكيد. لكن ليس الآن. الآن ليست لديَّ أيُّ علاقة بها أو بك أو حتى بإيثان سالتز.

- هل عانت؟

- يا إلهي، كلَّا. هل أبدو ساديًّا؟ أنا جامعٌ هاوٍ، يا ليلي. لقد أصبحت مارثا راتليف الآن على قائمتي. وهذا كل ما يهم.

ارتسمتْ نظرة متعجرفة على وجهه، كما لو أنه قد حسم للتو صفقة مزادٍ لصالحه.

استحضر ذهني صورة سريعة لمارثا، حيث يرقد جسدها الرخو على أرضية غرفة نومها في منزلها. دفعت الفكرة جانبًا، مدركةً أنه لا يسعني فعل شيء لمارثا الآن سوى إيجاد طريقة للقضاء على إيثان.

- إذن لماذا أنا على قيد الحياة؟

- حسنًا، أنا لن أعذبكِ أو أي شيء. ربما أريد فقط التحدث معكِ، والتعرف عليكِ قليلًا.

قلتُ: «حسنًا»، ثم استلقيتُ على الفراش، وأردفت: «سوف تحضر لي بعض أقراص الأدفيل عندما تعود، بالإضافة إلى بعض الطعام».

فكرتُ أنه إن كان يريدني أن أتحدث، فعلى الأقل سأحصل على شيءٍ بالمقابل. استدرت لأواجه الحائط وأصغيت إلى صوت إيثان وهو يخرج من الغرفة.

***

مكتبة ياسمين

الفصل السادس والعشرون

كان هنري كيمبل في فيلادلفيا، متوقفًا في الشارع المقابل لمبنى تملكه ريبيكا جروب، عندما رنَّ هاتفه. أشار الرقم أنه من شيبوج، كونيتيكت، وعلِم على الفور أنها أخبارٌ سيئة.

قال: «مرحبًا».

- هل هذا هنري؟

تعرَّف على صوت والدة ليلي، ورد قائلًا: «أجل. مرحبًا شارون، ما الأمر؟».

- أوه، آسفة لإزعاجك هنري، لكن ديفيد اعتقد أن الأمر يستحق الاتصال بك وأعتقد أنني اتفقت معه. لقد اختفت ليلي. خرجتْ في نزهة إلى البلدة بعد ظهر هذا اليوم ولم تعُد قط.

- هل كان هاتفها بحوزتها؟

- كلَّا، بالطبع لم تفعل. لقد اتصلتُ برقمها، لكنها تركته بجانب الأريكة في غرفة المعيشة.

- هل اتصلتما بالشرطة؟

- حسنًا، لقد فعلنا. كانوا هنا في وقتٍ سابق، وكانوا متعاونين للغاية، لكنني لست متأكدةً من أن هناك الكثير ممَّا يمكنهم فعله الآن.

- في أيِّ وقت ذهبت إلى البلدة؟

- في الوقت نفسه الذي تذهب فيه عادةً. على الأرجح في الساعة الثالثة تقريبًا. وعادةً ما تعود بحلول الخامسة على أقصى تقدير.
- وهل تمشي عادةً عبر الغابة؟

قالت شارون، وارتفعت حدَّة صوتها: «أعتقدُ ذلك. ربما تكون هناك الآن. ربما يجب أن نذهب للبحث عنها».

قال: «لا، لا تذهبي للبحث عنها. يمكن للشرطة أن تفعل ذلك صباح الغد، وإذا لم تفعل، فسوف آتي، حسنًا؟».

قالت شارون: «حسنًا»، وبدت خائفة. شعر هنري بأنها تعرف ما يعرفه، ألا وهو أن شيئًا سيئًا قد وقع لليلي.

- ألا تعتقد أنها استقلَّت القطار لرؤيتك إذن؟

قالت ذلك كما لو أن الفكرة قد خطرت لها للتو.

- ربما، إذا ظهرتْ هنا، فستكونين أول من يعلم، حسنًا؟ حاولي أن تنالي قسطًا من النوم، واتصلي بي أول شيءٍ في الصباح.
- شكرًا لك هنري. لطالما كنت صديقًا جيدًا.

جلس هنري في السيارة للحظة في الشارع المظلم، والهاتف في يده. حاول إبطاء أفكاره والتفكير بعقلانية فيما قد حدث لليلي. إذا كان إيثان سالتز قد وصل إليها في شيبوج -وبدا الأمر كذلك- فإما أنه قتلها وتركها، وفي هذه الحالة ستكون على الأرجح مُستلقية في الغابة، وإما أنه قد قتلها وأخذ الجثة معه، وفي هذه الحالة ستكون في أيِّ مكان. ربما في حاوية قمامةٍ ما أو في قبرٍ ضحل لن يُعثر عليه أبدًا. أو ربما قد اختطفها حيَّة. فإذا كان أحد الخيارين الأولين صحيحًا، فلن يكون هناك الكثير ممَّا يمكن فعله الآن سوى أن يجعل من العثور على إيثان سالتز وإجباره على دفع الثمن هدف حياته. لكن إذا كانت ليلي لا تزال على قيد

الحياة -وحتى يتضح له العكس، فسيفترض أنها كذلك- فمن الأهمية بمكانٍ أن يعثر على إيثان في أسرع وقت ممكن.

كانت حقيقة وجوده بالفعل في فيلادلفيا أمرًا جيدًا. فقبل أن يغادر كامبريدج متوجهًا إلى هنا، بحث هنري في الاسم الذي أعطته إياه ليلي. روبرت تشارنوك، مالك معرض تشارنوك. بدا من الممكن، بل وربما حتى من المحتمل، أن يكون سالتز هو تشارنوك، إن لم يكن لسببٍ آخر سوى حقيقة أن هناك القليل جدًّا من المعلومات حول تشارنوك وعدد قليل جدًّا من الصور له على الإنترنت. كان يمتلك معرضًا فنيًّا راقيًا، ممَّا يجعل المرء يعتقد أنه يتمتع بحضورٍ عامٍّ كبير، لكن بدا واضحًا أنه يتجنب الظهور. ومع ذلك، كان هناك إعلان زفاف منذ ستة أعوام، حيث تزوج تشارنوك من امرأة تدعى ريبيكا جروب. والتي على عكس زوجها، كانت تمتلك حضورًا قويًّا على الإنترنت إلى حدٍّ ما. لقد كانت مطلقةً ولديها طفلان. وكانت عضوة في مجالس إدارة عدة مؤسسات فنيَّة في فيلادلفيا، من بينها متحف موتر، كما أنها أدارت منظمتها الخيرية الخاصة التي تُدعى (SEAP)، أو جمعية تشجيع الفنون في فيلادلفيا. عثر هنري على عنوانها، وهو منزل في ساحة ريتنهاوس، أحد أرقى أحياء فيلادلفيا.

وكان ذلك حيث يجلس، في شارعٍ مليء بالمنازل المبنيَّة من الطوب والتي ذكَّرته ببيكون هيل في بوسطن. وقد اقتضت خطته الجلوس ومراقبة المدخل الأمامي. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً، وكان يأمل في رؤية تشارنوك يغدو أو يروح، على أمل إلقاء نظرةٍ جيدة عليه بما يكفي للتأكُّد ممَّا إذا كان إيثان سالتز بالفعل. ولكن الآن بعد أن تلقى مكالمة شارون الهاتفية، تغير كلُّ شيء. نزل من السيارة وعبر الطريق، صاعدًا الدرجات الحجرية إلى باب ريبيكا جروب الأمامي.

كانت هناك مِقْرَعةُ بابٍ قديمة جدًّا على شكل رأس أسد، فطرق عليها عدة مرات ثم انتظر. وبينما كان على وشك الطرق مجددًا، انفتح الباب قليلًا وأمعنت امرأةٌ النظر من خلف سلسلة الباب. كان لبشرتها مظهر لامع كما لو أنها أزالت للتو كلَّ مكياجها. قالت: «أيمكنني مساعدتك؟».

- مرحبًا، لا بدَّ أنكِ ريبيكا جروب. أنا آسف جدًّا بشأن المكالمة المتأخرة، ولكني كنت أتمنى التحدُّث إلى زوجك.

- روبرت غير موجود الآن. ما الأمر؟

- أنا محققٌ خاص.

قالها هنري ودفع إحدى بطاقاته المزيفة -المطابقة تمامًا لبطاقته الحقيقيَّة ولكن باسم مختلف- عبر الشق في الباب، أخذتها ريبيكا دون أن تنظر إليها.

- لقد وظفني شخصٌ تعرَّض لعملية احتيال كلفته الكثير من المال، وفي تحرياتي تبين أن المشتبه به الرئيسي هو شخصٌ له تعاملاتٌ تجارية مع زوجكِ أيضًا. أنا آسف على الغموض، لكن السبب في إزعاجكِ هو أنني أعتقد أن زوجكِ سيود معرفة أنه قد يتعرض إلى خطرٍ ماليٍّ في أقرب وقتٍ ممكن. حاولتُ العثور على رقم هاتفه، ولكن...

قالت ريبيكا: «نعم، إنه يحب أن يظل مجهولًا. إنه حقًّا ليس هنا الليلة. لقد ذهب ليبحث عن التحف على ساحل مين».

- هل يمكنكِ أن تعطيني رقم هاتفه الخلوي؟ أعتقد حقًّا أنه سيرغب في سماع ما لديَّ.

راقبها وهي تفكر في الأمر. كان وجهها خاليًا من التعبيرات ولكنه جميل، وشعرُها مرفوعٌ ومربوط بشريط رأسٍ مُزركش بالأزهار، وفكر هنري أنه لم يرَ جبينًا أملسًا كهذا على شخص بالغ من قبل.

قالت: «آسفة، فأنا لا أُعطي رقم هاتف زوجي الخلوي، لكن يسعدني توصيل رسالةٍ منك إليه».

- هل تعتقدين أنه سيكون في المعرض غدًا؟

- أشكُّ في ذلك، لكن جدول أعماله يتغير طوال الوقت. ومع ذلك، سيكون كريس صلاح هناك، فهو من يدير المعرض حقًّا. في الواقع، ربما يكون الشخص الأمثل بالنسبة لك للتحدُّث معه بدلًا من زوجي إذا كان الأمر يتعلق بأحد زبائن المعرض.

قال هنري: «رائع. كريس صلاح. سأتواصل معه صباحًا». وابتعد خطوة عن الباب.

قالت ريبيكا: «ربما ستجد رقم هاتفه على الموقع الإلكتروني»، وأصبح صوتها أكثر ودية الآن وقد ابتعد هنري.

- شكرًا لكِ مرة أخرى، لقد كنتِ متعاونة جدًّا مع شخصٍ يطرق بابكِ في منتصف الليل.

- لم يحن منتصف الليل بعد.

- منذ متى وأنتِ متزوجة من روبرت؟

حركت فمها جانبًا وهي تفكر، ثم قالت: «أربعة أعوام الآن».

- هل كان يدير معرضًا فنيًّا هنا عندما التقيتِ به؟

- يا إلهي، كلَّا. لكنه كان تاجرًا، تاجر أعمال فنية، لكن كل شيءٍ كان عبر الإنترنت. أنا من أقنعته بفتح معرض. أنت لا تعتقد حقًّا أنه في خطرٍ مالي، أليس كذلك؟

- أرجو أَلَّا تقلقي بشأن ذلك. لقد أخذ الشخص الذي أتحقق منه مبلغًا كبيرًا من عميلي، ثم ظهر اسم زوجكِ كعميلٍ مُحتمل آخر لهذا الشخص نفسه. هل يحب زوجكِ المقامرة بأمواله؟

«تقصد بأموالي؟»، قالتها وضحكت، وأردفت: «لا، زوجي مهتمٌّ بالفن فقط. أعني أنه يحب بيع اللوحات، لكن ما لم يكن يحيا حياةً سريَّة من نوعٍ ما، فلا أعتقد أنه يستثمر في مخططات الثراء السريع».

لم تبدُ ريبيكا قلقة، وظن هنري أن ذلك ربما يعود إلى عدم قدرة زوجها على الوصول إلى ثروتها الخاصة. كان بإمكانه أيضًا أن يرى أنها قررتْ أنه غير ضارٍّ، وللحظةٍ فكَّر في أن يخرج هاتفه، ويظهر لها الصورة القديمة لوجه إيثان سالتز، ثم يسألها إذا كان هذا هو زوجها. ومع ذلك، لم يكن متأكدًا من أنها ستخبره، لكنه كان متأكدًا من أنه بمجرد أن يفعل ذلك، ستصبح شديدة الارتياب، وعلى الأرجح ستُحذِّر زوجها من أنَّ شخصًا ما قد جاء يتلصص. قرر أن ينتظر حتى الصباح لتأكيد هوية روبرت تشارنوك.

- حسنًا، من الجيد معرفة ذلك. سأزور كريس صلاح غدًا صباحًا. لقد كنتِ عونًا كبيرًا لي.

***

كان هنري متوقفًا بالسيارة خارج معرض تشارنوك منذ الفجر عندما ارتقى رجلٌ أنيق الدَّرج في العاشرة صباحًا، وافترض أنه صلاح، ودخل من الباب الأمامي. خلال الليل، تمكن من النوم بضع ساعات متقطعة في المقعد الخلفي لسيارته، ثم ذهب إلى مطعمٍ يعمل على مدار الساعة لتناوُل القهوة واستخدام المرحاض لترتيب نفسه.

كان يعلم أنه سيتعين عليه التصرُّف سريعًا إذا وصل صلاح ومتى وصل. وكانت المعلومة الأكثر أهمية هي معرفة ما إذا كان روبرت تشارنوك هو بالفعل إيثان سالتز. لأنه لو لم يكن كذلك، فسيحتاج إلى العودة إلى نقطة البداية، والتي تُدعى أيضًا الإنترنت، ومواصلة البحث. لكن إذا كان تشارنوك هو سالتز، فسيتعين عليه معرفة مكانه. إما أنه اختطف ليلي، أو أنه قتلها وأخفى جثتها. دفع هنري هذا الاحتمال الأخير، وهو السيناريو الأكثر ترجيحًا، إلى مؤخرة عقله.

خرج هنري من السيارة وعبَر الشارع الذي تصطفُّ على جانبيه الأشجار إلى الدرجات الحجرية المؤدية إلى الواجهة القوطية للمعرض. كانت هناك لافتةٌ بسيطة بجانب الباب الأمامي المزخرف تشير إلى أن معرض تشارنوك يقع هنا، وأسفل اللافتة كان هناك جرس ومكبِّر صوت. ضغط على الجرس.

انبعث صوتٌ مكتوم عبر مكبر الصوت قائلًا: «مرحبًا».

قال هنري: «أنا أبحث عن روبرت تشارنوك أو كريس صلاح».

- هل لديكَ موعد؟

- إنني هنا بشأن مسألةٍ جنائيةٍ عاجلة. أنا محققٌ خاص مُرخص وقد أخبرتني ريبيكا جروب أن آتي إلى هنا.

- سأكون هناك حالًا.

بدا الرجل الذي فتح الباب كما توقع أن يبدو مدير معرضٍ راقٍ. كان يرتدي بنطالًا بلون السلمون وسترة من قماشٍ شبيه بالكتان منقَّطة باللون الأزرق. كان نحيفًا جدًّا وله قَصَّة شعرٍ مثالية. قال بينما كان هنري يخطو عبر الباب المفتوح: «أنا كريس صلاح، هل روبرت على ما يرام؟».

- لا أعرف. لم أتحدث معه. هل هناك مكانٌ يمكننا الجلوس فيه؟

قال: «بالتأكيد، بالتأكيد»، ونزلا عبر ممرٍّ قصير مُبلط باللونين الأبيض والأسود إلى مكتبٍ مزدحم به مكتبان، أحدهما يقبع عند نافذةٍ بارزة والآخر ملتصق بالجدار المقابل. قال صلاح: «روبرت غير موجود. لذا يمكننا الجلوس على مكتبه».

جال هنري بنظره في أرجاء المكتب الصغير. كان المكان ليوحي بأنه مكتب شركة تأمينات لولا وجود لوحة زَيتيَّة تجريديَّة ضخمة احتلت الجدار الأكبر مساحة، وتمثال راقصة باليه صغير بدا وكأنه من صُنع ديجا قد استقرَّ على مكتب تشارنوك. ولا بدَّ أن صلاح رأى عيني هنري تتجهان إلى التمثال فقال: «إنه تقليد، لكن روبرت يقول دائمًا إنه أفضل تقليدٍ رآه على الإطلاق».

قال هنري: «قبل كلِّ شيء»، وأخرج صورةً على هاتفه، منحنيًا على المكتب ليعرضها على صلاح، واستطرد: «هل يمكنكَ أن تؤكِّد لي أن هذا هو رئيسك، روبرت تشارنوك؟».

نظر صلاح إلى الصورة وعبس، وظن هنري للحظة أن حظه قد نفد. ثم قال صلاح: «منذ عشرة أعوام تقريبًا، بالتأكيد».

قال هنري، وهو يجلس مقابل صلاح: «شكرًا لك. لا أقصد أن أكون دراميًّا، ولكن كان هناك بعض الالتباس حول هوية تشارنوك الحقيقيَّة، وأردتُ التأكد من أننا نتحدث عن الرجل نفسه».

«هل هو في ورطة؟» سأل صلاح، وكان صوته متحمسًا أكثر منه قلقًا.

- كلَّا. لكنني بحاجةٍ إلى العثور عليه في أقرب وقت ممكن. هل تعرف مكانه؟

تنهد صلاح قائلًا: «أعتقد أنه في مين الآن. إنه يسافر كثيرًا، يزور متاجر التحف ومزادات بيع التركات. إنه شغفُه المطلق. يمكنني الاتصال به من أجلكَ إن أردت».

كان هنري قد توقع ذلك وقال: «لا، لا بأس. على الأقل ليس الآن. لأكون صادقًا معك، حقيقة أنك تعرفت على صورته ساعدني كثيرًا. فالقضية التي أبحث فيها هي قضية احتيال مالي على نِطاقٍ ضَيق، وهناك بعض الالتباس حول ما إذا كان روبرت تشارنوك هو المالك الفعلي لمعرض تشارنوك. هل يعني اسم إيثان سالتز أي شيء بالنسبة لك؟».

هزَّ صلاح رأسه، لكنه قال بعد ذلك: «الاسم مألوف. قد يكون أحد مشترينا. يمكنني التحقق من أجلك».

قال هنري: «سيكون ذلك رائعًا».

انزلق صلاح خلف مكتبه الخاص وشغَّل حاسوبه النقَّال الموضوع فوق كومةٍ من كُتب الفن.

«دعني أرى، دعني أرى»، أخذ صلاح يُردد وهو ينقرُ فوق لوحة المفاتيح، ثم قال: «ما هي التهجئة الصحيحة للاسم؟».

- الاسم الأول إيثان، واسم العائلة سالتز. ســ ا لــ تــ ز.

- هاه، لا شيء. أكاد أقسم إن...

- لا بأس، غالبًا لن تجد شيئًا.

- انتظر، دعني أجرب شيئًا آخر.

نقر أكثر، ثم قال: «يوجد شخصٌ يُدعى إيفان سالتزمان هنا. لهذا السبب بدا هذا الاسم مألوفًا جدًّا».

- هل تعرف إيفان سالتزمان؟

- لا أعرف. أقصد أنني تعرفت على الاسم، لكنني لم أقابله من قبل. لقد أرسلنا إليه مؤخرًا مبلغًا مستردًّا مقابل لوحةٍ أعادها، ولهذا السبب بدا الاسم مألوفًا. لقد كان مبلغًا كبيرًا من المال.

ضحك صلاح.

قال هنري: «هل يمكنني الحصول على عنوانه؟».

بدا صلاح مترددًا قليلًا. ثم قال: «آه. لست متأكدًا من أنه ينبغي أن أعطيك هذه المعلومات. ربما لم يكن يجب أن أعطيكَ اسمه على الإطلاق».

- ولم لا؟ أنت تبيعُ الفن، أليس كذلك؟ أعني أنها ليست معلومات في غاية السرية.

راقب هنري صلاح وهو يصرُّ بأسنانه قليلًا، وعرف أنه ما لم يُغير مجرى الحديث، فإن المحادثة ستنتهي.

قال هنري: «اسمع، تبدو شخصًا ذكيًا، لذا سأقدم لك معروفًا كبيرًا». أومأ صلاح برأسه، وتابع هنري: «من المحتمل أن يكون رئيسكَ في ورطة كبيرة. في ورطة كبيرة حقًا. إنها عملية احتيال مالية يبدو أنه متورطٌ فيها، وأعتقد أنه سيغرق بهذه السفينة. السؤال هو: هل تريد أن تغرق معه كذلك؟».

ضغط صلاح يده على صدره، وقال: «لا أعرف أيَّ شيءٍ عمَّا تتحدث عنه. جديًا، صدقني. فبقدر ما أعلم، نحن نبيع الفن هنا فحسب».

- أصدقكَ، كريس، لكن هذا لا يعني أنك لن تكون متورطًا. فمن الواضح أن لديكَ صلاحية الدخول إلى السجلات المالية، إذ أخبرتني للتو عن معاملةٍ نقدية صُرفت لإيفان سالتزمان. لا أعتقد حقًا أن لديكَ حجة للإنكار.

قال بصوتٍ ترتفع حدته قليلًا: «ولماذا أحتاج إلى حجةٍ للإنكار؟ هل هناك من سببٍ يدعوني للقلق؟».

- حسنًا، على رئيسك أن يكون قلقًا للغاية، وأنت أيضًا ينبغي أن تكون قلقًا بعض الشيء. سأكون صادقًا معك. هناك طرف ثالث على وشك تسليم رئيسك بسبب مخالفاتٍ مالية. السبب في محاولتي

العثور على روبرت تشارنوك –السبب في حاجتي إلى العثور عليه– هو منحه الفرصة لرواية قصته قبل أن يفعل الطرف الثالث. الأمر بهذه البساطة. ومن الأهمية بمكانٍ أن أعثر عليه، وبسرعة.

قال صلاح وهو يخرج هاتفه من جيب بنطاله: «يمكنني الاتصال به».

- سيكون من الأفضل بكثير لو تمكنتُ من العثور عليه والتحدُّث معه. إذا اتصلت به، أعتقد أنه سيغلق على الفور، وهذا لن يجعل الأمور تسير على ما يرام بالنسبة له. هل تعتقد حقًّا أنه موجود بالفعل في مكانٍ ما على ساحل مين يسعى خلف الفن؟ هل من الممكن أن يكون في مكانٍ آخر؟

- ربما، لكن ليست لديَّ أدنى فكرة. أعتقد أنك تظن أنني منخرطٌ في هذا المكان أكثر ممَّا أنا عليه بالفعل. إنني لا أعرف الكثير حقًّا. فأنا أعمل هنا فحسب.

- حسنًا، حسنًا. أنا أصدقكَ. ولكن ما سيكون مفيدًا هو أن تعطيني عنوان إيفان سالتزمان الموجود على حاسوبك. أسألكَ فقط لأن من المحتمل أن يكون رئيسك قد عُرف ذات يومٍ باسم إيثان، وربما يساعدنا هذا العنوان في العثور عليه.

أضاف هنري: «إذا تطلب الأمر، فلن أكشف أبدًا أنك أفشيت هذه المعلومات. كل ما أريده الآن هو العثور على رئيسكَ ومنحه فرصة للتعاون قبل أن يقع في ورطةٍ كبيرة. ستكون بذلك قد أسديته معروفًا».

أخذ هنري يراقب عينَي صلاح، وكان بإمكانه الجزم بأنه لا يعرف ماذا يفعل. فقال هنري: «ربما يمكنك التذرُّع بالذهاب إلى المرحاض لخمس دقائق، من شأن ذلك أن يفي بالغرض أيضًا».

قال صلاح بعد هُنَيهة: «حسنًا. أنا في الواقع بحاجة إلى الذهاب واستخدام المرحاض، ما اسمكَ مجددًا؟ هل أعطيتني بطاقتك».

قال هنري وهو يمدُّ إليه البطاقة المزيفة التي تحمل اسم تيد لوكوود: «أوه، آسف». ثم غادر صلاح الغرفة.

تحرك هنري بسرعة، وجلس خلف حاسوب صلاح. كان يحدِّق إلى قاعدة بيانات عملاءٍ من نوعٍ ما تحتوي على عددٍ من الحقول؛ اسم العميل، عنوان البريد الإلكتروني، العنوان الفعلي، مكان العمل، طُرق الدفع، قائمة المعاملات. ترك صلاح صفحة إيفان سالتزمان مفتوحة، فصورها هنري بهاتفه. كان هناك عنوان، لكنه اتضح أنه مجرد صندوق بريد في مكانٍ يدعى توهيكون، بنسلفانيا. ألقى نظرةً سريعة على قيمة آخر معاملة -عملية الاسترداد- ورأى أنها تبلغ مئةً وعشرين ألف دولار.

نهض هنري بمجرد أن عاد صلاح إلى الغرفة. كان وجه صلاح شاحبًا ورطبًا عند خط الشعر، وكأنه رشَّ عليه ماءً باردًا.

وقبل أن يغادر، قال هنري: «كريس، ليس هناك سببٌ يدفعك إلى تصديق كل ما أقوله، لكنكَ فعلت الشيء الصحيح هذا الصباح. رئيسكَ رجلٌ سيئ، ويجب أن تبتعد عنه. حسنًا؟».

- هل أنا في ورطة؟

- كلَّا، لكن عليك تحديث سيرتك الذاتية.

عندما عاد هنري إلى سيارته، ضبط وجهته على نظام تحديد المواقع إلى بلدة توهيكون في بنسلفانيا.

***

الفصل السابع والعشرون

بعد أن غادر إيثان، استخدمت المبولة ثم استلقيت مجددًا على السرير وأغمضتُ عينيَّ، ورحت أفكر.

لقد تمكنتُ من إلقاء نظرة جيدة على السلسلة التي تبقيني مقيدة. كان القيد حول كاحلي مؤمنًا بقفل، وتساءلت عمَّا إذا كان إيثان يحمل مفتاح هذا القفل بحوزته. إذا كان قد فعل، فهذا يمنحني فرصة ضئيلة للهرب. لم يكن خائفًا مني، على الأقل ليس خوفًا جسديًّا، بأيِّ حال؛ لقد علمت ذلك من خلال مدى قربه مني في أثناء محادثتنا. لذا، إذا تمكنت بطريقةٍ ما من الحصول على سلاح، فمن الممكن أن أتمكن من إعاقته بينما لا أزال مقيدة، ثم أحصل على المفتاح وأفتح الأصفاد. لكن لم يكن لديَّ سلاح. وكانت الاحتمالات أن المفتاح معلقٌ في مكانٍ ما بالمنزل، بعيدًا عن متناول اليد.

جلست منتصبةً لأفحص القيد عن قُرب، وأتساءل إن كان هناك أيُّ مجالٍ للتحرك من شأنه أن يسمح لي بتحرير قدمي بطريقةٍ ما. لم يكن هناك شيء كذلك. لأمكنني تحرير قدميَّ باستخدام منشار، لكنني لم أكن أملك منشارًا.

استلقيتُ مجددًا، وأخذت أتطلع إلى السقف المعلق المتضرر بفعل المياه. لم أعتقد أن هناك مخرجًا من هذا الوضع، لا مخرج جسدي على الأقل. كان أفضل رهانٍ لي هو محاولة البقاء على قيد الحياة لأطول فترةٍ

ممكنة على أمل أن يتمكن هنري كيمبل من معرفة مكاني. وكان البقاء على قيد الحياة مرهونًا بالإبقاء على اهتمام إيثان، وإبقائه يتحدث، والاستمرار في تسليته. وبمجرد أن اتخذتُ ذلك القرار، بأن أملي الوحيد يكمن في تأخير المحتوم، استرخيتُ قليلًا وبدأت أفكر في أشياء أخرى. كنت قلقة على والديَّ، اللذين كانا سيبلغان عن اختفائي في الليلة السابقة. ستصاب والدتي بالذعر، وربما يكون والدي في حدادٍ بالفعل. لقد أخبرني ذات مرة أنه يتساءل في كل مرةٍ أغادر فيها المنزل عمَّا إذا كنت سأعود. كان ذلك لأن والده تركه هو ووالدته عندما كان صغيرًا. لقد كان جدي بائعًا، يُدعى سيجفريد كينتنر، وقد غادر في رحلةٍ إلى شمال إنجلترا ولم يسمع عنه أحد مرةً أخرى. قلت لوالدي ذات مرة، عندما كنت طالبة في السنة الأولى في كليَّة ماذر: «هذا يفسر كل شيءٍ عنك» فأجابني: «لا شيء يفسر كل شيء عن شخصٍ ما، ليل».

استغرقت في التفكير في والديَّ بينما أنتظر عودة إيثان. لو كانت هذه آخر ساعاتي على هذه الأرض، وعلى الأرجح كانت كذلك، فلم أكن أخطط لإضاعتها في الذُّعر أو الندم. ولم أكن في أسوأ وضعٍ ممكن. كنت على قيد الحياة وقد عثرت على إيثان سالتز. كان ذلك شيئًا ما، على الأقل مؤقتًا.

عاد إيثان عند الظهيرة تقريبًا، كان يهبط دَرج القبو وهو يدندن لحن أغنية «مانيك ماندا‌ي» (Manic Monday) لفريق البانجلز. وهو يحمل كيسًا ورقيًّا معه، ألقى نظرةً سريعة في اتجاهي ثم وضع الكيس على البار. كنت لا أزال مستلقية على ظهري، وربما ظنَّ أنني نائمة. استمعتُ إليه وهو يفتح الكيس، ثم استطعت أن أشمَّ رائحة الطعام في الهواء، فجلستُ منتصبة.

- أنتِ مستيقظة.

- هل أحضرتَ الغداء؟

- لديَّ شطيرة كرات اللحم وشطيرة البارميزان بالباذنجان، وهناك أيضًا شطيرة لحم الخنزير والجبن.

- تبدو كلها لذيذة، لكن إن كنت تسألني، فسآخذ كرات اللحم.

فتح إحدى طاولات التلفاز القديمة تلك وأحضرها ووضعها أمام المكان الذي كنت أجلس فيه. وكما كان في السابق، اقترب مني بدرجةٍ كافية لدرجة أنه أمكنني لمسه إذا أردت. ما زلت لا أستطيع تخيُّل السيناريو الذي يمكن أن أوذيه فيه. كان يفوقني وزنًا بمئة باوند تقريبًا، ولم يكن هناك شيءٌ يمكنني استخدامه كسلاح.

بعد أن وضع الطاولة، ذهب وأحضر شطيرة كرات اللحم، ووضع زجاجة كولا بلاستيكية بجانبها. قاومت الرغبة في شُكره وبدأت في تناول الطعام.

وبينما كنت آكل، جلس إيثان بهدوء وراقبني. كان الأمر مزعجًا، لكنني حاولتُ تجاهله. لقد غير ملابسه منذ آخر مرة رأيته فيها، وكان يرتدي سروالًا قصيرًا ناعمًا قَمْحِيَّ اللَّوْن، وقميصًا ذا مربعات، وسترة زرقاء.

قلتُ قبل أن آخذ قضمتي الأخيرة من الشطيرة: «أين نحن؟».

- لقد أخبرتكِ بالفعل. إنه منزلٌ أملكه باسمٍ مستعار.

- كلَّا، أي بلدة؟

- نحن في مدينة توهيكون الجميلة في ولاية بنسلفانيا. هل فكرت يومًا أنكِ ستموتين في مثل هذا المكان؟

هززتُ كتفي، وقلت: «لطالما اعتقدتُ أنني سأموت في شيبوج، كونيتيكت، لذا أعتقد أن توهيكون مناسبة لي. أين تخطط للموت؟».

قال ضاحكًا: «أي مكانٍ ما عدا هنا، أعتقد»، وبدا مرتبكًا بعض الشيء، كما لو كان طفلًا لم يستوعب المفهوم الأساسي للفناء بعد.

- محاطًا بأحبائك؟

- كما تعلمين، أنا لا أقيم لمفهوم الحب وزنًا كبيرًا.

- هل سبق لك أن أحببت أيَّ شخص؟ هل أحببت والدتك؟

- أنتِ تحاولين استفزازي، وأنا أدرك ذلك. لم أحب والدتي بشكلٍ خاص، لكنني لم أكرهها أيضًا. لقد كانت مجرد شخصٍ أنجبني. يعتقد الناس أن تلك الصلة -الأمومة- بالغة الأهمية، ومع ذلك فهي عشوائيَّة للغاية. فنحن لا يتسنى لنا اختيار من يكون آباؤنا، تمامًا مثلما لا يتسنى لهم اختيار أطفالهم. ربما كان من الأفضل لنا جميعًا أن نخوض هذا العالم دون أن نضع آمالًا عظيمة على الأشخاص الذين يشاركوننا دماءنا. ألا توافقيني الرأي؟

فكرتُ في الأمر بصدق، ثم قلت: «إنَّ وضع آمالٍ عظيمة على أيِّ شخص هو خطأ، لكنني أعتقد أن العائلة مهمة. إنها كذلك بالنسبة لي، على ما أفترض. فما الذي يتبقى في النهاية؟ عملنا وعائلتنا».

- الشيء الأهم هو الإرث، تركُ بصمة المرء في هذا العالم. تركُ شيءٍ ما في أعقابك.

- سأكون قد فارقت الحياة حينها، فما الذي سيهمني؟

- يُسعدني تخيُّل ما سيكتبه الناس عنِّي بعد رحيلي. سأكون قد قتلت مئةَ شخصٍ وأفلتُّ بفعلتي، وسيبحث الجميع عن الدافع. هل كان والديه؟ هل حدث خللٌ ما في أثناء طفولته؟ هل الدافعُ جنسيٌّ؟ ولن يكون أيًّا منها.

- أنت تقتل الناس لأنك تستطيع.

ابتسم، وقال: «أترين، لقد فهمتِ الأمر».

- لقد قتلتُ أشخاصًا أيضًا.

أمال رأسه، وهو لا يزال يبتسم، وقال: «هل فعلتِ حقًّا؟ أم أنكِ تقولين ذلك فحسب لأنكِ تعتقدين أن هذا ما أودُّ سماعه؟».

- كلَّا، أقول ذلك لأن هذه هي الحقيقة، وبما أنكَ إما ستقتلني أو سأجد طريقةً ما لقتلك، فلا يهم إذا عرفت.

- من قتلتِ؟

- كم كان عمرك عندما قتلتَ جدك؟ أعلم أنكَ أخبرتني، لكنني نسيتُ.

- كنتُ في الحادية عشرة.

- كنتُ في الرابعة عشر من عمري عندما قتلت شخصًا لأول مرة. كان اسمه شيت، وكان أحد ضيوف والديَّ في الصيف، فنانًا.

قال إيثان جازمًا، ثم انحنى مقتربًا: «كان منحرفًا».

- كان منحرفًا. لم يكن قد فعل بي شيئًا بعد، لكنه كان يفكر في ذلك. قتلته لأحمي نفسي.

- كيف أفلتِّ بفعلتكِ؟

رويتُ له كل تفاصيل القصة، كيف أغريتُ شيت إلى البئر ودفعته فيها، وكيف حزمت أغراضه ليوحي الأمر بأنه غادر بيتَ الضيافة لدينا. سردت الحكاية بصدقٍ قدر استطاعتي.

قال إيثان عندما انتهيت: «يا لها من قصة! والآن ستخبرينني كم استمتعتِ بقتله، أليس كذلك؟».

- لم أفعل. لقد تطلَّب الأمر جهدًا كبيرًا، وكنت أفضل القراءة، لأكون صادقة. هناك فرقٌ كبير بيننا. لقد أزهقت أرواحًا لأنني لا أمانع القتل. ربما كانت هناك دومًا نسخٌ مني عبر التاريخ. كنتُ لأصبح

ذلك الشخص في القرية الذي يتولى مهمة إغراق حقيبة من الهرر عندما يكون هناك الكثير منهم. يجب على شخصٍ ما أن يفعلها، لذا أعطِ المهمة لمن لا يرتعد خوفًا. هذا مثالٌ سيئ، لأنني لست متأكدة من قدرتي فعليًّا على إغراق هرر صغيرة، لكن قتل شيت لم يمثل مشكلةً بالنسبة لي. بيدَ أنني لم أستمتع به. لم أستمتع بقتل أيٍّ شخصٍ قط.

- من قتلتِ غيره؟

قلت، أملًا في إنهاء المحادثة بينما كان لا يزال مهتمًّا بالتحدث معي: «لقد سئمتُ من الحديث. في الواقع، أنا متعبةٌ فحسب. ربما أستطيع الاستلقاء، ويمكنكَ أن تخبرني عن كل الأشخاص الذين قتلتَهم».

- إنها قائمةٌ طويلة.

- حدثني عن بعضهم. حدثني عن الأرواح التي أزهقتها وأنت تحاول تلفيقها لآلان بيرالتا.

روى لي قصصه، واستمعتُ. كنت أشعر بالبهجة في صوته، ليست البهجة التي شعر بها وهو يقتل الناس، بل البهجة التي شعر بها وهو يروي لي التفاصيل، يخبرني كم كان ذكيًّا. وأثار اهتمامي بشكلٍ خاص ما أخبرني به عن جريمة قتل نورا جونسون في فورت مايرز بفلوريدا، وكيف قتلها بجانب آلان بيرالتا مباشرةً.

بعد أن تحدث لفترة قلت له: «يبدو واضحًا لي أنه بعد قتْل جدِّك اكتشفتَ أنك استمتعت بذلك».

- لماذا تفترضين ذلك؟

- لأنكَ واصلت فعل ذلك، وقتْل الغرباء، الأشخاص الذين لم يفعلوا لك شيئًا، أو، على الأرجح، للعالم. من الواضح أنه شيءٌ تستمتع به.

خفض حاجبيه قليلًا، وظننتُ أنه يفكر فيما قلته للتو، وكأن الفكرة لم تخطر بباله من قبل.

قال أخيرًا: «إنني أستمتع بقتل الناس بالفعل. بيدَ أنني لست مختلًّا عقليًّا. فأنا لا أهوى رؤية الدماء تتفجر من أجسادهم ولا أستمتع بصرخاتهم أو ما شابه. إنني فقط أحبها كلعبة. كصيدٍ ربما».

- ألا تعتقد أن الصيادين يستمتعون بعملية القتل؟

- الصيادون هم أناسٌ مرضى. إنهم يلعبون لعبةً سهلة للغاية. عندما أقتل شخصًا ما، فأنا مجبرٌ على فِعل ذلك بطريقة تضمنُ عدم القبض عليَّ. هل تعلمين مدى صعوبة ذلك؟

قلتُ، وأنا أستلقي مجددًا في الفراش: «أجل».

كنتُ متعبة بالفعل، لكنني فكرتُ أيضًا أنه من المنطقي أن أنسحب من المحادثة تدريجيًّا بينما لا يزال إيثان مهتمًّا.

- القتل صعب، لكنكِ تعرفين ذلك.

- هذا لا يجعله إنجازًا.

- ألم تكوني فخورة بما فعلتِه لذلك المنحرف عندما كنتِ في الرابعة عشر من عمرك؟

فكرت في الأمر، وقلت: «كنتُ سعيدة، لكنني لم أكن فخورة».

- لقد قمتِ بشيءٍ مميز.

- ليس حقًّا. لقد كانت جريمة قتل، وهذ ليس أمرًا مميزًا بشكل خاص، ولا نادرًا بشكلٍ خاص أيضًا. ليس في تاريخ جنسنا البشري. أو أيِّ جنسٍ آخر.

- إنه أمرٌ نادر عندما يُنفذ بإتقان.

- إن الإفلات بجريمة قتل لا يجعل الأمر مميزًا. علاوة على ذلك، من الواضح أنك تريد في النهاية أن يُلقى القبض عليك بطريقةٍ ما. ولهذا أعددتَ قائمتك.

- أعتقد أنها ستكون موضع اهتمام.

- أين وضعتها؟

لم يقل أيَّ شيء على الفور، وأدرت رأسي قليلًا، قائلة: «هل تعتقد أن هناك فرصةً لخروجي من هنا؟».

- ماذا تعنين؟

- لقد ترددتَ في إخباري بالمكان الذي أخفيتَ فيه قائمتك.

- لم أرغب في إخفائها في مكانٍ آمن جدًّا. لديَّ نسخةٌ مجوَّفة من كتابٍ في مكتبة مكتبي بمنزلي في فيلادلفيا. إنها هناك. كل اسمٍ، وتاريخٍ، ومكانٍ. وسوف يُعثر عليها.

- أي كتاب اخترت؟

- قصص جون تشيفر.

- أنت إذن كما الصياد، في نهاية المطاف. تسعى لتعليق رؤوس صيدِك على حائطك في النهاية. وتريد للعالم أن يعرف ما ارتكبتَ.

لم يقل أيَّ شيءٍ على الفور، فقلت: «ما من خطبٍ في ذلك».

- إنه نوعٌ من الفن، أليس كذلك؟

استندتُ إلى مرفقيَّ، وقلت: «القتل؟».

- بالتأكيد، ولم لا؟

- يبدو ذلك هذيانًا بعض الشيء، الفن يضيف شيئًا للعالم.

- وماذا عن كل الفن العظيم الذي يتناول الموت؟ أنا واثق من أنكِ معجبة بأرتيميسيا جينتيليزكي[1] Artemesia Gentileschi؟ لوحة «جوديث تذبح هولوفيرنز» (Judith Slaying Holofernes)؟

- لكن ذلك فنٌّ بالفعل، أمَّا ما تفعله أنت، وما فعلتُه أنا بشيت، فذلك مجرد ذبح حقًّا. الإفلات به لا يجعله فنًّا. ربما يجعلك ذكيًّا أو ماهرًا، لكن هذا كل ما في الأمر.

صمت إيثان، وتساءلتُ إن كنتُ قد تماديت، وإن كان سينهض ويأتي ليشقَّ حنجرتي. أغلقتُ عينيَّ وقبلتُ ذلك الاحتمال.

قال أخيرًا: «لا يمكننا التحكُّم في آراء الآخرين. أعتقد أنه عندما يعرف الناس ما فعلتُه ستكون هناك آراء متباينة حوله». وبدا مُذْعِنًا تقريبًا.

- لست متأكدة من أن الآراء ستكون متباينةً كما تعتقد، لكن لا عليك. أنت جيدٌ فيما تفعله، وتستمتع به أيضًا. أعتقد أن هذه هي وصفة السعادة كإنسان.

- أريد حقًّا أن أسمع المزيد عنكِ يا ليلي. المزيد عن الأشخاص الذين قتلتهم.

- أنا متعبة. سأخبرك لاحقًا.

---

(1) أرتيميسيا جينتيليزكي (8 يوليو 1593 - 1656) هي رسامة إيطالية تنتمي إلى المرحلة المبكرة في عصر الباروك، تُعتبر اليوم أكثر فناني الجيل المتأثر بكارافاجيو اكتمالًا. كانت أول امرأة تنضم إلى أكاديمية فن الرسم في فلورنسا، كما أنها واحدة من أوائل الرسامات اللائي رسمن موضوعاتٍ ذات توجهاتٍ دينية أو تاريخية. تخصصتْ في رسم صور النساء القويات وأصحاب المعاناة من الأساطير والقصص الرمزية والضحايا والمقتولين والمحاربين من الكتاب المقدس، ومن أشهر مواضيعها «سوزانا والآباء» (خصوصا نسخة عام 1610 في بوميرسفيلدن) و«جوديث تذبح هولوفيرنز» (نسختها بين عامي 1614-1620 موجودة في معرض أوفيزي)، واشتهرتُ بقدرتها على التصوير المقنع لجسد المرأة، من العُري التام إلى اللباس الكامل. واشتهرت أيضًا بمهارتها وموهبتها في التعامل مع الألوان بالتركيب العام وفي بناء العُمق.

- أنتِ تماطلين في الوقت. هل تعتقدين أن هناك من سينقذك؟ من الذي أخبرتِه عني؟

- لم أخبر أحدًا. لكن، نعم، أنا أماطل. فمن الواضح أنني أصبحت قضية شخصٍ مفقود في هذه المرحلة. ربما رآك شخصٌ ما تلاحقني في شيبوج. وربما رآك شخصٌ ما هنا وأنت تأخذني من صندوق السيارة وتحضرني إلى المنزل. لا أعرف. ربما أنت على وشك أن يُلقى القبض عليك على أي حال، بسبب شيء آخر فعلته. المماطلة هي خياري الوحيد.

- بالإضافة إلى ذلك، تريدين البقاء على قيد الحياة لأطول فترةٍ ممكنة.

- أفترض ذلك. سأبقى على قيد الحياة لأشهد وجبةً أخرى، على الأقل.

- ربما أستطيع القيام بما هو أفضل من شطيرة كرات اللحم.

ومن زاوية رؤيتي الجانبية رأيته ينهض ويسير مبتعدًا.

***

الفصل الثامن والعشرون

تتألف توهيكون، بحسب ما استطاع هنري أن يُدرك، من مكتب بريدٍ، ومدرسةٍ واحدة، ومكتبة واحدة، ومحطة بنزين صغيرة تضم متجرًا للبقالة، وجسر مُغطى واحد، وحانة واحدة بالقرب منه تُدعى حانة الجسر المغطى Covered Bridge Bar. قاد ببطءٍ على شوارعها وطرقها، مرورًا بالمنازل ذات المستويين، وببعض البيوت الفيكتورية القديمة بين الحين والآخر. وكانت السيارات المتوقفة أمام هذه المنازل أمريكية الصنع، وعمر معظمها بضعة أعوام. وتوقفتْ أمام العديد من المنازل عدَّة سيارات، بما في ذلك خردة قديمة على كتل خرسانية في الساحات الأمامية.

في الطريق من فيلادلفيا، أدرك هنري أنه كان يجب أن يسأل هذا في وقتٍ سابق، فاتصل بــكريس صلاح في المعرض.

- كريس، أنا تيد لوكوود مرة أخرى. هناك شيءٌ آخر كان يجب أن أسألك إياه. ما نوع السيارة التي يقودها تشارنوك؟

- أوه، إنها في غاية الجمال، سيارة جاجوار. كلاسيكية، على ما أعتقد. لها بابان. إنه يحب هذه السيارة أكثر ممَّا يحب زوجته.

- ما لونها؟

- لونها أخضر. أخضر مائل إلى الرمادي، أعتقد. أو رمادي مائل إلى الأخضر. إنها رياضية جدًّا.

لذا فبينما كان هنري يقود سيارته ببطء عبر طرق توهيكون الوعرة، وهو يتأمل المنازل والممرات، أخذ يبحث عن سيارات جاجوار ذات اللون الرمادي والأخضر، على الرغم من أن ما كان يراه هو الكثير من مرائب السيارات الفردية. لقد تخيَّل أنه إذا كان إيثان/روبرت يمتلك منزلًا في هذه البلدة، فربما يكون قد أخفى الجاجوار عن الأنظار.

قبل الظهيرة بقليل، أوقف هنري سيارته في مركز البلدة في مقابلة حانة الجسر المغطى، على أمل أن تكون مفتوحةً لتناول الغداء.

حدق إلى خريطة توهيكون التي فتحها على هاتفه، وفكر أنه قد سلك تقريبًا كل شارعٍ في البلدة. وقد تفاجأ، بطريقةٍ ما، أن أحدًا لم يلحظ وجوده ولم يبلغ الشرطة عنه، ولكن من ناحيةٍ أخرى، لقد كان يوم سبت باردًا رماديًّا، وبدت توهيكون وكأنها مدينة أشباح.

كان يؤجل الاتصال بوالدَي ليلي طوال الصباح، لكنه قرر أنه بحاجةٍ إلى القيام بذلك الآن. اتصل بالرقم الذي اتصلت منه شارون في الليلة السابقة، وبعد رنتين التقطت السماعة.

قال: «شارون، مرحبًا، أنا هنري كيمبل، هل هناك أيُّ أخبار؟».

- لقد اختفت، هنري. فتشَت الشرطة الغابة وكل مكانٍ ولم تعثر على أيِّ أثر لها. ديفيد منهارٌ تمامًا. لا أستطيع تصور أين ذهبتْ دون أن تخبرنا أولًا.

- إذن، هل ساعدتكم الشرطة؟

- حسنًا، لم يعثروا عليها، لكنهم يبحثون عنها. ألم تتواصل معك؟

- لم تفعل.

قالت: «حسنًا»، وتنهدت، ثم أردفت: «سأخبر الشرطة بذلك. لقد سألوا عمَّا إذا كان لديها حبيب، وأخبرتهم عنك».

قال: «آه»، وأوشك أن يضيف أنه ليس حبيبها، بيدَ أنه اعتقد أن الأمر لا يهم: «سأتصل بكِ إذا سمعتَ أي شيءٍ عنها، وستفعلين الشيء نفسه؟».

- سأفعل.

بعد المكالمة، جلس هنري في السيارة. شعر بأن عظامَه فارغة، وكأنها قد علمت سلفًا بوفاة ليلي. بقي في السيارة، لم يكن جائعًا بشكلٍ خاص، ولكنه يراقب الحانة المقابلة للشارع. نفدت خياراته وقرر أن الوقت قد حان لاستجواب السكان. في الظهيرة، رأى شخصًا يتحرك أمام الباب الزجاجي، يقلب لافتةً للإعلان عن فتح المحل أبوابه لاستقبال الزبائن.

كان المكان في الداخل أكثر بهجة ممَّا اعتقد. جدران مكسوة بألواح خشبية، بارٌ على شكل حدوة حصان، وعدة مقصورات ذات ظهورٍ عالية ومقاعدَ مُبطنة. اتخذ مقعده عند البار. فوق الزجاجات كانت هناك لوحة باهتة لجسر توهيكون المغطى. نظر حوله ورأى أن الجسور المغطاة، ولوحاتها على الأقل، وبعض النسخ عنها، كانت هي فكرةُ التصميم الأساسية. سألته امرأةٌ مُسنَّة ذات شعرٍ رماديٍّ قصير عمَّا يود أن يشربه.

- هل لديكِ قهوة طازجة؟

- لا توجد حاليًا يا عزيزي، ولكن إذا كنت على استعدادٍ للانتظار لِعشر دقائق، سأُعِدُّ لك بعضًا.

قال إنه موافق، واختفت عبر الباب الدوار. وبينما كانت غائبة، فُتح الباب الأمامي ودخل رجلٌ وحيد. كان ضخمًا وله وجهٌ شديد الاحمرار، وجلس على بُعد ثلاثة مقاعد من هنري، مُصدرًا أصواتًا لاهثة وهو يستقر

على مقعده. عندما عادت النادلة، رأته وتوجهت مباشرة إلى الثلاجة أسفل البار وأمسكت بزجاجة كورز لايت.

قالت، وهي تنزع غطاء الزجاجة وتضعها أمامه: «كيف حالك، نورمان؟».

- لا يزال الجو يبدو شتويًّا بالخارج. كنت أظن أن أحدهم ذكر شيئًا عن الربيع.

تناول رشفةً من جعته، وقالت له النادلة: «لقد أعدَّ خوان حساء الفلفل الحار هذا الصباح إن كنتَ مهتمًّا، ربما يُدفئك ذلك».

وضعت كأسًا صغيرة على البار بجانب زجاجة كورز لايت، وأضافت إليه جرعة من ويسكي جيمسون.

قال نورمان: «أوه، شكرًا لك، مو».

اختفت مو خلف الأبواب الدوارة مرة أخرى ثم عادت بكوب قهوة هنري، ووضعته أمامه. قال: «أنتِ المنقذة»، ثم سأل إن كان يستطيع الحصول على جرعة من جيمسون أيضًا.

قالت مو بعد أن سكبت له جرعته: «هل تحتاج إلى قائمة الطعام؟».

- بالتأكيد، سألقي نظرة.

نظر هنري إلى القائمة وطلب حساء الفلفل الحار. عندما أحضرته مو بعد خمس دقائق، كان جاهزًا بهاتفه الخلوي، وهو يعرض صورة إيثان سالتز.

قال لها: «إنني في الواقع في البلدة لأبحث عن شخصٍ ما. كنت أتمنى أن تتمكني من المساعدة».

قالت: «بالتأكيد»، ومدَّ لها يده بالهاتف. انحنت نحوه عن قُرب، وهي تحدق بعينيها.

- أجل، أعرفه. إنه يأتي إلى هنا أحيانًا. لكنني لا أعرف أيَّ شيء عنه.

قال هنري، متعجبًا من الهدوء الذي بدا عليه صوته: «متى رأيتِه آخر مرة؟».

عبست مو، وتغضَّنت ذقنها قائلة: «لا أعرف بالضبط، لكن ليس مؤخرًا. كما قلت، ليس الأمر أنني أعرفه، لكن وجهه مألوف. إنه يأتي إلى هنا. جرِّب نورمان»، قالت ذلك وهي تنظر إلى الرجل الذي يبعد عنها بثلاثة مقاعد.

كان نورمان يُصغي إلى المُحادثة بالفعل، وعندما التفت إليه هنري، مدَّ يده للهاتف. فسلمه إياه هنري.

قال نورمان: «همم. أعتقد أنه قال لي إن اسمه براد شيء ما. رجل لطيف. إلا أنه لم يأتِ إلى هنا مؤخرًا. كما قالت مو». أعاد الهاتف، ومدَّ ذراعه ببطءٍ شديد كما لو كانت تؤلمه عند تحريكها.

قال هنري: «هل يمكنني أن أطرح عليكَ بعض الأسئلة؟»، ودفع حساء الفلفل الحار والقهوة خاصته جانبًا وغيَّر المقعد ليقترب منه.

قال نورمان: «بالتأكيد. لكن هل يمكنني أن أسألك لماذا تسأل؟».

- الأمر مُعقد، بالإضافة إلى كونه مثيرًا للضجر بعض الشيء. أنا محققٌ خاص ومن المحتمل أن يكون الرجل الموجود في الصورة، ذلك المدعو براد، متورطًا في مُخطط مالي. أعني بمتورط، أنه على ما يبدو الضحية وليس الفاعل. يرغب موكلي في أن أعثر عليه، واتضح أن الأمر أصعب ممَّا اعتقدتُ.

- حسنًا، لقد قطعت كل هذه المسافة. يجب أن يكون لديه عنوان هنا في توهيكون.

- كل ما يعرفه موكلي هو أنه يعيش هنا، ولكن لا، ليس لديَّ عنوان، ولم يحالفني الحظ مع السجلات العقارية في تحديد موقعه. ألم تعرف اسم عائلته قط؟

- لقد قدَّم نفسه على أنه براد. من الواضح أن هذا ليس الاسم الذي لديك، وإلا لما كنت تستجوبني بشأنه.

ارتشف هنري قهوته، التي أصبحت الآن ممزوجة بالويسكي الأيرلندي، وقال: «لديَّ معلومات محدودة، هذا أمرٌ مؤكد. أنت أول خيط أحصل عليه».

- أخشى أنني لن أفيدك كثيرًا. لقد أتى إلى هنا لتناول الغداء من قبل، تمامًا كما تفعل الآن. وجلس عند البار وتحدثنا معًا، مرة أخرى، تمامًا كما نفعل أنت وأنا الآن، والسبب الوحيد الذي جعلني أتذكر أن اسمه براد هو أنه أخبرني به وأذكر أنني فكرت في أنه يشبه براد بيت قليلًا، كما تعرف، فكٌّ قوي، وعينان زرقاوان. لذلك ظلَّ الاسم عالقًا في ذهني.

- هل أخبركَ بأي شيءٍ عن عمله أو مكان إقامته هنا في البلدة؟

وبينما يفكر الرجل، أخذ يحرك أصابعه على سطح البار كما لو كان يعزف على البيانو، ثم قال: «قال إنه جامع أعمالٍ فنية وأخبرني أنه يملك عقارًا هنا في المدينة، لكن الطريقة التي قالها بها جعلت الأمر يبدو كما لو أنه لا يعيش هنا بالفعل».

قال هنري: «حسنًا. لقد كنتَ لي عونًا كبيرًا».

- ما اسمكَ مجددًا؟

- تيد لوكوود. دعني أجلب لك بطاقة.

أخرج بطاقةً أخرى من بطاقات المحقق الخاص المزيفة الخاصة به. كانت آخر واحدةٍ لديه.

- وأنا نورمان هارت.

قال هنري، وهو يجذب انتباه مو: «دعني أشتري لك مشروبًا، نورمان».

نزعت مو غطاء زجاجة جعة أخرى وسكبتْ جرعةً صغيرة أخرى من الويسكي.

قال هنري: «لو كنتَ مكاني، نورمان، أين ستبحث عن منزل هذا الرجل هنا في توهيكون؟».

- أفترض أنه يمكنك ببساطة أن تطرق كل باب. يوجد ما يقرب من ثلاثمئة منزل فقط في هذه البلدة بأكملها. ولكن إذا كنت لا تريد القيام بذلك، أعتقد أنه يمكنك البحث عن سيارةٍ فاخرة أمام أحد المنازل.

- هل يقود براد سيارةً فاخرة؟

- نعم، آسف لأنني لم أذكر ذلك من قبل. رأيتها مرةً واحدة متوقفة أمام هذه الحانة. جاجوار XJ وإذا كانت ذاكرتي صحيحة، فإنها طراز عام 1976. كانت جميلةً للغاية. لقد أخبرني أنه لا يُخرِجها إلا في المناسبات الخاصة.

- على الأرجح لن تكون بالخارج أمام منزله.

- ربما في المرأب.

- ربما، أو أسفل غطاء.

- صحيح.

أخذ نورمان رشفةً صغيرة من الويسكي خاصته، ثم رشفة صغيرة من جعته، ثم استأذن. وانزلق عن مقعده برشاقة، مثل شخصٍ تدرب على ذلك كثيرًا. دار عقل هنري، متحمسًا لتأكيد أن سالتز يعيش بالفعل في هذه البلدة، على الأقل جزءًا من الوقت، لكنه كان يفكر أيضًا فيما قاله نورمان للتو عن حماية السيارة بغطاء. لقد رأى الكثير من السيارات المختلفة متوقفة خارج المنازل خلال قيادته هذا الصباح، لكنه شعر وكأنه رأى بعض السيارات مغطاة. أغلقَ عينيه واسترجع رحلة القيادة في ذهنه، محاولًا إسكات أغنية ستيلي دان Steely Dan التي تعزف عبر مكبرات الصوت. وفجأةً تذكر إحدى السيارات المغطاة، أمام منزلٍ متواضع مسقوف بألواح خشبية في نهاية طريقٍ هادئ. كانت أمامه سيارتان، إحداهما مغطاة بغطاء بلاستيكي أسود. ولسببٍ ما، ظن فحسب أنها مشروع شخصٍ ما، ربما منزل قيد الترميم يقبع دون أن يحرك ساكنًا طوال أشهر الشتاء، ولكن ماذا لو كانت الجاجوار؟

***

الفصل التاسع والعشرون

قاد إيثان سيارته الجاجوار إلى فيلادلفيا، ولم يكن يخطط لرؤية ريبيكا بعد، ولكنه أراد أن يتفقد المعرض وكريس. كانت هناك بعض الأشياء المُحددة التي عليه القيام بها في مكتبه – مكالمة متأخرة لفنانٍ لم يعد يمثله، وعدد من رسائل البريد الإلكتروني التي لم يرد عليها- ولكنه في الغالب كان بحاجة إلى لحظة من الهدوء. لقد مثَّل اختطاف ليلي كينتنر واحتجازها في منزله بتوهيكون انتصارًا ساحقًا. لكن هذا الانتصار جاء محفوفًا بالمخاطر. كان عليه أن يفكر مليًّا في خطواته التالية.

كان كريس في المكتب عندما دخل، وظن إيثان أنه يشاهد حتمًا أفلامًا إباحية أو شيئًا من هذا القبيل على حاسوبه، لأنه قفز فجأةً عندما ألقى إيثان عليه التحية.

- هل كلُّ شيء على ما يرام يا كريس؟

- أجل، أجل. لم أكن أتوقع رؤيتك فحسب، لقد أثرت هلعي.

- لن أمكث هنا طويلًا، لكنني سأنهي الأمر مع دينيس ماكسويل أخيرًا.

- أوه، حمدًا للرب لقد اضطررتُ إلى الحديث معه مرتَين صباح اليوم بالفعل.

- سأتصل به لأخبره أننا لن نستمر معه. ما الذي يجري هنا أيضًا؟

رفع كريس عينيه إلى السقف في حركة غريبة وكأنه يفكر، ثم أخبره أخيرًا بمدى الهدوء الذي ساد المكان. كان يكذب بالطبع، وظل إيثان يحدق إليه لفترة أطول قليلًا من المعتاد، فقط لجعله يشعر بعدم الراحة، متسائلًا بالضبط عمَّا يخفيه. ربما كان أمرًا تافهًا؛ لقد علم إيثان على سبيل المثال أن كريس يواعد إحدى صانعي الإطارات، وهي امرأةٌ متزوجة تأتي من ديلاوير كل بضعة أسابيع، وأن لقاءاتهما تتم هنا في المعرض. لكن ربما كان هناك شيءٌ آخر.

قال إيثان: «هل جاء أحدهم يبحثُ عني؟».

مرة أخرى، تظاهر كريس بالتفكير، ثم قال إنه لا يعتقد ذلك. لقد كان كاذبًا فظيعًا حقًّا.

قال إيثان: «حسنًا، لا بأس. هل تمانع بمغادرة المكتب في أثناء اتصالي بماكسويل؟».

بعد أن غادر كريس وأغلق الباب خلفه، جلس إيثان إلى مكتبه وأخذ يفكر لبرهة. كان يعلم أن ليلي تبذل قصارى جهدها لتأجيل المحتوم. لقد افترض أنها غريزة طبيعيَّة بحتة، الرغبة في البقاء على قيد الحياة لأطول فترةٍ ممكنة، والأمل في أن يتمكن شخصٌ ما من معرفة مكانها إذا مرَّ وقت كافٍ. لكن هناك احتمالًا آخر. هل كان لديها شريك، شخص ساعدها في معرفة أنه مسؤول عن جرائم قتل آلان بيرالتا؟ كان هذا احتمال بالطبع. ولكن ماذا في ذلك؟ حتى لو كان هذا الشخص الآخر يعرف اسم إيثان سالتز، فمن المستحيل أن يكون إيثان سالتز مرتبطًا بروبرت تشارنوك أو براد أندرسون. ومع ذلك، تساءل. كان يعلم أنه حذِر، لكن حتى أكثر الناس حذرًا يرتكبون الأخطاء. ولم يكن الأمر كما لو أنه غيَّر مظهره أو أي شيء من هذا القبيل. فقد كانت هناك بعض

الصور تطفو على الإنترنت لإيثان سالتز، على الرغم من أنه تأكد من أن روبرت تشارنوك لم يكن -أو بالكاد- قد تصوَّر في الأماكن العامة.

نهض من كرسيه من طراز هيرمان ميلر وغادر المكتب. كان هناك مطبخ صغير في نهاية الردهة، وهناك وجد كريس يعد الشاي الخاص به.

قال إيثان: «مرحى، كريس. سأعيد عليك السؤال: هل جاء أحدهم إلى هنا ليبحث عني؟».

ارتخى فكُّ كريس للأسفل قليلًا، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول، «أوه، يا إلهي، روبرت. أنا آسف جدًّا. قال لي ألَّا أخبرك».

- من قال لك هذا؟

- لقد كان هذا الرجل، هذا المحقق الخاص. لقد جاء وأخبرني أنكَ جزءٌ من عملية احتيالٍ مالية أو شيءٌ من هذا القبيل. لم أخبره بشيء. أقصد، ليس هناك ما أخبره به، أليس كذلك؟ وبدا من الممكن تمامًا أنه قد اختلط عليه الأمر منذ البداية، لأنه ظل يذكر اسم شخصٍ آخر.

- أي اسم آخر؟

- امم، لقد كان إيفان سالتز. كلَّا، هذا ليس صحيحًا. إيثان سالتز.

قال إيثان وهو يحاول كبح جماح غضبه: «لدينا عميلٌ اسمه إيفان سالتزمان. هل كان هذا هو من يبحث عنه؟».

- كلَّا، كلَّا. كان الاسم مختلفًا.

- لكنك لم تخبره بأي شيء، أليس كذلك؟

- لا، بالطبع لا، روبرت. لا شيء مهم على أي حال. أقصد، قلت إن اسم إيثان سالتز يبدو مألوفًا لأن لدينا عميلٌ باسم مشابه، لكنني بالطبع لم أعطه أي معلومات. لستُ أحمق روبرت.

- وماذا سأل بخلاف ذلك؟

- هذا كل شيء. لم يكن بالأمر المهم حقًّا، لكنه قال إنكَ في ورطة. ورطةٌ مالية.

أخذ إيثان نفسًا عميقًا، وقال: «هل أعطاك اسمه؟».

- أجل، أجل.

أقحم كريس يده في جيب بنطاله الأمامي وأخرج بطاقة، سلمها إليه. قرأها إيثان: **تيد لوكوود، محققٌ خاص.** ثم رقم هاتف وبريد إلكتروني. لا عنوان بريدي.

- كيف كان يبدو؟

- لا أعرف. رجل أبيض عادي. نحيف. له شعر أشعث. بدا وكأنه لم ينمْ منذ يومين.

- ماذا كان يرتدي؟

- بنطال ليفيز عادي، على ما أعتقد. قميص أكسفورد أزرق فاتح وسترة من هاريس تويد على الأرجح.

- حسنًا كريس إذا اكتشفتُ أنك تخفي شيئًا عني...

همس كريس: «أنا لست كذلك روبرت، أقسم لك. لقد أخافني رغم ذلك. أعني، هل نحن في ورطة؟ هل يجب أن أشعر بالقلق».

- لا، لا تقلق. أعتقد أنني أعرف من هو هذا الرجل، إنه مجرد آفة. لا داعٍ للقلق.

تخيل إيثان أنه يتقدم خطوتين عبر الأرضية المشمعة ويلوي رأس كريس صلاح بحيث تواجه الاتجاه المعاكس، لكنه قال لنفسه بعد ذلك أنه سيكون هناك وقتٌ للتعامل مع صلاح لاحقًا. أما الآن فعليه العودة

إلى توهيكون. وقبل أن يغادر، طلب من كريس أخذ باقي اليوم عطلة وعدم التحدث إلى مزيدٍ من الأشخاص بشأن أعمال المعرض.

واجه ازدحامًا مروريًّا وهو يغادر فيلادلفيا وحاول كبح غضبه. لقد كان أحمقًا ليبقي ليلي على قيد الحياة طوال تلك الفترة، والآن هناك شخصٌ آخر ليقلق بشأنه. توقفت شاحنة متحركة أمامه بمجرد أن أصبح على وشك اللحاق بنهاية الإشارة الخضراء، فراح إيثان يعوي في سيارته. لاح وجه مارثا راتليف في ذهنه. بطريقةٍ ما، كانت هي الملومة على تلك الفوضى اللعينة التي حاقت به الآن، وكذلك ليلي كينتنر. لكنه سيكون قادرًا على الاهتمام بأمرها قريبًا. لو أنه فقط يستطيع تجاوز هذه الإشارة اللعينة.

بعد ساعة، أوقف سيارته أمام منزل توهيكون. لم يكن الغسق قد حلَّ بعد، لكن السماء بدت وكأنها كذلك، إذ حجبت السُّحب الداكنة شمس الأصيل. ولسببٍ ما، لم يكتشف تمامًا بعد كيف سيقتل ليلي كينتنر بالضبط. أسهل طريقة هي أن يصيبها بسهمٍ مهدئ مرة أخرى، ومن ثم يمكنه ببساطة أن يخنقها بالوسادة. كان يعلم تمامًا ما يعتزم فعله بجسدها. فرغم أن المنزل يضم قبوًا مُجهزًا، فإن أحد أقسامه كانت أرضيته ترابية، وبه مستودع مُؤَن تحجبه الجدران يفضي إليه بابٌ في نهاية القبو. ولم يكن يتجاوز عشرة أقدام في عشرة أقدام، تصطف على جدرانه رفوف شَاغِرة. وكان قد حفر قبرًا بالفعل، مدركًا أنه قد يحتاج إليه يومًا ما.

جلس إيثان في سيارته لفترة أطول، يتساءل عن سبب انتظاره كل هذا الوقت لقتل ليلي. لم يكن مشمئزًّا ممَّا فعله، لكن الحقيقة هي أنه أراد قضاء المزيد من الوقت معها، التحدث معها أكثر عن إزهاق الأرواح، عن الفضيلة. لم يسبق له أن التقى أيَّ شخص مثلها. حتى لو كانت تكذب عليه بشأن ماضيها، فإنه لم يلتقِ قط بأحد مستعدٍ للكذب بشأن مثل

هذه الأمور. وللحظة واحدة شعر إيثان بأنه يعرف كيف يكون الوقوع في حب أحدهم. ليس أنه كان واقعًا في حب ليلي. لكنه عرف ما هو الشعور، ذلك التوق لرؤية من يحب مرةً أخرى، لسماع صوته. والرغبة في إطالة الوقت الذي يقضيه معه.

لقد كان هذا بمنزلة لمحة مفاجئة، وغير سارة عن الحياة الطبيعية. أهكذا يعيش الناس؟ ينتظرون من الآخرين أن يمدوهم بالمشاعر؟ انفجر ضاحكًا في سيارته، فأجفله الصوت تقريبًا. هل فقد عقله مؤقتًا؟

تبًّا لهذا!، هكذا هتف في قرارة نفسه، واتخذ قرارًا بإزهاق روح ليلي كينتنر بيديه. كان حجمه ضعف حجمها، وكانت مقيدة بالأغلال إلى الأرض. سيكون من الجيد أن يقبض على حنجرتها الطويلة النحيلة ويعتصر الحياة منها.

توجه نحو الجزء الخلفي من المنزل واستعاد المفتاح الذي خبأه تحت إحدى تلك الصخور الصناعية. دلف إلى المنزل، وشعر على الفور أن هنالك خطبًا ما. كان الهواء ساكنًا جدًّا. ومع ذلك، لم يكن يعني شيئًا؛ لقد انتابه هذا النوع من الشعور من قبل. لكن عندما فتح الباب المؤدي إلى الدَّرج المغطى بالسجاد إلى القبو، استمر الشعور، كان المنزل هادئًا، كما لو أنه يخلو من الحياة. هبط الدَّرج، وهو يضغط على المفتاح الذي يضيء الأضواء الفلورية بالسقف. وما إن بلغ أسفل الدَّرج حتى تأكد من حدسه. كانت ليلي لا تزال على السرير، ملفوفة بأغطيتها، وقد سكن جسدها تمامًا. ومال رأسها بزاويةٍ غير طبيعية، وتدلى فمها مفتوحًا. تقدم نحوها خطوات قليلة، فإذا به يرى دمًا يتسرب على طول عنقها. متجمعًا في بركةٍ تحت رأسها.

***

الفصل الثلاثون

بعد أن أحضر لي إيثان سالتز الغداء، ثم تحدث مطولًا عن إنجازاته، كان كل ما أردت فعله هو النوم. بَيد أنه تركني بمفردي مرة أخرى، وأدركت أنني بحاجة على الأقل لاستكشاف كل احتمالات الهروب، مهما كانت ضئيلة. وبدأتُ بالسرير الذي كنت مستلقية عليه. كان الإطار معدنيًّا، والحشية متعفنة محشوَّة، ليس بها نوابض ولا أشياء من هذا القبيل. زحفت حتى حافة الفراش ووقفت. كنت لا أزال مرتديةً الثياب نفسها التي كنت أرتديها عندما دخلت مركز بلدة شيبوج قبل قرنٍ من الزمان. وكان حذائي لا يزال في قدمي.

خطوت في كل الاتجاهات لأرى إلى أيٍّ مدى يمكنني الوصول. كانت هناك مطبوعة مُؤطَّرة على الحائط بعيدة عن متناول يديَّ. عبارة عن رسم من فن البوب لامرأة عارية الصدر ذات شعر أسود قصير ومن خلفها يزحف فهدٌ أسود. وبالكاد استطعتُ لمس حافة إطارها الأبيض برأس إصبعي تقريبًا. لا يعني ذلك أن الوصول إلى الصورة سيكون مفيدًا. أستطيع إلقاءها على سالتز لدى عودته، ولكن حتى لو تمكنت من إسقاطه أو إيذائه، فما الذي سيعود عليَّ من ذلك؟

ما سوف يفيدني هو المسمار الذي كان على الأرجح يثبت اللوحة. فحصتُ الجزء الذي أستطيع الوصول إليه من الجدار. كان مطليًّا بطلاءٍ بنيٍّ غامق، ومليئًا بالبقع هنا وهناك حيث استخدم المعجون لسدِّ الثقوب. فحصت

السطح بيديَّ، متسائلةً إذا كانت هناك نقاط ضعف يمكنني من خلالها ثقب اللوح الجصي. لكنني تساءلت مجددًا، ما الذي سيعود عليَّ من ذلك؟

لكن يديَّ استشعرت بالفعل نتوءًا طفيفًا على الحائط. لمسته بإصبعي وأدركت أنه رأس مسمار، مدفون في الحائط، وقد وضع طلاء فوقه. كشطت الطلاء حتى استطعت الكشف عن أحد أطرافه، وتمكنت من تمرير ظفر إصبعي تحته. شددتُ رأس المسمار بقوة فانشق ظفري. هززت يدي فتناثرت بقعٌ صغيرة من الدماء عليَّ وعلى الحائط. وضعت إصبعي في فمي وبدأت أفتش جيبي باليد الأخرى. كنت أرتدي الجينز وكان هناك جيب صغير داخل الجيب الأكبر على الجانب الأيمن الأمامي. وبداخله وجدتُ عملةً معدنية من فئة العشرة سنتات.

استغرقت دقيقة تقريبًا، لكنني استطعت في النهاية انتزاع المسمار الطويل الرفيع من الحائط باستخدام العملة المعدنية. كان طوله تقريبًا بوصة ونصف، ولم يكن طرفه حادًّا للغاية، ولكنه لم يكن صدِئًا أيضًا. استلقيت على الفراش مجددًا، لم أعد أشعر بالنعاس، وبدأ عقلي يشكل خطة. أخذت أنفاسًا عميقة بينما رحت أجرب سبلًا مختلفة للإمساك بالمسمار. وضعتُه بين سبابتي والوسطى وأطبقت قبضتي. حاولتُ الإمساك برأسه مستخدمةً إبهامي، ثم وَجَّهتُ طعنة إلى فخذي، لأرى مدى قدرة المسمار على الاختراق. حصلت على بعض النتائج، لكنها لم تكن مرضية، لذا استخدمت المسمار لتمزيق شريطةٍ من ملاءة السرير، وعقدت الشريط حول أصابعي، وشدته بإحكام بحيث يربط القماش أصابعي ببعضها بعضًا كما تفعل المفاصل النحاسية. ثم مررت رأس المسمار بين أصابعي، وكوَّنت قبضة وضبطت المسمار بحيث يثبته القماش المشدود في مكانه. وَجَّهتُ طعنةً أخرى إلى فخذي، وصنع القماش نقطة التحول، إذ اخترق طرف المسمار الجينز ووخز جلدي. مددت يدي إلى أسفل وشعرت بالدماء تتسرب ببطء إلى قماش الجينز.

أصبح لديَّ سلاحي. والآن أحتاج إلى طريقة لأضمن اقتراب سالتز بما يكفي مني حتى تتاح لي فرصة استخدامه.

نظرتُ إلى إصبعي الذي لا يزال ينزف ببطء، ثم مررتُ به على عنقي، تاركة على الأرجح خطًّا صغيرًا فقط. ولكن إذا كنت سأجعل سالتز يقترب مني بدرجةٍ كافية ليكتشف ما إذا كنت لا أزال على قيد الحياة، فسأحتاج إلى المزيد من الدماء.

فكرت أن أثقب ببساطة جرحًا صغيرًا قرب شرياني السباتي. إذا فعلت ذلك بشكل صحيح، فسوف ينتج ما يكفي من الدماء لجعل الأمر يبدو كما لو أنني شققت حنجرتي وأرقدُ على الفراش جثة هامدة. وإذا فعلته على نحوٍ خاطئ، فسأرقد بالفعل جثة هامدة على الفراش. فكرتُ في جرح ساعدي، ومحاولة إصابة أحد الشرايين، لكن حتى لو أدى ذلك إلى إسالة ما يكفي من الدماء، فإن ما أردت فعله حقًّا هو تغطية عنقي بالكامل بتلك الدماء. أردت أن ينحني سالتز فوقي مباشرة، وأن ينظر إلى عينيَّ. أردت فرصة لأصيبه في شريانه السباتي.

ثم فكرتُ في أذني. تذكرت بشكل ضبابي حفلةً في عامي الأول في كليَّة ماذر عندما ثملت إحدى زميلاتي الثلاث في السكن –أعتقد أنها كانت النسخة القوطية من وينونا رايدر- وحاولت أن تثقب أذنها باستخدام إحدى شفرات سكين جيش سويسري. كانت قد بدأت تنزف ولم يتوقف النزيف، لذلك كادت إحدى زميلاتي في السكن الأخريات، تلك التي تشبه نسخةً أنيقة من وينونا رايدر –من الغريب أن جميع زميلاتي في السكن يشبهن وينونا رايدر- أن تستدعي سيارة إسعاف بعد أن غطى الدم عدة مناشف ورقية بالكامل. أخيرًا، ألصقنا سدادة قطنية حول أذن زميلتي في السكن، وتوقف النزيف في النهاية. ما تعلمته من تلك الحفلة الفظيعة هو أن الأذن تنزف كثيرًا. لم أكن أعرف إذا كانت

هذه حقيقة عالميَّة، أو أنها تنطبق فقط على وينونا رايدر القوطية، ولكن حان الوقت لمعرفة ذلك.

جذبتُ شحمة أذني اليسرى بيدي اليسرى. لم يسبق لي أن ثقبتُ أذني، لأنني لست من محبِّي المجوهرات. دفعتُ طرف المسمار في شحمة أذني بقوة، حتى اخترق الجلد وآلمني إصبعي الذي كان يدعم الشحمة من الخلف. تساقطت بعض الدماء، فوجهتُ جسدي بالكامل إلى اليمين حتى تسيل على جانب عنقي. كنت بحاجة إلى أن تكون الدماء مرئية وتمنيت أن يبدو الأمر وكأنني تمكنت بطريقةٍ ما من شقِّ حنجرتي. شعرت بالدماء تنساب عبر جلدي، لكن لم يكن هناك الكثير منها، وتوقفت قبل أن تصل إلى تجويف حنجرتي. أمسكت أذني مرة أخرى بيدي اليسرى، وهذه المرة بعد أن ثقبت الجلد بالمسمار مزقت أذني. كان الأمر مؤلمًا، ووخزت الدموع عينيَّ، لكنني شعرت بالدم يتدفق بغزارةٍ أكبر، وعندما أدرت رأسي تدحرج على عنقي وبدأ يقطر على الملاءة تحت رأسي. بعد ما يقرب من دقيقة تباطأت الدماء، فمددت يدي وجذبت أذني للأسفل حتى ينفتح الجرح أكثر. أخذت أذني تنبض، لكن الشعور بالدماء الدافئة وهي ترسم خطًّا تحت فكي وتنساب على عنقي كان مُرضيًا على نحوٍ غريب. لقد جعلتُ شيئًا يحدث.

عندما تجلط الجرح، لعقت أصابعي ونظفت الدماء من أذني. أردت أن أبدو وكأنني أصبتُ بجرحٍ مميت، لا أن أبدو وكأنني ثقبت أذني عمدًا. استلقيت على ظهري، مديرة رأسي قليلًا نحو درج السلم، وغطيتُ يدي اليمنى، التي بها المسمار، نصفها أسفل جزءٍ من الملاءة. ثم انتظرت.

شعرت بأن ساعتين قد انقضيتا، لكن في النهاية سمعت صرير خُطى فوقي. أخذت عدَّة أنفاس عميقة، ثم أصغيت إلى صوت باب القبو وهو ينفتح، وإلى الخطوات نفسها وهي تهبط الآن على الدَّرج، والضوء الأبيض يغزو القبو. بعد أن رمشت عدة مرات، تركت فكي السفلي يتدلى

مفتوحًا، ثم حدقتُ شاخصةً إلى السقف المعلق فوقي. أردت أن أبدو ميتة. وقد نجحت، إذ سمعت شَهْقة سالتز، ثم اندفاعه عبر الأرضية المكسوة بالسجاد للوصول إليَّ. لقد فعل بالضبط ما أردته منه، انحنى فوقي، يفحصني بحثًا عن أي علامات للحياة.

لوحتُ بقبضتي وضربته في الصدغ. رجع للخلف وضرب بيده على الجرح النازف. كانت هناك ابتسامة خفيفة على وجهه، كما لو كان مسرورًا بأنني كنت أقاوم. ضربتُه مرة أخرى، وكانت الضربة مثاليَّة هذه المرة، حيث لكمته أسفل فكه المربع. عندما سحبت يدي بعيدًا، اندفع تيارٌ صغير من الدم من الجرح. غادرت الابتسامة وجه إيثان سالتز. اعتقدت أنه سيحاول إيقاف النزيف على الفور، لكنه بدلًا من ذلك أطبق يديه على حنجرتي وبدأ يعتصرها. قال: «أيتها العاهرة اللعينة»، بينما كنت أشاهد الدماء تتدفَّق بغزارة من عنقه أسفل ياقة قميصه. لا أعتقد أنه أدرك على الفور أنني قد ثقبت شريانًا، وبمجرد أن سحب يده بعيدًا عن حنجرتي وأمسك بالجرح، كان الأوان قد فات. شحب وجهه، وسقط للخلف في وضعية الجلوس، وهو يمسك كتفي بيدٍ واحدة ليظل منتصبًا.

قلت بصوت أجش: «ستموت، إيثان».

تدفقت الدَّماء بغزارة عبر أصابعه، فأطلق سراحي وسقط أرضًا، وارتطم رأسه بها بقوة. جلست على الفراش ونظرنا إلى بعضنا بعضًا. كنت قد فكرتُ بالفعل في هذه اللحظة، وفكرت في الحصول على فرصة لأقول له شيئًا، لذلك قلته الآن: «عندما أخرج من هنا يا إيثان، سأذهب إلى منزلك وأبحث عن قائمة جرائم القتل الخاصة بك وسأحرقها. لن يعرف أحدٌ ما فعلتَه. لا أحد».

من يدري إذا كان قد سمعني أو فهم ما كنت أقوله، لكنني أحب أن أعتقدَ أنه فعل ذلك.

***

الفصل الحادي والثلاثون

قبل الغسق مباشرة، قاد هنري سيارته بالبلدة مرةً أخرى. لم يتلقَّ أيَّ اتصال من والدة ليلي، ممَّا يعني أنهم لم يعثروا عليها بعد، وحتى لو كانت على قيد الحياة بطريقةٍ أو بأخرى، لم يكن يعتقد أنها ستنجو ليلةً أخرى مع إيثان سالتز أو روبرت تشارنوك، أيًّا كان الاسم الذي يستخدمه.

ومع ذلك، أخذ يقود سيارته. لم يكن هناك حقًّا أيُّ خيار في هذا الشأن.

في وقتٍ سابق، بعد مغادرة حانة الجسر المُغطى، وجد المنزل حيث اعتقد أنه رأى السيارة تحت الغطاء، ولكن ربما كان تذكره خاطئًا، لأنه لم يكن هناك سوى سيارة كيا متوقفة في الخارج. حسنًا، إما أنه كان مخطئًا أو أن أحدهم يستخدم السيارة الأخرى. بدأ الظلام يخيم على المكان، لذا قرر أن يلقي نظرةً أخيرة على ذلك المنزل بالتحديد، مبطئًا سرعته وهو يسير على طول الشارع أمام العقار. لم تكن هناك مصابيح في الشوارع، ولكن كان هناك ما يكفي من الضوء المتبقي في السماء ليرى هنري أن هناك الآن سيارتين أمام المنزل. أوقف السيارة وأطفأ المحرك، ثم أخرج مسدسه عيار 38 من دُرج السيارة. خرج من السيارة ودسَّ المسدس في جيب سترته. عندما وصل إلى الممر رأى أن إحدى السيارات كانت بالتأكيد سيارة جاجوار كلاسيكية. أخرج المسدس، وأمر

نفسه بالهدوء، ثم توجه إلى الباب الأمامي ليحاول فتحه. كان خائفًا، لكن خوفه يتعلق بمصير ليلي أكثر من وجود سالتز. وجد الباب مقفلًا.

فكر في قرع الجرس أو الطرق، لكنه قرر أن يفحص الجزء الخلفي من المنزل أولًا. دار حول المرأب، وخطا على بعض حجارة الرصيف المتداعية. أضاء ضوء مستشعر الحركة وبدا أن قلب هنري قد توقف للحظة. لكنه واصل السير، والتفت عند الزاوية ليرى أن إحدى نوافذ الطابق الأرضي مضاءة بإضاءةٍ داخلية. وجد الباب الخلفي وجرب مقبض الباب. ليجده مفتوحًا.

داخل المنزل، لم يستطع سماع شيء. لقد كان في غرفة خلفية لخلع الأحذية أبوابها مفتوحة على كِلا الجانبَين. وعندما استرق النظر من خلال أحد الأبواب، استطاع تمييز ما بدت أنها غرفة طعام. بينما يفضي الباب الآخر إلى ردهة خلفية. أخرج هنري هاتفه وضغط خاصية المصباح اليدوي. أصدرت أول خطوة اتخذها في الردهة المضاءة الآن صوت صرير انبعث من الأرضية الخشبية. فتوقف عن الحركة، ثم سمع صوتًا يصيح: «مرحبًا؟».

قال بصوتٍ أمل أن يبدو واثقًا: «الشرطة».

رد صوت، وعرف أنه صوت ليلي: «هنا بالأسفل».

أسرع في الردهة. ليجد بابًا مفتوحًا يقود إلى دَرج يفضي إلى القبو، وانبعث ضوء من الأسفل. صاح: «ليلي».

- هنري، أنا هنا بالأسفل. المكان آمن.

كان لا يزال يحمل مسدسه أمامه، ونزل إلى قبوٍ مجهزٍ يغمره ضوء قاسٍ. وعندما وصل إلى الدرجة السفلية، قالت ليلي: «أنا هنا».

التفت، فوجدها تجلس على سرير نقال في مقابلة الجدار البعيد. مغطاة بالدماء، ونصف وجهها مغطى تمامًا. وكان هناك رجلٌ على الأرض أمامها، مغطى بالدماء كذلك، بيدَ أنه لم يكن يتحرك.

قال هنري، وهو لا يزال يحمل مسدسه: «هل هو ميت؟».

- إنه كذلك.

ابتسمت ليلي في الواقع. وقد بدت تلك الابتسامة وحشية، شيء سيتذكره هنري لبقية حياته.

أعاد المسدس إلى جيب سترته واتجه نحوها، ليُلقي نظرة أفضل على الرجل المُمدَّد فوق السجادة البيج. وقال: «إيثان سالتز؟».

- أجل. لا أستطيع أن أصدق أنك عثرت علينا.

قال هنري: «لقد كان يستخدم اسم روبرت تشارنوك. أعتقد أنني عثرت عليكِ بعد فوات الأوان».

قالت ليلي: «كلَّا، لقد أتيت في الوقت المناسب تمامًا»، وركلت بساقها ليرى كاحلها مقيدًا بالسلاسل. أردفت: «المفتاح ليس معه. لقد تحققتُ. اعتقدت أنني سأموت جوعًا هنا بينما يتعفن هو على الأرض».

قال هنري: «يا إلهي»، وكانت تلك زفرة أكثر منها كلمة.

ثم أخذ أول نفسٍ عميقٍ حقيقي منذ نزوله درج القبو، وقد امتلأ منخاريه برائحة الدماء.

وعندما رأت ليلي هنري يصبح شاحبًا، قالت بسرعة: «كلُّ شيء على ما يرام الآن. دعنا نجد مفتاحَ هذه الأصفاد ونخرج من هنا».

***

الفصل الثاني والثلاثون

عثر هنري على المفتاح معلقًا على خُطاف بالقرب من درج القبو. وبعد أن فكَّ قيودي، جلسنا معًا ووضعنا خطة. ثم بحثنا عن مكانٍ لنضع فيه جثة سالتز. كان هناك مستودع مُؤنٍ كبير من خلال بابٍ واهٍ في القبو. وكان داخله معبقًا برائحة عفونة، مع وجود رفوفٍ قديمة على الجدران، وأرضيةٍ ترابية بدت وكأنها مغطاة بالأسمنت ذات يوم، مفسحةً المجال لتكوِّن جذور النباتات وارتفاع الأرض بفعل الصقيع. وقد غطى الأرض غطاءٌ بلاستيكي، وعندما حركته، اكتشفتُ قبرًا قد حُفر بالفعل إلى عمق قدم تقريبًا. وعلى الرفوف، رُصَّت أكياس من أكسيد الكالسيوم.

- أعتقد أن ذلك كان من أجلي.

انقلبتْ معدتي لرؤية ما كان سيصبح مثواي الأخير. أخبرت هنري أنني سأصعد إلى الطابق العلوي لأستخدم المرحاض. وبينما كنت هناك حاولتُ التقيؤ. كان المرحاض مجهزًا بشكلٍ رخيص لكنه نظيف، وامتلأت خزانة الأدوية بالمنتجات، والصابون، وأعواد تنظيف الأذن، والإيبوبروفين. غسلت وجهي في المغسلة، ثم نزعت كل ملابسي وخطوت أسفل المِرَشِّ وفركت جسدي بالكامل حتى أصبح نظيفًا. ثم جففت نفسي ولففت المنشفة التي استخدمتها حول نفسي. وجدت علبة من الضمادات بالإضافة إلى أنبوب من كريم المضاد الحيوي استخدمته

على أذني لفترةٍ من الوقت. تناولت أربعة أقراص إيبوبروفين، وابتلعتها بالماء مباشرةً من الصنبور.

في المطبخ، وجدت كيس قمامة كبير ووضعت ملابسي فيه، ثم صعدت إلى الطابق الثاني. كانت الغرفة التي يبدو أنها مكان نوم إيثان سالتز من حينٍ لآخر تشبه مرحاض الطابق السفلي. أثاثٌ رخيص لكن أنيق. كان السرير الفردي مُرتبًا، وهناك بعض الروايات الورقية على طاولة السرير. أشياء قديمة. كتاب لفيرجينيا أندروز. كتاب «الشيء» (It) لستيفن كينج. وأسفل الكتب، نسخة من مجلة نيويورك. قلَّبت فيها ووجدت مقالًا باسم سالتز. يُدعى «معلمٌ مراهقٌ في تيرلينجوا، تكساس». ارتبت في وجود آثارٍ أخرى من ماضي سالتز في أنحاء هذا المنزل، لكنني لم أكن مهتمة بشكلٍ خاص بالعثور عليها.

بحثت في خزانته ووجدت زوجًا من الجينز القديم بالإضافة إلى قميص وارتديتهما، كانا كبيرين جدًّا بالنسبة لي، لكنهما سيفيان بالغرض.

عدت إلى القبو ووجدت أن هنري قد سحب جثة سالتز بالفعل إلى الحفرة. رآني في زيِّي الجديد، وأنا أمسك كيس القمامة الذي يحوي ملابسي، وقال: «هل تشعرين بالراحة بعد الاستحمام؟».

- ليست لديكَ أدنى فكرة.

أضفنا ملابسي إلى القبر، بالإضافة إلى شراشف السرير والأغلال المُلطخة بالدماء، ثم غطينا كل شيء بالجير الحي. وجدت زجاجة مبيض ونظفنا بقية القبو بأقصى ما نستطيع. على المنضدة، وجدت الحقيبة التي أخذتها معي عندما ذهبت إلى مركز بلدة شيبوج. كانت تحوي الجرانولا التي تحبها والدتي، بالإضافة إلى محفظتِي ومفاتيح المنزل.

قال هنري: «يجب علينا أن نضع الأسمنت على هذه الأرضية، وبهذه الطريقة لن يُعثر عليه أبدًا».

- لا أهتم كثيرًا بهذا الأمر. سيُعثر عليه في النهاية، لكنني لا أعتقد أن ذلك سيكون قريبًا. وعندما يجدونه، لا أعتقد أنهم سيربطون بينه وبين إيثان سالتز أو روبرت تشارنوك. وربما سيفعلون، لكنني لا أعتقد أن الأمر سيهم كثيرًا في تلك المرحلة. ولن يكون هناك أيُّ رابطٍ بينه وبين أيٍّ منا أبدًا.

- سيكون لغزًا.

أعدنا الغطاء إلى الأرض ووقفنا ننظر إليه للحظة. قال هنري: «أي كلمات أخيرة؟».

- بئس المصير أيها الحثالة.

- على الأقل حفر لنا قبره بنفسه.

- هذا صحيح.

لم يتحرك أيٌّ منا على الفور. فقلت: «هل لديك قصيدة فكاهية لهذه المناسبة؟».

فكر هنري للحظة ثم قال: «كان هناك ذات مرة قاتلٌ يُدعى إيثان، دون أسبابٍ وجيهةٍ كان يغتال الأبدان. واليوم في حفرة رقد جثمانه. بعد أن لفظ آخر فضلاته».

لم أقل أيَّ شيءٍ على الفور، فقال هنري: «فضلاته هي الدماء».

- كلَّا، لقد فهمت. أعجبني ذلك. لديك موهبة حقيقيَّة.

ابتسم هنري، لكن عندما أخذت يده بين يدي شعرت بها ترتجف.

قبل أن نغادر، تفقدنا المنزل بأكمله، نمسح أي بقعة قد نكون تركنا فيها بصمات. ثم أغلقنا المنزل خلفنا، وقال هنري: «يجب أن نقود السيارة الجاجوار إلى فيلادلفيا ونوقفها. عندما يهمُّون بالبحث عن تشارنوك، سيبحثون أيضًا عن سيارته. هل يمكنكِ قيادة سيارة بناقل حركة يدوي؟».

أخبرته أنني أستطيع ذلك وتبعته عائدين إلى فيلادلفيا. حافظ هنري على الحد الأقصى للسرعة على طول الطريق. كان الوقت قبل الفجر بقليل، وبدأت السماء تعجُّ بخطوطٍ من الضوء البرتقالي الشاحب، ولم يكن هناك الكثير من السيارات على الطريق. تركنا السيارة الجاجوار على بُعد ربع ميل تقريبًا من المعرض، نظيفة ومفتوحة. وألقيتُ بالمفاتيح في حاوية القمامة.

بعد أن عدت إلى سيارة هنري، قلت: «هناك شيءٌ واحد أخير يجب أن أفعله».

- ما هو؟

- لقد أعدَّ إيثان سالتز قائمةً بأسماء كل من قتلهم. واحتفظ بها في كتابٍ مُزيف في مكتبته وأخبرني أي كتاب. أنا بحاجة إلى الحصول على تلك القائمة.

- لماذا؟

- لقد احتفظ بهذه القائمة على أمل أن يجدها أحدهم بعد وفاته. لقد أراد أن يكون مشهورًا، وأن يُعرف كواحد من أكثر القتلة المتسلسلين حصدًا للأرواح في التاريخ. كان هذا حلمه الحقيقي.

- إذًا لماذا تحتاجين إلى الحصول عليها أولًا؟

- لأنني وعدته بأنني سأحرقها، وسأحرص على ألَّا يعرف أحد اسمه على الإطلاق.

- هل وعدته بذلك؟

- وعدته بذلك حين كان يحتضر.

توقف هنري للحظة، ثم قال: «هل تعتقدين أنه مهم؟».

- ماذا؟

- هل تعتقدين أن وفاءك بوعدك مهم؟ أعني، إنه ميتٌ الآن. ربما يكفي أنه مات على اعتقاد بأنه لن يُذكر أبدًا.

- كلَّا، الأمر مهم. أعلم أنه غبيٌّ ومحفوفٌ بالمخاطر، لكنني أريد الحصول على ذلك الكتاب. لقد قطعت وعدًا.

- حسنًا.

وجدنا مطعمًا مفتوحًا على مدار الساعة وأحضرنا لأنفسنا وجبات إفطارٍ كبيرة، ثم تركني هنري هناك وحدي، ووجدت صحيفة على منضدة المطعم، فأحضرتها إلى مقصورتي لأقرأها. كان قد غاب لأكثر من ساعة، وعندما عاد أخبرني أنه رأى ريبيكا، زوجة إيثان، تغادر المنزل الحجري، وأنه استخدم أحد أدوات الفتح الخاصة به لفتح باب الدخول المنخفض الذي كان مدمجًا في جانب الدرج أسفل مستوى الشارع مباشرةً.

- هل تعتقد أنك أطلقت جهاز إنذار؟

- لقد انتظرت عشرين دقيقة ولم تصل الشرطة، لذا لا. لكن عندما تدخلين إلى هناك لن أطيل البقاء.

أخذت كيسًا من الشطائر من المطعم، معتقدةً أنه لن يضر أن أبدو وكأنني شخص يقوم بتوصيل الطعام، وذهبت مباشرةً إلى منزل سالتز من خلال الباب الذي كان ربما، في يومٍ من الأيام، مدخلًا للخدم. خرجت إلى مطبخٍ ذي أرضية حجرية وطاولة، وصحت بالتحية داخل المنزل فقط للتأكد من أنني الوحيدة هناك. لم يجبني أحد.

تحركت بسرعة، وصعدت ثلاث درجات وجدت مكتب إيثان، كنت سعيدة لأنه لم يكن مقفلًا. ووجدت أن أحد الجدران بالكامل عبارة عن رف كتب مدمج، بدأتُ أفحص كعوب الكتب، ثم أدركتُ أنها مرتبة بدقة أبجديًّا حسب المؤلف. وجدت كتاب تشيفر، الذي يمكن التعرف عليه من كعبه الأحمر، وفتحته، لأجد الفتحة الصغيرة التي خصص فيها سالتز

مخبأً. كان بداخلها قصاصة ورق مطوية، وما بدا أنه لعبة جنديٍّ معدني قديم. تركت الجندي وأخذتُ القائمة.

أعادني إيثان إلى شيبوج. وتوقفنا في الطريق عند مجمع تسوق فيه متجر مارشالز، ابتعت منه ملابس داخلية وبنطال جينز وسترة قطنية. وألقينا ملابس سالتز في حاوية قمامة أخرى.

عدنا إلى السيارة، وربما لمعرفته بأننا على بُعد بلدتين فقط من منزل والديَّ، لم يشغل هنري المحرك على الفور. التفت وقال: «ماذا ستقولين لوالديكِ؟».

- لم أفكر بالأمر تمامًا بعد، لكن أعتقد أن الأسهل إخبارهم بأنني هربت للقاء شخصٍ ما، وأن الأمر كان خطأً، وأنك جئت لإنقاذي. إذا جعلت الأمر يتمحور حول علاقةٍ رومانسية، فلن يطرحوا الكثير من الأسئلة.

- لقد أبلغوا الشرطة.

- أعلم. سنخبرهم فقط بأن الأمر كله كان خطأً فادحًا. سيكون الأمر فوضويًّا، لكنه سيمر.

- وماذا ستفعلين بالقائمة؟ هل ستحرقينها؟

- لن أحرقها، لا، ولكن سأحرص على ألَّا يراها أيُّ شخصٍ آخر على الإطلاق.

- ألن يكون من الأفضل أن ينتهي الأمر بتدخُّل الشرطة؟ قد يساعد ذلك في إغلاق ملفات بعض القضايا، وربما يكون بمنزلة عزاء لبعض العائلات المكلومة.

- لقد خطرت لي هذه الفكرة من قبل. لكنني لا أرغب في أن ينتصر إيثان سالتز. لقد كان شرًّا محضًا، وكأنه شذوذٌ في خلق الطبيعة،

كما أظن. ربما كان الأشخاص الذين قُتلوا على يده ليصعقهم البرق كذلك. هل هذا منطقي؟

- أظنُّ ذلك.

- وليست مهمتي أن أقوم بعمل الشرطة نيابةً عنها.

- لا أعرف، في الوقت الحالي أنا سعيدٌ فحسب لأنك تمكنتِ من قتله قبل أن يقتلك.

- لا أنفك أفكر في ذلك أيضًا، ولكن لكي أكون صادقة، كنت مستعدةً للموت. كان الأمر ليستحق.

- ماذا تعنين؟

- كما قلت، لقد كان شريرًا. لو كنت قد لاقيت حتفي محاوِلةً إيقافه، لكان هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله.

- هل تعتقدين ذلك؟

- أجل.

قبل أن ننسحب من مجمع التسوق، طلب هنري أن يرى القائمة. كنت قد قرأتها بالفعل وسلمتُها له.

- لقد رقَّمها.

- أجل. لقد فعل.

ظل صامتًا للحظة بينما يقرأ، ثم أعادها قائلًا: «أعتقد أن هناك شخصًا مفقودًا».

- اسم جوزي نيكسون، المرأة التي لقيت مصرعها في شيبوج.

- صحيح. ربما تكون بالفعل قد أقدمت على إنهاء حياتها بيديها.

- ربما.

***

آلان

كان الخريف عادةً أقل أوقات العام انشغالًا بالنسبة لآلان. وقد بدأت المدارس والجامعات للتو فصولها الدراسية الجديدة، بينما طُرح التطوير المهني جانبًا. لكن كان هناك مؤتمر تكنولوجيٌّ سنوي سيعقد في آن آربور، بولاية ميشيجان، خلال عطلة نهاية الأسبوع الثالثة من أكتوبر والذي قد حضره من قبل، وعندما أُرسِلت إليه دعوة للمشاركة كعارض مرة أخرى، قررَّ الحضور. سيكون هذا أول مؤتمر يحضره منذ وفاة زوجته مارثا.

رتب لشحن بضاعته إلى مركز المؤتمرات والفندق حيث يُعقد معرض آربورتيك ArborTech، ثم سافر مبكرًا قبل يومٍ واحد لتجهيزها. وبدت عودته إلى العمل مجددًا أشبه بالخيال، عائدًا إلى السرب، وكأن شيئًا لم يتغير. لقد أمضى الصيف بأكمله يتعامل مع الحطام الذي خلفه رحيل زوجته. وقد تحمل العديد من استجوابات الشرطة، وبعضها جعل آلان يشعر وكأنه مشتبهٌ به بطريقةٍ ما في جريمة القتل، على الرغم من حقيقة وجوده في ساراتوجا سبرينجز حين وقع الحادث. لقد رفض عدة طلبات لإجراء مقابلاتٍ صحفية، على الرغم من أنه تابع القصة بنفسه بطبيعة الحال. كانت هذه ثاني حالة وفاة بسبب اقتحام منزلٍ خلال عامٍ في بورتسموث، وقعت الأولى على الجانب الآخر من البلدة، راح ضحيتها امرأةٌ مسنة تعيش بمفردها وقد تعرض منزلها للسرقة،

على عكس منزل آلان ومارثا. وفي قرارة نفسه، علم إيثان أن ما حدث لزوجته لا يمت بصلة لما حدث لجين ليونارد في حي كولونيال باينز.

لقد طلب الناس من آلان ألَّا يتخذ أيَّ قرارات مهمة في حياته إلا بعد مرور عام على الوفاة، لكنه علم أنه لا يستطيع البقاء في المنزل نفسه حيث لقيت مارثا مصرعها بتلك الطريقة العنيفة. لذا طرحه في السوق بسعرٍ تنافسي للغاية وباعه في غضون أيام، وانتقل إلى منزلٍ مفروش جنوب بورتلاند في بلدة هامبتون. وترك جلبرت وراءه مع جار محبٍّ للقطط، شاعرًا بالذنب قليلًا، لكن جلبرت كان ملكًا لمارثا، وليس له.

ومضى قدمًا في حياته.

بعد أن جهز جناحه في قاعة العارضين، غادر آلان مركز المؤتمرات والفندق ليتنزَّه. تذكر الآن سبب إعجابه بهذا المؤتمر تحديدًا. إذ كان يُعقد في وسط المدينة ولكن بجوار متنزهٍ كبير. كان يومًا باردًا، وعلى عكس نيو إنجلاند، بدا وكأن جميع الأشجار في ميتشجان قد خلت من أوراقها بالفعل. إذ غطى المتنزه أوراقٌ يابسة بلون الصدأ، وكانت السماء المنخفضة رماديةً منذرةً بالشر. وبعد أن سار آلان لمدة أقل من نصف ساعة، استدار واتجه عائدًا إلى دفء الفندق.

بدا زواجه القصير من مارثا الآن وكأنه ذكرى بعيدة. كان وحيدًا لفترة طويلة ثم لم يعد وحيدًا والآن هو وحيد مرة أخرى. لطالما كان زواجه تجربة، طريقة لاختبار نوعٍ مختلف من الحياة. لقد كان زواجه الأول كارثةً. وقد حذرته والدته في ذلك الوقت، إذ انتحت به والدته جانبًا قبل الزفاف بشهر لتخبره أن أنجيلينا تحمل سمات عاهرة. لم يستمع إليها حينها، لكنها كانت محقةً بالطبع، إذ غادرت أنجيلينا بعدما فرض عليها قواعدَ لتصرفاتها في غرفة النوم. كانت أنجيلينا هي من قدمت له

الأفكار، فهناك العديد من النساء اللواتي فعلن ذلك، لكنه لم يتوقَّع ذلك من زوجته.

الحقيقة أنه لطالما راودته أفكارٌ سيئة. لكنه كان يمتلك أفكارًا جيدةً كذلك، الكثير منها، وأخبر نفسه بأن الأفكار الجيدة تعادل الأفكار السيئة. ولهذا السبب قرر أن بإمكانه الزواج مجددًا، لأن مارثا منحته أفكارًا جيدة فقط. لقد أحبها، وأراد حمايتها، حتى إنه أراد أن يمارس الحب معها، وأن يلمسها جسديًّا. في بعض الأحيان كانت تجعله يقول أمورًا سيئة في أذنها، لكن الأمر كان على ما يرام في معظم الأوقات. فالأمور الجيدة كانت تعادل السيئة.

حين يكون مسافرًا، يصبح رجلًا مختلفًا. كان يعلم ذلك، لكنه أقنع نفسه بأن الرجل المسافر لا علاقة له بالرجل المتزوج من مارثا راتليف والقاطن في منزلٍ لطيف في نيو هامبشاير. لقد كان هذا مثل تلك الحملة الإعلانية للاس فيجاس -ما يحدث في فيجاس يظل في فيجاس- لكن فيجاس الخاصة به هي كل الوقت الذي يقضيه بعيدًا عن المنزل. وقد نجح شعار فيجاس لفترةٍ من الوقت. حين يكون مسافرًا، يسمح لنفسه بالشعور بالجوع، ويسمح للمشاعر بالتراكم والازدياد، ثم يجد امرأة. لطالما كان يجد واحدة عاجلًا أم آجلًا، لأن العالم يعجُّ بالعاهرات الصغيرات القذرات. كل ما عليك فعله هو البحث عنهن. أحيانًا لا تحتاج حتى إلى البحث. فسوف يأتين إليك من تلقاء أنفسهن.

هذا ما حدث مع جوزي نيكسون. لم يكن يحب أن يفكر فيها كثيرًا، لكنه كان مضطرًّا إلى ذلك أحيانًا، لأن ما حدث معها غيَّر حياته إلى الأبد. كان هناك ما قبل جوزي نيكسون، وهناك ما بعد جوزي نيكسون، ولم تكن هناك أي طريقة للعودة إلى ما قبل.

كان قد رصدها على الفور في أثناء التسجيل في المؤتمر بجامعة شيبوج. ترتدي فستانًا أحمر بلون الدماء يكشف عن صدرها. وقد تخيل أن الكلمة الأمثل لوصفها هي «قوطية»، لكن كان هناك أيضًا شيءٌ أدبيٌّ في مظهرها، وكأنها خرجت مباشرةً من أحلام إدجار آلان بو الجنسية. كان مكياجها داكنًا على بشرةٍ بيضاء للغاية. وثمة وشوم على ساقيها المكشوفة.

التقيا في الليلة التالية عندما رصدها بمفردها على الأريكة. لقد رآها من قبل، في الواقع، تتمايل في طريقها خارجة من الحانة، وبيدها كأسٌ من النبيذ الأحمر. استطاع أن يدرك من طريقة مشيتها أنها ثملة. ثم فقد أثرها، متسائلًا إن كانت قد ذهبت لتناول الطعام في مكانٍ ما في تلك البلدة الصغيرة في كونيتيكت، أو ربما قد استسلمت بالفعل لإغراء رجلٍ ما. وكان على وشك المغادرة عندما رآها تجلس على أحد الأرائك المصطفة على جدران القاعة التي يُعقد فيها المؤتمر. جلس بجانبها، فأصدرت الوسادة البلاستيكية الرخيصة صوتًا يشبه الأنين. أخبرها بالقصة التي اعتاد أن يرويها في رحلاته، كيف أنه متزوج لكن زواجه خالٍ من العاطفة، وأخبرته بأنها سعيدةٌ في زواجها لكنها تقيم علاقات مع رجالٍ آخرين. لقد جعلت الأمر يبدو وكأنه شيء عادي.

كان من المضحك أن يعود بالذاكرة إلى ذلك الوقت، ويتذكر أنه في الليلة التي ذهب فيها إلى غرفة جوزي، كاد ألَّا يذهب. لقد دعته، وأخبرته أن لديها بعض الأمور لتنجزها أولًا وأن يذهب إليها عند منتصف الليل. وطلبت منه أن يطرق الباب ثلاث مرات. لو كان المؤتمر قد عُقد في مدينةٍ ما، لربما خرج آلان إلى الشوارع بحثًا عن امرأة أخرى -فتيات يغادرن الحانات، أو فتيات يبعن أنفسهن مقابل المال من أجل المخدرات- لكن المؤتمر عُقد في حرمٍ جامعيٍّ ريفي. أين كان من المفترض أن يذهب

آلان؟ لذلك، عند منتصف الليل، طرق باب جوزي نيكسون تمامًا كما طلبت منه. ففتحت الباب وكانت هناك عارية تمامًا. وقد غطت الوشوم جسدها بالكامل -سمة العاهرة، كما قال صوت والدته في رأسه-كانت ابتسامتها عريضة لدرجة أنه شعر بالرهبة قليلًا من أسنانها. كان ينبغي أن يدير ظهره ويغادر، لكنه لم يفعل.

بعد ذلك، أخبرته أنها استمتعت بالرغم من أنه لم يؤد بشكلٍ جيد حقًّا. أخبرته إنها أحبت ما فعله بيديه. ثم ترددت قبل أن تقول: «أعتقد أن مشكلتكَ تكمن في خوفك من النساء الواثقات. معظم الرجال كذلك، كما تعلم».

ضحك كما لو أنها قالت شيئًا مضحكًا، وقال: «ربما».

- لا داعٍ للقلق بشأن ذلك.

سألها، رغبةً منه في تغيير مجرى الحديث فحسب: «ما الذي يثير خوفكِ؟».

قالت ضاحكة: «إنني لا أخاف شيئًا»، ثم أضافت: «كلّا، هذه محضُ كذبة. أخاف المرتفعات بشدة. حتى إنني لا يروق لي التواجد على هذا الارتفاع في غرفة المَهجع هذه».

- أتعلمين أن لهذه الغرفة شرفة؟

- كما لو لم يكن هذا أول شيءٍ لعين لاحظته عندما دخلت هنا.

قال: «لنخرج إلى هناك».

- هل أنت مجنون؟

- إنها ليلةٌ جميلة. لقد كنت بالخارج في شرفتي منذ قليل وبإمكانكِ رؤية النجوم بأسرها. سنقف هناك لنصف دقيقة. سوف تتغلبين

على مخاوفكِ، وبعد ذلك ربما سأحاول التغلب على مخاوفي من النساء الواثقات.

كان قلقًا من كونه قد أضاف تلك الكلمات الثلاث الأخيرة بقدرٍ زائد من السخرية والغضب، لكن لم يبدُ أنها قد لاحظت. باقي ما حدث كان ضبابًا متقطعًا. في النهاية وافقت على الخروج إلى الشرفة. وعندما كانا هناك، أحاط خصرها بذراعيه، فأغمضت عينيها ومدَّت ذراعيها لتستشعر هواء الليل الرطب. لم يكن آلان متأكدًا ممَّا إذا كان قد أحضرها إلى هناك ليلقي بها أم أنه قرر فعل ذلك في اللحظة الأخيرة. كل ما يعرفه أنه رفعها ثم كانت تندفع فوق حافة الشرفة، وخرجت صرخةٌ مكتومة غريبة من حلقها.

بعد تلك الليلة، انقلب العالم رأسًا على عقب. لقد حاول أن ينسى ما فعله، لكنه ظلَّ يعاوده في ساعات يقظته من الليل. في بعض الأحيان كان يشعر بالغثيان حين يفكر في الأمر. وأحيانًا يشعره بإثارة لم يشعر بها منذ أن كان مراهقًا. كان أمرًا متقلبًا.

في فلوريدا، شرب حتى الثمالة في حانة فندقٍ آخر وانتهى به الأمر في سيارة في ساحة انتظار السيارات بجوار امرأة، تخبره أنه فتًى شقي (لقد كان كذلك، كان كذلك بالفعل). وفي اللحظة التالية وجدها تقاوم وتلوح بذراعيها، بينما كان أحدهم بالمقعد الخلفي يلف شيئًا حول عنقها. شاهد كل شيءٍ يحدث أمامه. اعتقد ذلك على أي حال. لقد كانت لحظةً مشوشة أخرى، إذ تدفق الكحول في دمه، ممَّا جعله مُشوشًا، وتعالت الأصوات في رأسه. ربما لم يحدث ذلك على الإطلاق. ولكن كلَّا، لم يعتقد ذلك. لقد حدث. وبعد أن فارقت الفتاة الحياة، قال الرجل في المقعد الخلفي: «اهدأ، يا صديقي. من الأفضل أن تركض الآن». لقد

تذكر ذلك الصوت الآخر جيدًا. وفي الغالب اعتقد أنه حقيقي. في بعض الأحيان فقط كان يعتقد أنه ربما هو من خنقها.

كل ما يعرفه آلان حقًّا أنه بطريقةٍ ما تسبب في موتها. ربما لم يكن هو من خنقها، لكنه جعل ذلك يحدث.

لقد جلب الموت إلى عالمه، والآن يلتهم كل شيء.

كان يعلم أن هذه الأفكار جنونية. كان يعلم ذلك. ولكن ما هو التفسير الآخر الذي يمكن أن يكون هناك؟ لقد كان هناك ما قبل جوزي نيكسون وما بعد جوزي نيكسون، ولم تكن هناك عودة إلى ما قبل. عندما اكتشف أن مارثا قُتلت في غرفة نومهما، لم يتفاجأ حتى. إذ تأكد له كل ما كان يعرفه بالفعل. لقد نهض وحش في الليلة التي ألقى فيها بجوزي نيكسون من تلك الشرفة. وكان هذا الوحش هو المسؤول.

عندما عاد إلى غرفته بالفندق في آن أربور، استلقى على الأغطية وظلَّ يفكر في الأمر، ويفكر كيف دخل الموت إلى حياته وغيَّر كل شيء. ربما كان يجب ألَّا يخوض هذه الرحلة. ربما كان الوقت مبكرًا جدًّا. في المنزل الريفي في هامبتون لم تهاجمه هذه الأفكار بهذا القدر.

لكن في اليوم التالي، ارتدى آلان بنطالًا وسترة بذلته ونزل إلى أسفل ليدير جناحه. كان الصباح بطيئًا، وأخذ عددٌ قليل من المعلمين والإداريين يلقون نظرات خاطفة نحو طاولته، غير راغبين في الالتزام والنظر حقًّا إلى ما لديه، ولكن بحلول وقت الغداء كان هناك حشدٌ كبير وباع من البضائع ما بلغت قيمته خمسمئة دولار تقريبًا. انقضى باقي اليوم كلمح البصر، وتحرَّر ذهن آلان من كل تلك الأفكار المزعجة التي راودته الليلة الماضية.

في تلك الليلة شعر بتحسُّنٍ أكبر. وسار إلى صالون الجعة وتناول عشاءً لائقًا، وجلس عن غير قصدٍ بجوار طاولة تضم حاضرين من

المؤتمر نفسه، رجلان وامرأتان. كانت إحدى المرأتين ترتدي تنورة تصل إلى منتصف الفخذ، وعندما عادت مرة أخرى إلى مقصورتها بعد عودتها من الحمام، انزلقت تنورتها لأعلى وتمكن آلان من رؤية فخذها الأبيض. لم تكن على هذا القدر من الجمال، ذقنٌ رفيع، وشعرٌ ضعيف، ربما كانت تلك الفتاة النابغة طوال حياتها، والآن تدرِّس علوم الحاسوب في إحدى كليَّات التقنية الإقليمية، لكن الطريقة التي ظلت تضع بها ساقًا فوق الأخرى وتنزل ساقًا عن الأخرى جعلت آلان يظنُّ أنها ربما تكون مستعدة، وربما يكون هو فقط...

فجأةً أخذت تسحب تنورتها إلى أسفل وتطلعت إليه باتهام، والتقت أعينهما، فالتفت آلان بعيدًا، وهو يشعر بحمرة الخجل تندفع إلى أعلى عنقه. دفع فاتورته وغادر الحانة، وهو يتجول لفترةٍ من الوقت، باحثًا عن حانة من نوعٍ مختلف، ربما واحدة لا تكون فيها النساء متعاليات إلى هذا الحد. في النهاية عثر على حانة جامعيَّة، وجلس في مقصورةٍ صغيرة في الخلف، يحتسي الجعة ويراقب الفتيات الجامعيات. كانت تلك الفتيات مستعدات لذلك بالتأكيد، بل يتوسلن من أجل ذلك عمليًّا، لكن لم تنظر أي واحدة منهن تجاهه.

عاد إلى فندق المؤتمر وراودته فكرة تناوُل جعة أخيرة في البار، لكنه تعثر قليلًا وهو يعبر سجادة الردهة فاضطر إلى التوقف. سألته امرأةٌ ما: «هل أنت بخير؟»، وأمسكت بذراعه.

- أجل، أجل.

استطاع أن يصل إلى الطابق السابع إلى حيث غرفته، لكنه لم يتمكن من العثور على بطاقة المفتاح الخاصة به في أيِّ مكان. لذا عاد أدراجه إلى الردهة ليحصل على واحدةٍ جديدة. وعندما وصل أخيرًا إلى غرفته في الفندق، كان عقله مشوشًا وأخذت الغرفة تدور به بلطف. خلع

حذاءه، لكن هذا كل ما خلعه قبل أن يصعد إلى سريره ويسقط في سباتٍ عميق.

الأصوات –أو ربما كان صوتًا واحدًا- لم توقظه، لكن اليد التي على وجهه فعلت ذلك. في البداية كان تربيتًا خفيفًا، ظن أنها ربما كانت مارثا تخبره بأنه تأخر في الاستيقاظ، أو جلبرت يريد الطعام، لكنه شعر بعدها وكأنَّه تلقى صفعة. خفيفة، لكنها صفعة على أي حال. فتح عينَيه.

كانت تمتطيه على الفراش، امرأةٌ شاحبة ترتدي قبعة شتوية داكنة ضيقة. قالت: «مرحبًا، آلان».

قال بصوت بدا دبقًا في أذنيه: «من أنتِ؟».

- أنت لا تعرفني. لقد كنت صديقةً لزوجتك منذ زمن طويل.

كانت عيناه تغمضان مرة أخرى، وأمسكته المرأة من وجنتيه وهزَّت رأسه حتى قال: «كيف لكِ أن...؟».

- أريد فقط أن أطرح عليك بعض الأسئلة، حسنًا، آلان؟

- حسنًا.

أجابها، وقد أصبح سعيدًا فجأة بالإجابة عن الأسئلة. وبات من الواضح أن ما يحدث حلمًا، ولم يكن خائفًا من الأحلام. بل كان مسترخيًا، يشعر وكأنه يطفو.

قالت المرأة: «هل تتذكر جوزي نيكسون؟».

كانت شاحبة، ولم تكن لأنفاسها، القريبة جدًّا من أنفاسه، أي رائحة. كان ثمة شيء مألوفًا بها، ولكن قليلًا فقط. ربما قد حلم بها من قبل.

قال آلان: «هل أنتِ شبح؟».

قالت: «إذا كنتَ ترغب في ذلك»، وكان آلان سعيدًا لأنها قالت ذلك. كان يحلم حلمًا وديعًا.

- أنا شبحٌ يريد معرفة المزيد عن جوزي نيكسون.
- لم أكن أقصد إيذاءها.
- لكنكَ فعلت، لقد آذيتها حقًّا.
- لقد ألقيتُ بها من الشرفة.
- لم فعلتَ ذلك؟ هل تتذكر؟

كان يتذكر بالفعل، لكن الكلمات لم تكن تتدفق من رأسه إلى فمه كما ينبغي. وفي النهاية قال: «لا أعلم».

قال الشبح: «لا بأس، فلكلٍّ منّا أسبابه».

- لم أنتِ هنا؟
- أنا هنا لأقتلكَ.

كان يعلم أن كلماتها يجب أن تكون مخيفة، لكنه بطريقةٍ ما لم يكن خائفًا عندما قالتها. ربما لأن كل ذلك كان حلمًا. أو ربما لأنه لم يكن خائفًا من الموت. ربما لم يعد يخشى الموت منذ زمن.

- وكيف تنوين فعل ذلك؟
- القرار يعود إليك. أنت تعلم أن هناك شرفة في غرفة الفندق هذه، أليس كذلك؟

قال آلان: «كان ذلك أول ما رأيتُه»، والآن أصبحت الكلمات تخرج من فمه دون الحاجة إلى التفكير فيها أولًا. كانت تتدفق فحسب.

ساعدته الشبح على النهوض من الفراش -كان الأمر أسهل ممَّا تخيل- وأخرجته إلى الشرفة. استطاع آلان سماع صوت الريح، لكنه لم يستطع الشعور بها حقًّا. قال: «هناك الكثير من النجوم».

ساعدته الشبح في تجاوز سياج الشرفة –لم يكن الأمر سهلًا– لكنه تمكن من إنزال نفسه على الحافة الضيقة من الخرسانة على الجانب الآخر من السياج. الآن يمكنه أن يشعر بالريح. لقد كانت باردة، لكنها ناعمة أيضًا. لمست كتفه، لكنه التفت وقال: «لا، لستُ بحاجة إلى مساعدتك».

- هل أنت متأكد؟

- أنا رجلٌ بالغ. أستطيع القيام بهذا بمفردي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ابتسامتها، وبدت أسنانها مثل أقمار صغيرة. ومن ثم، ودون أي مساعدةٍ من جانبها، خطَا نحو الهواء الساكن الرتيب.

***

مكتبة ياسمين

telegram @yasmeenbook